أسرار البلاغة

للإمام عبد القاهر الجرجاني

٤٠٠ — ٤٧١ هـ — ١٠١٠ — ١٠٧٨ م

شرح وتعليق الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الثاني

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

الناشر
مكتبة القاهرة
لصاحبها: علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية بميدان الأزهر بمصر
[illegible] ٩٤٦ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا هو الجزء الثاني من « أسرار البلاغة » للإمام الناقد العربي الكبير شيخ البلاغيين ، عبد القاهر الجرجاني ، يصدر بشرحنا وتعليقنا عليه وإيضاحنا لكثير من مسائله ومشكلاته العلمية .

إن تراث عبد القاهر الجرجاني في البلاغة جدير منا بكل عناية وإكبار ، وبكل خدمة علمية وبحث تحليلي لآرائه ونظرياته في النقد والبلاغة .

ونحن نأمل أن يقبل الباحثون عن تراثنا في النقد والبلاغة على قراءة عبد القاهر ، وتدبر أفكاره البلاغية والنقدية ، لعلهم يكشفون عن شيء حول مضامينه ، وعن الجديد من آرائه ونظرياته .

وأحمد الله على توفيقه ، وأسأله مزيداً من الرعاية والعون والسداد .

وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى أقوم طريق ، وما توفيقنا إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجي

مقدمة الجزء الثاني من الكتاب

— ١ —

عبد القاهر شخصية طريفة حقاً ، عاش ثمانية وستين عاما ميلادياً ، وواحداً وسبعين عاماً هجرياً (٤٠٠ — ٤٧١ هـ : ١٠١٠ — ١٠٧٨ م) . وبذلك يكون قد مضى على وفاته تسعة قرون ميلادية ، وفى تمام ١٤٠٠ هجرية يكون قد مضى على ميلاده عشرة قرون هجرية ، وكتاب « أسرار البلاغة » يمثل لنا عبد القاهر فى تحليله النقدى الرائع لأساليب البيان العربى . والفروق بين أسلوب وأسلوب ، وشاعر وشاعر فى الصورة الشعرية عند هذا أو ذاك .

وعبد القاهر من أعظم النقاد فى تاريخ الثقافة الأدبية عند العرب ، وهو الذروة التى وصل إليها النقد العربى ، وقد سبقه نقاد كبار وضعوا أصول نظريات فى النقد ، فالأصمعى وضع مقياس الشخصية الفنية فى النقد فى كتابه « فحولة الشعراء » ، وابن سلام وضع مقياس الطبقة فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، والجاحظ وضع مقياس الذوق فى تقرير الأثر الأدبى ، وابن قتيبة وضع مقياس المحاكاة للجاهليين ، وابن المعتز وضع نظرية البديع ودافع عن المحدثين من خلالها ، وقدامة وضع مقياس الميزان النقدى فى تقدير الشاعر والشعر ، والآمدى وضع مقياس العمودية أو نظرية عمود الشعر . والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى وضع نظرية العدالة النقدية فى الحكم على الشاعر ، وعبد القاهر الجرجانى وضع نظرية النظم وطبق عليها تطبيقات نقدية رائعة فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » .

ويقول الدكتور محمد مندور فى كتابه « فى الميزان الجديد » ص١٤٢ : « إن لدينا كتب نقد منهجى مفصل لا نظن أن الأوربيين قد وضعوا فى آدابهم خيراً منها ، وخير مثل لتلك الكتب هو : « الموازنة » للآمدى ، و « الوساطة » للقاضى الجرجانى » . . ومع ذلك فالفرق كبير بين عبد القاهر الجرجانى وبين الآمدى والقاضى الجرجانى ، فإذا كانت أحكام هذين الناقدين تعد الأساس القوى لنشأة النقد العربى ، فإن دراسات عبد القاهر قد بنت للنقد صرحا شامخا ، وكتاباه « الدلائل » و « الأسرار » جد مبتكرين فى تاريخنا النقدى والبيانى . ويرى الدكتور مندور أن كتاب « أسرار البلاغة » أقرب إلى الفلسفة النظرية منــــه إلى النقد الأدبى . فالأدب فن لغوى ، ومنهجه هو المنهج الفقهى ، كما فهمه عبد القاهر وطبقه فى « دلائل الإعجاز »(١) .

وفى الواقع أن « الأسرار » استهداء بالذوق وتحليل للنصوص ووضع أصول بيانية من خلال هذا التحليل وبإرشاده .

ويبحث عبد القاهر فى « أسرار البلاغة » على المعانى الثانوية ذات العلاقة اللزومية ، بينما يقصر البحث فى « الدلائل » عن وجوه النظم وأسراره ، ويجعل البلاغة فيه . . ومن ثم كانت بحوث عبد القاهر فى « الأسرار » ترجع إلى الكلمة المفردة ، من حيث دلالتها على المعانى اللزومية ، وذلك فى التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية ، أما « دلائل الإعجاز » فهو بحث فى الأسلوب وخصائصه ووجوهه والفروق البلاغية التى تدور حول هذه الوجوه ، ويؤكد ذلك ما قاله عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز . . » من أنه « ما رأينا فى الدنيا عاقلا اطرح النظم ، والمحاسن التى هو السبب فيها ، من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب

---

(١) ١٤٧ فى الميزان الجديد — للدكتور مندور .

المجاز والإيجاز ، وصد بوجهه عن جميعها » . فدراسة النظم أفاض فيها عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » ، ودراسة المحاسن التى هو السبب فيها ، من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز هى موضوع كتاب « أسرار البلاغة » .

— ٢ —

ولا يغفل عبد القاهر فى كتابه «أسرار البلاغة» عن أهمية المعانى الثانوية ودلالتها الجمالية فى النص الأدبى ، سواء كانت هذه المعانى الثانوية معانى لزومية ، أو مستتبعات التراكيب ، أو أثراً لرموز صوتية ، أو إيحاءات نفسية ، فهى التى تعطى للأسلوب دلالته البلاغية ، وتمنحه قيمة جمالية ، وكثير من المهارة الأدبية إنما هو فى إطلاق تلك المعانى الثانوية لتؤثر تأثيرها فى الخيال . ويقرر أن اللفظ يدل على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، فالمعنى عنده هو المفهوم من ظاهر اللفظ ، ومعنى المعنى هو أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ، ومدار هـــذا على الاستعارة والكناية والتمثيل .. وقد فصل الحديث عنها فى هذا الكتاب . « أسرار البلاغة » . وهو فى ذلك كله يتلاقى مع كبار النقاد فى مختلف العصور ، أو هم الذين يتلاقون مع عبد القاهر ، ويدورون حوله .. يقول لاسل آبر كرومبى الناقد الإنجليزى فى كتابه «قواعد النقد الأدبى» : إن المعنى الذى نجده فى معاجم اللغه ماهو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية ، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن إطلاق تلك المعانى الثانوية لتؤثر تأثيرها فى الخيال(١) . فإن أسمى ما يصل إليه فن الأدب أن

(١) ص ٤ قواعد النقد الأدبى ترجمة د. محمد عوض .

يجعل(١) الإيحاء اللفظي من القوة والسيطرة وبعد المدى والحيوية والقوة بمكان عظيم ، فالشاعر(٢) يستخدم المعاني العقلية للألفاظ ، ويستخدم كذلك علاقاتها وإيحاءاتها وإيقاعها والصور الموسيقية وغيرها مما تكونه الألفاظ حين يربط بعضها ببعض ، فإن عناصر الصورة تتكون من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات ، ويضاف إلى ذلك مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني ، وهي الإيقاع للكلمات والعبارات ، والصور والظلال التي يشعها التعبير : وأصبحت هذه المعاني الثانوية ذات خطر كبير في الصورة الأدبية(٣) .

— ٣ —

ولقد كشف عبد القاهر بذهنه اللماح ، وعبقريته الفائقة عن نظرية الرمزية في اللغة ، فقرر أن اللفظة رمز لمعناها ، رمز الفكرة أو التجربة أو العاطفة ، أو المعنى ، وأن قيمتها فيما ترمز إليه ، وليست البلاغة فيها وحدها .

وإذا قال أفلاطون من قبل : إن الكلمة إنما تعني الفكرة ذاتها وحقيقتها الخارجية المتمثلة في صورة كلية على السواء(٤) ، أو قال أرسطو : إن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير والكلمات رموز للمعاني(٥) . فإن عبد القاهر يؤكد أنك تطلب المعنى وإذا ظفرت به فاللفظ

---

(١) ص ٣٨ المرجع نفسه .

(٢) ١٠٢ الأدب وفنونه ، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتي .

(٣) ص ٥٤ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث السحرتي .

(٤) ٢٧ الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل .

(٥) الخطابة لأرسطو ١٤٠ ب س ١٥ — ٢٤ .

معك وإزاء ناظرك(١). ويجيء برجسون بعد ذلك فيقول: إننا إنما نفكر بالألفاظ، ويقول لاسل آبركرومبي أستاذ النقد الإنجليزي بجامعة لندن: إن على الأديب أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه ورمزاً لتلك التجارب، وعليه أن يجمع بين مقدرته على التعبير عما في نفسه بذلك الرمز وبين مقدرة ذلك الرمز نفسه على نقل تجاربه إلى القراء(٢) فما وظيفة الألفاظ في الأدب إلا أن تكون رمزاً(٣)، ويقول ميخائيل نعيمة في كتابه «الغربال»: لا قيمة للغة في ذاتها ونفسها، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر أو عاطفة.

— ٤ —

والعلاقات الأسلوبية بين الألفاظ في رأي عبد القاهر هي موطن البلاغة، وهي ماعبر عنه بالنظم، ومانعبر نحن عنه بالشكل والصورة، مع الخلاف بين النقاد في تحديد معنى الشكل تبعاً لاختلافهم في تحديد معنى المضمون، فمن مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية، فاللغة حين يستعملها الشاعر تصبح لغة شعرية، لا لأنها في ذاتها لها هذه الخاصية، ولكن لأنها خضعت للتجربة الشعرية في نفس الشاعر ومقتضيات التعبير عن هذه التجربة، فالشاعر يريد إنتاج تركيب معين من خلال اللغة ذات الطبيعة التحليلية، وأحداث الأثر التركيبي من خلال أداة تحليلية يمثل أعظم نجاح الشاعر.

وكما اعتد عبد القاهر الجرجاني بالشكل الأدبي، ورأى الحقيقة الجمالية فيه لا في المضمون، ذهب هذا المذهب أيضاً بندتو كروتشيه (– ١٩٥٢)

(١) ٤٩ دلائل الإعجاز.
(٢) ٢٤ قواعد النقد الأدبي – ترجمة د. محمد عوض – القاهرة ١٩٣٦.
(٣) ٣٥ المرجع نفسه.

متأثراً فى ذلك بالآراء النظرية لعبد القاهر ، ويحدد كروتشيه المضمون بأنه الأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلا جماليا ، أما الشكل فهو صقلها وإبرازها فى التعبير عن طريق النشاط الفكرى ، ولا قيمة عنده فى الشكل للكلمات المفردة من حيث هى مادة التعبير ، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين عن الفن والصورة ، وهذا كله هو رأى عبد القاهر ، فالشكل عند كروتشيه هو النظم عند عبد القاهر ، والمضمون عنده صورة قريبة من المعنى عند عبد القاهر ، وإذا ذهب الكثير من النقاد إلى الفصل بين الشكل والمضمون ، أو اللفظ والمعنى ، كما فعل ابن قتيبة وقدامة ، حيث ذهبا إلى أنهما عنصران مستقلان تمام الاستقلال ، فإن ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » يذهب إلى أن اللفظ جسم روحه المعنى ، وكذلك ذهب ابن رشيق القيروانى فى كتابه « العمدة » . فلا يمكن عند هذين الناقدين الفصل بين اللفظ والمعنى ، إذ هما متلازمان ، وهذا هو ما اهتدى إليه عبد القاهر والنقاد الجماليون فيما بعد ، إذ رأوا أن الصورة والمضمون فى النص الأدبى هما وجها النموذج الأدبى ، والفصل بينهما غير ممكن ، فليس هناك مضمون وصورة ، بل هما شىء واحد ، فمادة النموذج وصورته لا تفترقان فهما كل واحد ، وبينما نجد الكلاسيكيين يرفعون من شأن اللفظ ، والرومانسيين يهتمون بالمعنى ويقدمونه على اللفظ ، ودعاة « الفن للفن » يحررون النص الأدبى من كل قيود المضمون والمحتوى ، ما دام النص يغذى فينا حاسة الجمال ، ودعاة الرمزية يهتمون اهتماماً خاصاً بما توحيه الصور والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق موسيقاها وأصواتها ، ودعاة الواقعية يهتمون بالمضمون فى النص ومحتواه الواقعى أو الاجتماعى .. فإن الفلسفة الجمالية ، وهى مطابقة تمام المطابقة لفلسفة عبد القاهر النقدية ، إن لم نقل إنها متأثرة بها ، تؤكد وحدة العمل الأدبى ، وتربط بين مضامينه

وأشكاله برباط وثيق من الوحـــدة والالتزام(١) ، وهكذا تجد فلسفة عبد القاهر اللغوية ذات قيم جمالية مبتكرة ، فاللفظ يستمد عنده بلاغته من أنه ظل للمعنى . والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة الغفل التى يصوغها اللفظ ، ومن أجل ذلك رفض عبد القاهر الاعتداد بالمعنى وحده ، مردداً ما ردده الجاحظ من قبل(٢) من أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع ، وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير ، وهذا هو ماقرره مالارميه الفرنسى فيما بعد من أن الشعر لا يصنع من الأفكار ولكنه يصنع من الألفاظ(٣) ، ومن ثم فإن الشاعر لا يكفيه أن يحصل على قدر من الأفكار حتى يستطيع أن يقول الشعر . فنحن لانحكم على الشاعر إلا بعد أن نقرأ الألفاظ التى كتبها(٤) .. كما رفض عبد القاهر الاعتداد باللفظ وحده ، فنفى أن يكون الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ ، والألفاظ فى ارتباطها الفنى إنما تكون فى القصيدة مجموعة الصور التى تنقل إلينا الفكرة أو التجربة أو المشاعر النفسية .

— ٥ —

ويشرح لنا عبد القاهر غرضه من كتابه « أسرار البلاغة » فيقول(٥) : اعلم أن غرضى أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف ، ومن

(١) راجع ١٠٢ فى النقد الأدبى للدكتور شوقى ضيف .
(٢) ٣ : ٤٠ الحيوان للجاحظ ، ص ١٦٧ دلائل الإعجاز .
(٣) ١٠٩ الأدب وفنونه .
(٤) ص ١١٠ المرجع نفسه .
(٥) ١ : ١١٨ أسرار البلاغة — طبع مكتبة القاهرة ١٩٧٢ .

أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصها ومشاعها ، ويقول : من الكلام ما هو شريف فى جوهره كالذهب الأبريز الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصناعات ، وجل المعول فى شرفه على ذاته . وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها ـ مادامت الصورة محفوظة عليها ـ قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو(١) ..

ويقول : أول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه : القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة(٢) وحديث عبد القاهر عن هذه الأساليب إنما هو لتقرير أن بلاغة التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها راجعة إلى النظم أو هى بسبب منه : ونظريته فى النظم هى موضوع كتابه « دلائل الإعجاز » . ورأيه فى المحاسن التى يرجع السبب فيها إلى النظم فى الاستعارة والتمثيل والتشبيه هو موضوع كتابه « أسرار البلاغة » ففكرة عبد القاهر فى كتابيه واحدة ، وهى أن البلاغة ترجع إلى النظم والصياغة ، أى أنها فى الشكل لا فى المضمون ، سواء فيما يتصل بخصائص الأسلوب من ذكر وحذف وتقـــديم وتأخير الخ ، أو بأهم عناصره من التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والمجاز ، وقد بحث بلاغة النظم فى « الدلائل » . وبلاغة التشبيه وأخواته فى « أسرار البلاغة » حيث يقرر أن بلاغة هذه الألوان راجعة فى الحقيقة إلى النظم ، فإذا كان عبد القاهر يؤكد فى كتابه « الدلائل » أن البلاغة إنما هى فى النظم ، الذى هو تعلق معانى الكلم بعضها ببعض ، فإنه يدور حول ذلك فى « أسرار البلاغة » حيث يشرح ويطبق

---

(١) المرجع نفسه ١/١١٨ .
(٢) المرجع نفسه ١/١٢٠ .

هذه النظرية على التشبيه وأشباهه ، لأن ذلك وثيق الصلة بالإبداع الأدبي ، ففي « الدلائل » يشرح نظريته في النظم ويقيم تطبيقات واسعة عليها ، وفي « الأسرار » يدرس أبواب التشبيه ونظائره دراسة تؤكد اعتماد هذه الأبواب على فكرة النظم .

ومن أجل ذلك فقد درس عبد القاهر هذه الأبواب دراسة نقدية وبيانية مفصلة ، درس التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وسائر ضروب المجاز ، وتحدث عن الأخذ والسرقة ، وقسم المعاني إلى عقلية وتخييلية .

ويقرر عبد القاهر أن خاصية الأسلوب، وملكية كل أديب لأسلوبه هو الذي يميز بين موهبة وموهبة ، وشاعر وشاعر . وهذا الأسلوب ليس سرداً لألفاظ ، بل ترتيباً لمعانيها وفق ترتيبها في النفس ، فهو المقصود من كلام عبد القاهر على المعنى ، وأنه الذي يستحق أن تكون فيه المزية والفضيلة .

إن نظرية النظم التي شرحها عبد القاهر في « دلائل الإعجاز » ، قد بنى عليها تطبيقات واسعة في « أسرار البلاغة » لفنون التشبيه والتمثيل والمجاز والكناية ، فدلائل الإعجاز يتضمن نظرية النظم وتطبيقات واسعة عليها تدور حول الأسلوب ، « وأسرار البلاغة » يتضمن تطبيقات عليها تدور حول الاستعارة والتشبيه وأخواتهما من التمثيل والمجاز والكناية والأخذ والسرقة وضروب المعاني التحقيقية والتخييلية ، لأنها صور المعاني ، والقطب الذي تدور حوله البلاغة .

بلاغة الشكل إذا قد درس عبد القاهر وجوهها البلاغية في الدلائل .. أما ما يتصل بالشكل وهو الكلمة من حيث دلالتها على معانيها اللزومية في المجاز والاستعارة والكناية وصلة ذلك بالتشبيه والتمثيل ، ومن حيث

دلالتها كذلك على المعانى التحقيقية والتخييلية والعامية والخاصية مما هو وثيق الصلة بالإبداع الأدبى من ناحية ، وبالنظم والصياغة من ناحية أخرى ، فقد درسه عبد القاهر فى « أسرار البلاغة » درسة مفصلة ، حيث جعل ذلك كله من المحاسن التى يكون النظم السبب فيها .

وفى « الأسرار » تظهر بوضوح ملكة عبد القاهر البلاغية والنقدية ، ويبدو الرجل ناقداً من أعظم النقاد ، الذين يدركون بأذواقهم أسرار الكلام ، ودقائق البلاغة ، ويفرقون بمشاعرهم الفنية بين أسلوب وأسلوب ، ولفظة ولفظة وحرف وحرف ، ومع أنه قد أفاد من جهود النقاد قبله ، فإنه كان ذروة لم يستطع أحد الوصول إليها ، وكان قوة تجديدية كبيرة فى الأدب ونقده ، وفهم موازينه ، وإدراك أسرار بلاغاته .

فى الأسرار أروع الفصول التحليلية فى النقد ، وفى خصائص البيان ومشكلاته فى عصره ، وفيه ربط النقد بالتأثير النفسى للنص الأدبى ، ومحاولة الكشف عن مدى هذا التأثير ، وأثره فى بلاغة النص . مما يجعل للكتاب أهمية خاصة .

— ٦ —

فى « أسرار البلاغة » إذا كثير من الأحكام النقدية على النصوص وعلى الشعراء ..

فهو يشير إلى أقوال بعض النقاد فى طرح بلاغة أبيات كثيرة عزة المشهورة :

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح

وشـــدت على دهم المطايا رحالنا
ولم ينظر الغـادى الذى هـو رائح

أخـــذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعنـــاق المطى الأباطح

ويرى عبد القاهر كلامهم لغواً ، ويعلى من شأن الصورة الشعرية التى رسمها كثير فى أبياته ، ويعتد ببلاغتها اعتداداً كبيراً (١) .

ويقول عبد القاهر فى البحترى : لاتكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ، ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى أو يبلغ فى هذه مبلغه ، فإنه ليروض لك المهر الأرن رياضة الماهر ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة إلى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادى منـــك ملآن وسرى فيـك إعلان(٢)

ويقول عن ابن المعتز : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيهة المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول . الخ(٣) .

ويشير إلى بلاغة التشبيه فى قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وحمد جرير له على ما وصل إليه الشاعر من هذا التشبيه البليغ(٤) .

---

(١) ١١٤ — ١/١١٦ أسرار البلاغة ط القاهرة ١٩٧٢ .
(٢) ٢٧٢ و ١/٢٧٣ المرجع .
(٣) راجع ١٩٨ — ١/٢٠١ المرجع .
(٤) راجع ١/٢٨٠ المرجع نفسه .

ويعرض عبد القاهر لكثير من النصوص الشعرية ويحللها ويوازن بينها ويكشف عن سر بلاغتها ، ويبين منزلتها فى الإبداع الأدبى ، ويهتدى بذوقه إلى أدق الفروق البيانية بين كلام وكلام وصورة وصورة .

* * *

وبعد فكتاب أسرار البلاغة من أجل كتب النقد التى ظهرت فى تراثنا العربى ، وأحكامه واستنباطاته وكشفه عن خصائص أساليب التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية والمجاز ، أخذ علماء البلاغة القواعد التى تحدث عنها عبد القاهر فى « أسرار البلاغة » ووضعوها مقاييس لبلاغة هذه الأساليب ، وبنوا عليها أحكاماً صارت جزءاً من البلاغة العربية .

والملحظ أن عبد القاهر مزج فى كتابه النقد بأصول البلاغة ، فن هذه الأصول يعرف أن عبد القاهر من أئمة النقاد المنهجيين ، ومن أحكامه فى النقد تتبين مدى روعتـــه فى التطبيق على مقاييسه النقدية والبيانية التى كشف عنها .

ونحن لا نملك هنا إلا غاية الإيجاز ، حتى لا نقع فى فرط التطويل الذى يذهب ببلاغة القصد . ويبعد بنا عن بلوغ الغاية .

فصـــل

« هذا فن آخر من القول يجمع التشبيه والتمثيل(١) جميعاً »

---

(١) للتمثيل أربعة تفسيرات :
أولها : أنه يطلق على التشبيه مطلقاً ، وهو مختار الكشاف كما في عروس الأفراح ٣ : ٤٤٢ شروح التلخيص .
وثانيها : أنه ما كان وجهه مركباً غير متحقق حساً ، بأن كان عقلياً أو اعتبارياً وهميا ، وهو مذهب عبد القاهر .
وثالثها : أنه ما كان وجهه مركباً غير متحقق حساً ولا عقلا ، بأن يكون اعتباريا وهميا ، وهو مذهب السكاكي .
ورابعاً : أنه ما كان وجهه مركباً متحققاً أو غير متحقق . وهو مذهب الجمهور .
وفي اشتراط التركيب عند السكاكي وكذا عبدالقاهر نظر ، فإن الذي في كلامهما انتزاع الوجه من متعدد ، وقد فسره السعد بأن المراد أنه مركب من متعدد هو أجزاؤه ، وقد رد عليه بأن المراد من التعدد التعدد في طرفي التشبيه (٤ : ١٠٤ فيض الفتاح) ، وهذا يمكن أن يقال في رأي السكاكي فقط..وقد بنوا على ذلك أن أعم المذاهب الأربعة هو مذهب صاحب الكشاف ـ الزمخشري ـ ويليه في العموم مذهب الجمهور .
وقد ذكر بعض البلاغيين أن التمثيل عند عبدالقاهر ما كان وجهه عقلياً غير حقيق مفرداً أو مركباً ، وأن التمثيل عند السكاكي ما كان وجهه مركباً عقليا غير حقيق ، وأن التمثيل عند الجمهور ما كان وجهه مركباً حسياً أو عقليا حقيقياً أو غير حقيق (٢٤ . ٢٥ دراسات تفصيلية) وهذا أقرب إلى حقيقة هذه المذاهب .

(تقسيمها إلى غريب وغير غريب) :

اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل ، فنحن وإن كنا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب إذا سمعنا بهما ، فإن لوضع القوانين(١) وبيان التقسيم في كل شيء ، وتهيئة العبارة في الفروق ، فائدة لاينكرها المميز . ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس .

والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه(٢) المقصود من الشيء(٣) مما لا ينزع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم(٤) عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يشبه به ، بل بعد تثبت وتذكر وفكر النفس في الصور التي تعرفها وتحريك للوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه .

بيان ذلك أنك كما ترى الشمس ويجرى في خاطرك استدارتها ونورها : تقع في قلبك المرآة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها .. وكذلك إذا نظرت إلى الوشي منشوراً وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفتراً عن أزهاره ، متبسماً عن أنواره .. وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق(٥) وإن كان هذا أقل ظهوراً من الأول ، وعلى هذا القياس .

(١) القواعد .
(٢) أى وجه الشبه .
(٣) أى من حيث إلحاقه بالمشبه به .
(٤) أى الخاطر .
(٥) انعق البرق : تسرب في السحاب .

ولكنك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل كقوله(١) :

١٦٢ — « والشمس كالمرآة فى كف الأشل »

هذا الإسراع ولا قريباً منه ، ولا إلى تشبيه البرق بإصبع السارق كقول كشاجم(٢) :

١٦٣ — أرقت أم نمت لضوء بارق
مؤتلق مثل فؤاد العاشق
كأنه إصبع كف السارق

وكقوله ابن(٣) بابك :

١٦٤ — وتضنض فى حضنى سمائك بارق
له جذوة من زبرج اللاذ لامعة
تعوج فى أعلى السحاب كأنها بنان يد من كلة اللاذ ضارعة

ولا إلى تشبيه البرق فى انبساطه وانقباضه ، والتماعه وائتلاقه ، بانفتاح المصحف وانطباقه ، فيما مضى من قول ابن المعتز :

١٥٥ ، ١٦٥ — وكأن البرق مصحف قار فانطباقاً ، مرة وانفتاحا

(١) أى ابن المعتز أو أبى النجم أو الشماخ — وتمامه : « لما رأيتها بدت فوق الجبل » — وينسب لجبار بن جزء ابن أخى الشماخ .

(٢) أبو الفتح محمود بن الحسين من شعراء القرن الرابع توفى عام ٣٥٠ .

(٣) هو أبو القاسم عبد الصمد المتوفى سنة ٤١٠ هـ . تضنض : تحرك . الحضنان : الجانبان . سمائك ويروى : سمائك : مكان بالعراق . بارق : فاعل . الزبرج : الزينة . ضارعة . ذليلة ، أو طالبة ، وضرع من الشىء : دنا منه فى روغان .

ولا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك فى قوله(١) :

١٦٦ـ يلفظ بأخذ الحروف المحلى كأن سطوره أغصان شوك

ولا إلى تشبيه الشقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد كقول الصنوبرى(٢) :

١٦٧ ـ وكأن محمر الشقيـ ـق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

ولا إلى تشبيه النجوم طالعات فى السماء مفترقات مؤتلفات فى أديمها وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها بدر منثور على بساط أزرق ، كقول أبى طالب(٤) الرقى :

١٦٨ـ وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

ولا ما جرى فى هذا السبيل ، وكان من هذا القبيل ، بل تعلم أن الذى سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات لم يسبق إلى مدى قريب ، بل أحرز غاية لا ينالها غير الجواد ، وقرطاس فى هدف لايصاب إلا بعد الاحتفال والاجتهاد .

---

(١) يصف كتابا جاء مشكولا ، فسطوره تشبه أغصان الشوك فى دقتها واستقامتها ، وشكلها فوقه وتحته يشبه الشوك فوق الغصن وتحته ـ والبيت لابن المعتز وراجع البيت فى ديوانه ، وفى ١٢٦ أدب الكتاب للصولى ، وفى الريحانة ، للشهاب الخفاجى .

(٢) من شعراء اليتيمة وهو أبو بكر محمد الحلبى المتوفى سنة ٣٣٤هـ .

(٣) شقائق النعمان اسم جنس واحدته شقيقة . والنعمان : الدم ، نسبت إليه لحمرتها . تصوب وتصعد بمعنى مال إلى أسفل أو إلى أعلى .

(٤) من شعراء اليتيمة . أجرام النجوم أى فى السماء .

واعلم(١) أنك إن أردت أن تبحث بحثاً ثانيا، حتى تعلم: لم وجب أن يكون بعض الشبه على الذكر أبداً، وبعضه كالغائب عنه وبعضه كالبعيد عن الحضرة لاينال إلابعد قطع مسافة إليه، وفضل تعطف بالفكر عليه؟

فإن ههنا ضربين من العبرة، يجب أن تضبطهما أولا ثم ترجع في أمر التشبيه، فإنك حينئذ تعلم السبب في سرعة بعضه إلى الفكر وإباء بعض أن يكون له ذلك الإسراع:

فإحدى العبرتين: أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل، وأنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل عند إعادة النظر، ولذلك قالوا: النظرة الأولى حمقاء. وقالوا: لم ينعم النظر ولم يستقص التأمل. وهكذا الحكم في السمع وغيره من الحواس، فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول. وتدرك من تفصيل طعم المذوق بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه في الذوقة الأولى، وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع وهكذا، فأما الجملة فتستوى فيها الأقدام. ثم تعلم أنك في ادراك توصيل ما تراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقى الشيء من جملة، وكمن يميز الشيء مما قد اختلط به، فإنك حين لا يهمك التفصيل كمن يأخذ الشيء جزافاً وجرفاً(٢).

وإذا كانت هذه العبرة ثابتة في المشاهدة، وما يجرى مجراها مما تناله

---

(١) شروع في تفصيل أسباب الغرابة.

(٢) الجزاف: فارسى تعريب كزاف، وهو بيع الشيء لا يعلم كيله ولا وزنه. والجرف: الذهاب بالشيء كله.

الحاسة ، فالأمر فى القلب كذلك . تجد الجمل أبداً هى التى تسبق إلى الأوهام، وتقع فى الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال للروية واستعانة بالتذكر . ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل فى التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد .

وإذ قد عرفت هذه العبرة فالاشتراك فى الصفة(١) إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق بحيث لا يشوبه شىء من التفصيل ، نحو أن كلا الشيئين أسود أو أحمر فهو يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه ، فإن دخل فى التفصيل شيئاً نحو أن هذا السواد صاف براق والحمرة رقيقة ناصعة ، احتجت بقدر ذلك إلى إدارة الفكر . وذلك مثل تشبيه حمرة الخد ، بحمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ، ويتعرف بفضل تأمل ، ازداد الأمر قوة فى اقتضاء الفكر ، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك فى قوله(٢) :

١٦٩ — وسقط كعين الديك عاورت صحبتى
(أباها وهيأنا لموقعها وكرا)

وذلك أن ما فى عينه من تفصيل وخصوص يزيد على كون الحمرة رقيقة

---

(١) أى وجه الشبه .

(٢) البيت لذى الرمة أو لرؤبة وهو فى وصف السقط الذى يكون من الزند . وكان من عادتهم حينما يريدون استخراج النار أن يأتوا بعودين أحدهما أسفل ويسمونه الأنثى ويفرضون فيه فرضاً ويحرون فيه عوداً آخر يسمونه الأب ، فإذا طال العمل ولم تخرج النار تناوب العود الذكر جماعة ، الواحد بعد الآخر يحركه حتى تخرج النار .

ناصعة والسواد صافياً براقاً ، وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التى لا يستوى فيها البليد والذكى ، والمهمل نفسه والمستيقظ المستعد للفكر والتصور ، فقوله(١) :

١٧٠ — كأن على أنيابها كل سحرة
صياح البوازى من صريف اللوائك

أرفع طبقة من قوله(٢) :

١٧١ — كأن صليل المروحين تشذه
صليل زيوف ينتقدن بعبقرا(٣)

كان التفصيل والخصوص فى صوت البازى أبين وأظهر منه فى صليل الزيوف ، وكما أن قوله يصف الفرس :

١٧٢ — وللفؤاد وجيب تحت أبهره
لدم الغلام وراء الغيب بالحجر(٤)

---

(١) البيت لذى الرمة ، وقد سبق (راجع الشاهد رقم ٧٥) .

(٢) هو لامرىء القيس من قصيدة مطلعها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

(٣) المرو : الحجارة البيض الرقاق . تشذه : تنحيه ، عبقر : بلد باليمن . صليل زيوف : أى أنه شديد الصوت صافيه .

(٤) البيت لتميم بن أبى بن مقبل من بنى العجلان من الشعراء المخضرمين . الأبهر : عرق مستبطن فى الصلب والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة . الوجيب : تحرك القلب تحت أبهره . اللدم : الضرب بشىء ثقيل . الغيب : ما كان بينك وبينه حجاب .

لا يستوى بتشبيه وقع الحوافر بهزمة الرعد ، وتشبيه الصوت الذى يكون لغليان القدر بنحو ذلك كقوله(١) :

١٧٣ — لها(٢) لغط جنح الظلام كأنه
مجارف غيث رائح متهـــزم

لأن هناك من التفصيل الحسن ما تراه . وليس فى كون الصوت من جنس اللغط تفصيل يعتد به وإنما هو كالزيادة والشدة فى الوصف ، ومثال ذلك مثال أن يكون جسم أعظم من جسم فى أنه لا يتجاوز مرتبة الجمل كبير تجاوز فإذا رأى الرجل شخصاً قد زاد على المعتاد فى العظم والضخامة لم يحتج فى تشبيهه بالفيل أو الجبل أو نحو ذلك إلى شىء من الفكر بل يحضره ذلك حضور ما يعرف بالبديهة .

والمقابلات التى تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة :

ومن اللطيف فى ذلك أن تنظر إلى قوله(٣) :

١٧٤ — يتابع لا يبتغى غيره بأبيض كالقبس الملتهب

ثم تقابل به قوله(٤) :

---

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى شاعر مخضرم أسلم وغزا وأصيب بإحدى عينيه وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان ، اللغط والجلبة : اختلاط الصوت ، ووجه الشبه حركة الصوت فى كل . المجارف شدة المطر : متهزم : ذو صوت شديد .

(٢) أى للقدر ، والبيت فى وصف قدر تغلى (راجع ٢ : ٣١٥ الحماسة — تعليق الرافعى) .

(٣) أى عنترة — راجع ١ : ١٦٥ الحماسة ، ٢٠٥ نظام الغريب .

(٤) أى امرىء القيس — وهو فى المفضليات (طبعة التجارية) لعمير ابن جعيل — والرواية المشهورة : حملت ردينيا ، نسبة إلى ردينة وهى امرأة كانت تقوم الرماح ، وفى البيت إيغال بتحقيق التشبيه .

١٧٥ — جمعت(١) ردينيا كأن سنانه

سنا لهب لم يتصل بدخان

فإنك ترى بينهما من التفاوت فى الفضل ما تراه مع أن المشبه به فى الموضعين شىء واحد وهو شعلة النار . وما ذاك إلا من جهة أن الثانى قصد إلى تفصيل لطيف ومر الأول على حكم الجمل(٢) . ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع فى الوهم فى أول وهلة بل لابد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتتروى وتنظر فى حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ فى نفسك أن فى الأصل شيئاً يقدح فى حقيقة الشبه وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة وأنه ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلك ، وأنه إذا كان كذلك كان التحقيق وما يؤدى الشىء كما هو أن تستثنى الدخان وتنفى اتصاله باللهب وتقصر التشبيه على مجرد السنا وتصور السنان فيه مقطوعا عن الدخان ، ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ما ذكرت لك قدرت محالا لا يتصور ، كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بعنقود ملاحية حين نور بمنزلة تشبيهها بالنور على الإطلاق أو تفتح نور فقط كما قال(٣) :

١٧٦ — كأن الثريا فى أواخر ليلها

تفتح نور (أو لجام مفضض)

حتى ترى حاجتهما إلى التأمل على مقدار واحد وحتى لا يحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس وبحثها عن الصور التى تعرفها إلا إلى مثل ما يحوج

---

(١) وجه الشبه فى البيت هو البريق واللمعان وعدم الاتصال بدخان .

(٢) قال « على حكم الجمل » : لأن فيه تفصيلا . ولكن لما زاد الثانى عليه بقوله « لم يتصل بدخان » كان هو فى حكم الجمل .

(٣) أى ابن المعتز .

إليه الآخر ، أسرفت في المجازفة ، ونفضت يداً بالصواب والتحقيق .

والعبرة الثانية : أن مما يقتضي كون الشيء على الذكر وثبوت صورته للنفس أن يكثر دورانه على العيون ويدوم تردده في مواقع الأبصار ، وأن تدركه الحواس في كل وقت أو في أغلب الأوقات ، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته والنفس قلة رؤيته ، وأنه مما يحس بالفينة بعد الفينة(١) ، وفي الفرط بعد الفرط(٢) ، وعلى طريق الندرة . وذلك أن العيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس وتجدد عهدها بها وتحرسها من أن تدثر وتمنعها أن تزول ، ولذلك قالوا : من غاب عن العين فقد غاب عن القلب ، وعلى هذا المعنى كانت المدارسة والمناظرة في العلوم وكرروها على الأسماع سبب سلامتها من النسيان ، والمانع لها من التفلت والذهاب .

وإذا كان هذا أمراً لا يشك فيه بان منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع . ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب ، فهو أدنى وأنزل ، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل ، وبوصف الغريب أجدر(٣) .

---

(١) الفينة والفينة ـ بمعنى الحين .

(٢) بمعنى الحين أيضاً .

(٣) وقد تتلاقى العبرتان معاً فيكون من أخص أنواع التشبيه كأن يكون الاشتراك في الصفة من طريق التفصيل ويكون الوصف نادراً مما لا تقع صورته مثل : وكأن محمر الشقيق .

واعلم أن قولنا « التفصيل » عبارة جامعة ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً فأنت تنظر فيها واحداً واحداً وتفصل بالتأمل بعضها من بعض ، وأن بك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد ، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة ، ثم إنه يقع على أوجه : أحدها : وهو الأول والأحق بهذه العبارة(١) أن تفصل بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً ، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده ، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه ، وذلك قوله(٢) :

١٧٧ — لها حدق لم تتصل بجفون

ويقع في هذا الوجه من التفصيل لطائف : فمنها قول ابن المعتز(٣) :

١٧٨ — يطارح النظرة في كل أفق ذي منسر أقنى إذا شك خرق
ومقـــلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق

وقوله(٤) :

١٧٩ — تكتب فيه أيدي المزاج لنا
ميمات سطـــر بغـــير تعريق

---

(١) وهو التفصيل .

(٢) هو ابن المعتز في وصف الخمر وصدر البيت : فجاءت بها في كأسها ذهبية ــ وفي رواية : في كفها ــ والحدقة : سواد العين .

(٣) في وصف خروج البازي سحراً للصيد ، وأقنى : أي ذو ارتفاع من أعلاه وتقوس من وسطه .

(٤) هو ابن المعتز أيضاً في وصف الخمر ، والتعريق هنا مد الميم ، فالتعريق الالتواء في الحروف ، وقيل : عرق الحرف إذا كتبه كله كاملا ، والبيت من المنسرح .

والثانى : أن تفصل بأن تنظر من الشبه فى أمور لتعتبرها كلها وتطلبها فيما تشبه به وذلك كاعتبارك فى تشبيه الثريا بالعنقود الأنجم نفسها والشكل منها واللون وكونها مجتمعة على مقدار فى القرب والبعد، فقد نظرت فى الأمور واحداً واحداً وجعلتها بتأملك فصلا فصلا ثم جمعتها فى تشبيهك وطلبت للهيئة الحاصلة من عدة أشخاص الأنجم ، والأصناف التى ذكرت لك من الشكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئة أخرى شبيهة بها فأصبتها فى العنقود المنور من الملاحية ولم يقع لك التشبيه بينهما إلا بأن فصلت أيضاً أجزاء العنقود بالنظر وعلمت أنها حب بيض وأن فيها شكل استدارة النجم ، ثم الشكل إلى الصغر ما هو(١) ، كما أن شكل أنجم الثريا كذلك ، وأن هذه الحب لا مجتمعة اجتماع التضام والتلاصق ولا هى شديدة الافتراق، بل لها مقادير فى التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما تجده فى رأى العين بين تلك الأنجم ، يدلك(٢) على أن التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف حتى إما لو فرضنا فى تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعداً أكثر مما هى عليه الآن أو قدر فى العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله .

وكذلك الحكم فى تشبيه الثريا باللجام المفضض(٣) لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال وعلى الشكل الذى يوجبه موضوع اللجام، ولو فرضت أن تركب مثلا على سن واحد طولا فى سير واحد مثلا ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه .

وكذلك قوله :

---

(١) ما هو مبتدأ وخبر على أن « ما » استفهامية والجملة بدل من « الصغر » .

(٢) الصواب : فذلك يدلك .

(٣) راجع الشاهد ١٧٦ .

١٧٥ — تعرض أثناء الوشاح المفصل(١)

قد اعتبر فيه هيئة التفصيل فى الوشاح والشكل الذى يكون عليه الخرز المنظوم فى الوشاح فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل فى التشبيه .

والوجه الثالث : أن تفصل بأن تنظر إلى خاصة فى بعض الجنس كالتى تجدها فى صوت البازى(٢) وعين الديك(٣) فأنت تأبى أن تمر على جملة أن هذا صوت وذاك حمرة ولكن تفصل فتقول : فيهما ما ليس فى كل صوت وكل حمرة .

واعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الاغلب الأعرف ، وإلا فدقائقه لا تكاد تضبط .

فما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان من التشبيه مركبا بين شيئين أو أكثر وهو ينقسم قسمين :

أحدهما : أن يكون شيئاً يقدر المشبه وبصفته أولا يكون. ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ، لأنك فى هذا النحو تحصل الشبه بين شيئين

---

(١) لامرىء القيس ، وصدره : « إذا ما الثريا فى السماء تعرضت » أثناء جمع ثنى وهو الجانب ، والوشاح بالضم والكسر كرسان بضم الكاف وكسرها أى صفان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، وشبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها

(٢) أى فى مثل البيت :

كأن على أنيابها كل سحرة صياح البوازى من صريف اللوائك

(٣) أى فى البيت : « وسقط كعين الديك عاورت صحبتى » .

يقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم فقد حصلته في النرجس من شكل المداهن والعقيق بشرط أن تكون المداهن من الدر وأن يكون العقيق في الحشو منها، وكذلك اشترطت في هيئة الأعلام أن تكون من الياقوت وأن تكون منشورة على رماح من زبرجد. فبك حاجة في ذلك إلى مجموع أمور لو اختلت بواحد منها لم يحصل الشبه، وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص في الاجتماع والاتصال بطل الغرض، فكما بك حاجة إلى إلى أن يكون الشكل شكل المدهن وأن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق، فبك أيضاً فقر إلى أن يكون العقيق في حشو المداهن — وعلى هذا القياس.

وثانيهما: أن تعتبر في التشبيه(١) هيئة تحصل من اقتران شيئين وذلك الاقتران مما يوجد ويكون، مثاله(٢) قوله(٣):

١٧٦ — غدا والصبح تحت الليل باد كطرف أشهب ملقى الجلال

قصد الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت حالهما معاً، وأراد أن يأتي بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر، ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد ولا الليل على الانفراد، كما لم يقصد الأول أن يشبه الدائرة البيضاء من النرجس بمدهن الدرثم يستأنف تشبيهاً

(١) أي المشبه به.

(٢) راجع الشاهد ١٦٢.

(٣) أي ابن المعتز وقد أخذه من ذي الرمة في قوله:

وقد لاح للساري الذي كمل السرى على أخريات الليل فتق مشهر
كمثل الحصان الأنبط البطن قائماً تمايل عنه الجل والليل أشقر

وفاعل غدا ضمير، الطرف: الفرس الكريم. الجلال: جمع جل وهو السرج. أشهب: أبيض في سواد.

للثانية بالعقيق ، بل أراد أن يشبه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين ، من غير أن يكون بين(١) في البين ، ثم إن هذا الاقتران الذى وضع عليه التشبيه مما يوجد ويعهد إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجل من المعوز فيقال إنه مقصور على التقدير والوهم .

فأما الأول فلا يتعدى التوهم وتقدير أن يصنع ويعمل فليس في العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع متطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات ، وكذلك لا يكون ههنا مداهن تصنع من الدر ثم يوضع في أجوافها عقيق . وفي تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد الصورة من الوجود وهو شرطه أن تكون أعلاما منشورة والنشر في الياقوت وهو حجر لا يتصور موجوداً .

وبقى أن تعلم أن الوجه في إلقاء الجل أن تريد أنه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده لا أنه رمى به جملة حتى انفصل منه لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر في الليل ، ولم يشاكل قوله في أول البيت « والصبح تحت الليل بارد » .

وأما قوله (٢) :

١٨٠ — إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع في كثيب يضطرب
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فالأشبه فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض الباق دون أن يدخل لون الجل في التشبيه حتى(٣) كأنه يريد أن يريك بياض البرق في

---

(١) البين الأول الفرقة والثاني الوسط .

(٢) هو ابن المعتز . الشجاع : الأفعى من الحيات ، وهو الأسود ، ووجه الشبه هنا هو الاضطراب في البيت الأول ، والظهور بغتة في الثاني . والأبلق . الفرس يميل لونه إلى البياض .

(٣) تفريع على قوله « يدخل » فهى في حكم المنفى مثل « يدخل » .

سواد الغمام ، بل ينبغي أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه .

وقد قال ابن بابك في هذا المعنى :

١٨١ ـ للبرق فيها(١) لهب طائش كما يعـــــرى الفرس الأبلق

إلا أن لقول ابن المعتز « حين وثب » من الفائدة ما لا يخفى(٢) . وقد عنى المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ألا تراه قال(٣) :

١٨٢ ـ وترى البرق عارضاً مستطيلا مرح البلق جلن في الأجلال

لجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى ما به يتم الشبه وهو معظم الغرض من تشبيهه وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .

ثم اعلم أن هذا القسم الثاني الذي يدخل في الوجود يتفاوت حاله :

فمنه ما يتسع وجوده .

ومنه ما يوجد في النادر ، ويبين ذلك بالمقابلة ، فأنت إذا قابلت قوله(٤) :

١٨٣ ـ وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

(١) والضمير في قوله « فيها » يعود إلى السحابة — والبيت من السريع .

(٢) وهي إفادة ظهور البياض فجأة ، وبسرعة ، بخلاف قول ابن بابك فإن قوله « يعرى » يفيد التدرج .

(٣) أي كثير عزة وعرض ظهر ولم يدم ، مرح : مفعول مطلق الفعل محذوف في موضع نصب على الحال . جل الدابة جمعه جلال وأجلال . وجلن : تحركن . مستطيلا : وفي رواية : مستطيراً ، قول الشاعر :

برق أطار الليل لما استطار أطار جنح الليل لما استنار

(٤) هو أبو طالب الرقي .

بقول ذى الرمة :

١٨٤ — « كأنها فضة قد مسها ذهب »(١)

علمت فضل الثانى على الأول فى سعة الوجود وتقدم الأول على الثانى فى غرابته وقلته وكونه نادر الوجود ، فإن الناس يرون أبداً فى الصياغات فضة قد أجرى فيها ذهب وطليت به ولا يكاد يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق .

وإذ قد عرفت انقسام المركب من التشبيه إلى هذين القسمين فاعتبر موضعهما من العبرتين(٢) المذكورتين فإنك تراهما(٣) بحسب نسبتهما(٣) منهما »(٤). وتحققهما بهما قد أعطتاهما لطف الغرابة ، ونفضتا عليهما صبغ الحسن ، وكستاهما روع الإعجاب ، فتجد المقدار الذى لا يباشر الوجود نحو قوله :

١٨٥ — أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

وكقوله(٥) فى النيلوفر :

١٨٦ — كلنا باسط اليد نحو نيلوفر ندى
كدبابيس عسجد قضبها من زبرجد

---

(١) صدر البيت :

كحلاء فى برج صفراء فى نعج

والنعج : البياض الخالص . والبرج فى العين أن يكون البياض محيطاً بالسواد كله .

(٢) أى اللذين هما سبب الغرابة : التفصيل ، وبعد الشىء عن العين .

(٣) أى العبرتين . (٤) أى من المركبين .

(٥) هو الصنوبرى أو ابن المعتز ، والنيلوفر بفتح النون وضم اللام وفتحها =

قد اجتمع فيه العبرتان جميعاً . وتجد العبرة الثانية(١) قد أتت فيه على غاية القوة ، لأنه لا مزيد فى بعد الشىء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعاً أصلا ، حتى لا يتصور إلا فى الوهم .

وإذا تركت هذا القسم ونظرت الى القسم الثانى الذى يدخل فى الوجود نحو قوله :

١٧٨ — درر نثرن على بساط أزرق

وجدت العبرة الثانية لا تقوى فيه تلك القوة لأنه إذا كان مما يعلم أنه يوجد ويعهد بحال وإن كان لا يتسع بل يندر ويقل ، فقد دنا من الوقوع فى الفكر ، والتعرض للذكر ، دنواً لا يدنوه الأول الذى لا يطمع أن يدخل تحت الرؤية للزومه العدم ، وامتناعه أن يجوز عليه إلا التوهم .

ولا جرم لما كان الأمر كذلك كان للضرب الأول من الروعة والحسن ولصاحبه من الفضل فى قوة الذهن ، ما لم يكن ذلك فى الثانى . وقوى الحكم بحسب قوة العلة(٢) ، وكثر الوصف الذى هو الغرابة بحسب الجالب له .

وفى هذا التقرير ما تعلم به الطريق إلى التشبيه : من أين تفاوت فى كونه غريباً ، ولم تفاضل فى مجيئه عجيباً ، وبأى سبب وجدت عند شىء منه من الهزة ما لم تجده عند غيره ، علماً يخرجك عن نقيصة التقليد ، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة ، دون البيان والإفصاح بالعبارة .

= ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة يسمى عند العامة بالبشنين أو عروس النيل ، ورواية معاهد التنصيص : مثل نيلوفر ندى . الدبابيس جمع دبوس . لعسجد : الذهب أو الجوهر .

(١) وهى عبرة البعد عن العين .

(٢) أى بفضل الأول على الثانى والمراد بالعلة العلة الموجبة للغرابة .

واعلم أن العبرة الثانية التي هي مرور الشيء على العيون هو(١) معنى واحد لا يتكثر ولكنه يقوى ويضعف كما مضى(٢) وأما العبرة الأولى وهي التفصيل فإنها في حكم الشيء يتكثر وينضم فيه الشيء إلى الشيء . ألا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تكون قد نظرت في أحدهما إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات وفي الآخر إلى شيئين أو جهتين والمثال في ذلك قول الشاعر(٣) :

١٨٨ - كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(٤)

مع قول المتنبي :

١٨٩ - يزور الأعادي في سماء عجاجة أسنته في جانبيها الكواكب(٥)

أو قول كلثوم بن عمرو العتابي(٦) :

١٩٠ - تبني سنابكها من فوق أرؤسهم
سقفاً كواكبه البيض المباتير

التفصيل في الأبيات الثلاثة كأنه شيء واحد لأن كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل ، إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ، ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهي تعلو

(١) تذكير الضمير مراعاة للخبر المذكر .
(٢) التفاوت في العبرة الثانية بالكيفية وفي العبرة الأولى بالكمية .
(٣) بشار زعيم المحدثين (- ١٦٧هـ) .
(٤) مثار إسم مفعول من أثار بمعنى هيج . النقع : الغبار . تهاوى : تتساقط . وراجع البيت في « دلائل الإعجاز » ص ٢٧٥ و ٢٧٧ و ٤٦٧ تحقيق خفاجي .
(٥) العجاجة : الغبار . الأسنة : جمع سنان وهو نصل الرمح .
(٦) من شعراء المحدثين توفي عام ٢٠٨هـ .

وترسب، وتجيء وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمانها في أثناء العجاجة كما فعل الآخران . وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل ، وذلك أنا وإن قلنا إن هذه الزيادة – وهي إفادة هيئة السيوف في حركاتها – إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها ، فإن(١) حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلا أكثر من جهة واحدة . وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدي بها في الضرب ، إضطراباً شديداً وحركات بسرعة ، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض، وان السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاق وتتداخل ويقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضاً . ثم إن أشكال السيوف مستطيلة فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ، ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهي قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويها توافع وتداخل، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة .

ويشبه هذا الموضع في زيادة أحد التشبيهين على الآخر مع أن جنسهما جنس واحد وتركيبهما على حقيقة واحدة بأن في أحدهما فضل استقصاء ليس في الآخر قول ابن المعتز :

١٩١ – وطاف بها ساق أديب بمبزل ⁂ كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمّل آذريونة فوق أذنه ⁂ ككأس عقيق في قرارتها مسك(٢)

(١) الفاء للتعليل وخبر «أنا» محذوف تقديره : «لا تقول إنها لا تقتضى تفصيلا» .

(٢) المبزل : ما يصفى به الشراب . والعيار : بالتشديد الصعلوك : والآذريون جمع أذريونة ، وهو المعروف بعباد الشمس ، والبيتان في ديوان ابن المعتز ٢ : ٥٥ طبع بيروت .

مع قوله :

١٩٢ — مداكٌ من ذهب   فيها بقايا غاليةٍ(١)

الأول ينقص عن الثانى شيئاً ، وذلك أن السواد الذى فى باطن الأذريونة الموضوع بإزاء الغالية والمسك فيه أمران : أحدهما أنه ليس بشامل لها، والثانى أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم فى قعرها أعنى أنه لم يستدر هناك بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شيئاً من سمكها من كل الجهات وله فى منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية فى جوانب المدهن إذا كانت بقية بقيت عن الأصابع، وقوله فى «قرارتها مسك» يبين الأمر الأول ويؤمن من دخول النقص عليه كما كان يدخل لو قال «كمكأس عقيق فيها مسك» ، ولم يشترط أن يكون فى القرارة .

وأما الثانى من الأمرين فلا يدل عليه كما يدل قوله « بقايا غالية» وذلك أن من شأن المسك والشىء اليابس إذا حصل فى شىء مستدير فى القعر لا يرتفع فى الجوانب الارتفاع الذى تراه فى سواد الأذريونة ، وأما الغالية فهى رطبة ثم هى تؤخذ بالأصابع وإذا كان كذلك فلابد فى البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بقية شبيهة بذلك السواد ثم هى لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذى لا جرم له يملك المكان وذلك أصدق للتشبيه

ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه قول ابن المعتز :

١٧٣ — كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى
نطير غرابا ذا قوادم جون(٢)

---

(١) هو لابن المعتز.

(٢) قوادم الطير : مقاديم ريشه وهى عشرة فى كل جناح الواحدة قادمة . الجون : بالضم جمع جون بالفتح و هو الأبيض والأسود والمراد الأول ، شبه الليل الذى فيه تباشير الصبح بغراب له قوادم بيض والبيت فى ديوان ابن المعتز ٢ : ٦٦ طبع بيروت .

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاً لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع نور يتخيل منها فى العين كشكل قوادم إذا كانت بيضاء ، وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخراً فقال : « نطير غرابا » ولم يقل غراب يطير مثلا . وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً هادئاً فى مكان فأزعج وأخيف وأطير منه أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمد له وأبعد لأمده فإن تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته ربما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه العيون وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وألا يسرع فى طيرانه بل يمشى على هيئته ويتحرك حركة غير المستعجل فاعرفه .

ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء فى التشبيه وفضل العناية بتأكيد ما بدأ به قول ابن فارس(١) فى صفة البازى :

---

(١) هذا البيتان نسبهما ابن قتيبة (٣٣١ الشعر والشعراء) لأبى نواس . وقال فى الصناعتين : « وسمعت بعض العلماء يقول ومن المعانى الباردة قول أبى نواس فى وصف البازى « كعطفة الجيم بكف أعسرا » فهذا مليح جيد ، ثم قال بعده فمن يجهل أن الجيم إذا أضيفت إليها العين والفاء والراء تصير جعفرا وسواء قال هذا أو قال : لو زاد هاءها إلى دال وراء فاتصلت بالجيم صارت جحدرا ، وإنما أراد أبو نواس أن يشبه الجيم لا يغادر من شبهها =

١٩٤ — كأن عينيه إذا ما أثارا فصان قيضا من عقيق أحمرا
في هامة غلباء تهدى منسراً كعطفة الجيم بكف أعسرا

أراد أن يشبه المنقار بالجيم ، والجيم خطان الأول الذى مبدؤه وهو الأعلى والثانى وهو الذى يذهب إلى اليسار وإذا لم توصل فلها تعريق(١) . كما لايخفى والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط فلما كان كذلك قال «كعطفة الجيم» ولم يقل كالجيم ثم دقق بأن جعلها بكف أعسر لأن جيم الأعسر — قالوا — أشبه بالمنقار من جيم الأيمن . ثم إنه أراد أن يؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال :

١٩٥ — يقول من فيها بعقل فكرا
لو زادها عينـــا إلى فاء ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

فأراك عيانا أنه عمد فى التشبيه إلى الخط الأول من الجيم دون تعريقها ودون الخط الأسفل . أما أمر التعريق وإخراجه من التشبيه فواضح لأن

= شيئاً حتى لو زدت عليها هـذه الأحرف صارت جعفراً لشدة شبهها به وهو عندى صواب ، إلا أنه لو اكتفى بقوله : كعطفة الجيم بكف أعسرا ، ولم يزد مابعدها كان أجود وأرشق وأدخل فى مذاهب الفصحاء ، والبيتان فى أدب الكتاب للصولى ص ٦٤ . أثار : طلب الثأر أو أثار بالتاء أى حدد النظر . والمنسر : منقار الطير الجارح بوزن منبر ومجلس أيضاً .

(١) تعريق الجيم أن يعطف بالخط الأسفل إلى اليمين على هيئة قوس كما هو الشأن فى الجيم المفردة وعطفته وهى الخط الأعلى التى تشبه بالمنقار هكذا (ج) .

الوصل يسقط التعريق أصلا . وأما الخط الثانى فهو وإن كان لابد منه مع الوصل فإنه إذا قال « لو زادها عينا إلى فاء وراء » ثم قال « فاتصلت بالجيم » فقد بين أن هذا الخط الثانى خارج أيضاً من قصده فى التشبيه من حيث كانت زيادة هذه الحروف ووصلها هى السبب فى حدوثه . وينبغى أن يكون قوله « بالجيم » يعنى بالعطفة المذكورة من الجيم ولأجل هذه الدقة قال : « يقول من فيها بعقل فكرا » فهو لما أراد أن يقول ، ونبه على أن بالمشبه حاجة إلى فضل فكر وأن يكون فكره فكرة من يراجع عقله ويستعينه على تمام البيان(١) .

وجملة القول أنك متى زدت فى التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة فقط دخلت فى التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلف المنازل فى الفضل بحسب الصورة فى استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد .

---

(١) راجع الصناعتين ص١١٣ طبعة صبيح فى تعليقه على هذه الأبيات.

فصــــل

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات . والهيئة المقصودة في التشبيه على وجهين : أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما . والثاني أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها .. فمن الأول قوله(١) :

١٩٦ — « والشمس كالمرآة في كف الأشل »

أراد أن يريك مع الشكل الذي هو الاستدارة ومع الإشراق والتلألؤ على الجملة الحركة التي تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الأشل لأن حركته تدوم(٢) وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لا تقر في العين ، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذي كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها فإنك ترى شعاعها كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع في الانبساط الذي بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط ، وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان كنه صورته .

ومثل هذا التشبيه وإن صور في غير المرآة قول المهلبي الوزير(٣) :

(١) راجع الشاهد ١٩٦ والبيت لابن المعتز وينسب لأبي النجم أيضاً

(٢) وفي المنسج : تدور .

(٣) وزير معز الدولة ابن بويه الديلمي المتوفى ٣٥٢ وكان رفيع القدر =

١٩٧ — الشمس من مشرقها قد بدت   مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بوتقة أحميت   يجول فيها ذهب ذائب(١)

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقة على النار وإنه يتحرك فيها حركة على الحد الذى وصفت لك ، وما فى طبع الذهب من النعومة وفى أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ، يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعا شديداً ولكن جملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب ثم انقباض إلى الوسط فاعرفه .

ومن عجيب ما جمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبرى(٢) :

١٩١ — كأن فى غدرانها   حواجبا ظلت تمط (٣)

أراد ما يبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنائها وتحدبها كما تباعد بين طرفى القوس وتثنيها إلى ناحية الظهر كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل التقوس الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر ومتى حدثت هذه الصفة فى تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شىء بالحواجب إذا مدت لأن الحاجب لا يخفى تقويسه ومده ينقص من تقويسه .

ومن لطيف ذلك أيضاً ، أعنى الجمع بين الشكل وهيئة الحركة ، قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

= عالى الهمة مشهوراً بحب الأدب وأهله ترجم له الثعالبى فى « اليتيمة » .

(١) الحاجب : المانع ، والبوتقة : مايذيب الصائغ فيه الذهب والفضة .

(٢) هو أبو على الحسين بن أحمد وكان معاصراً للمتنبى ومدح سيف الدولة

(٣) الضمير يعود إلى السحابة ، والمعنى : إن فيها غدرانا يهب عليها الريح فتبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها تقوس وامتداد .

١٩٨ — بكرت تمير الأرض ثوب شباب
رجبيـــة محمـــودة الإسكاب(١)
نثرت أوائلها حيا فكأنه نقط على عجل بيطن كتاب

وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون فى الجسم فيقع فيها نوع من التركيب بأن يكون للجسم حركات فى جهات مختلفة نحو أن بعضها يتحرك إلى يمين والبعض إلى شمال وبعض إلى فوق وبعض إلى قدام ونحو ذلك وكلما كان التفاوت فى الجهات التى تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد كان التركيب فى هيئة المتحرك أكثر ، فحركة الرحا والدولاب وحركة السهم لا تركيب فيها ، لأن الجهة واحدة ، ولكن فى حركة المصحف فى قوله :

١٩٩ — « فانطباقا مرة وانفتاحاً(٢) »

تركيب لأنه فى إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته فى الحالة الأخرى :

فما جاء من التشبيه معقوداً على تجريد هيئة الحركة ، ثم لطف وعرف لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة فى البحر وتقاذف الأمواج بها :

---

(١) الرحبية ما يسيل بجانبى الوادى نسبة إلى الرحب،أو رجبية نسبة إلى رجب أى شتوية أى أنها تنهل فى شهر رجب . وفاعل بكرت يعود إلى السحابة والإسكاب صحته التسكاب ، لأنه ليس هناك فعل رباعى من السكب فلا يوجد«أسكب» ، والتشبيه فى البيتين من تشبيه المفرد بالمفرد ، والوجه مركب حصل من حركة ضم أعلى إلى أسفل فى أماكن عدة مع شكل من البقع غير منتظمة .

(٢) صدره : وكأن البرق مصحف قار،وهو ابن المعتز .

٢٠٠ — تقص السفين بجانبيه كما ينزو الرباح خلاله كرع(١)

الرباح: الفصيل، وقيل القرد، والكرع ماء السماء، شبه السفينة فى انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل فى نزوه، وذلك أن الفصيل إذا نزا ـ ولاسيما فى الماء وحين يعتريه ما يعترى المهر ونحوه من الحيوانات التى هى فى أول النشء ـ كانت له حركات متفاوتة تصيرها أعضاؤه فى جهات مختلفة ويكون هناك تسفل وتصعد على ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين فى الأخرى فلايثبته الطرف مرتفعاً حتى يراه منحطاً متسفلا ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب وذلك أشبه شىء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الأمواج .

ونظيره قول الآخر(٢) يصف الفصيل وهو يثب على الناقة ويعلوها ويلقى نفسه عليها لأنها قد بركت فلايتمكن من أن يرتضع فهو يفعل ذلك لتثور الناقة :

٢٠١ — يقتاعها كل فصيل مكرم كالحبشى يرتقى فى السلم(٣)

« يقتاعها » يفتعل من قولهم قاع البعير الناقة إذا ضربها يقوعها قوعا أراد يعلوها ويثب عليها، وشبه بالحبشى(٤) فى هذه الحالة المخصوصة لما يكون له عند ارتفاعه فى السلم من تصعد بعض أعضائه وتسفل بعض على اضطراب مفرط وغثارة(٥) شديدة، وذلك كما ترى فى أنه اختلاف فى

---

(١) تقص: تثب. والنزو: الوثوب، والرباح كرمان ويخفف: الفصيل أو القرد. وخلا من الخلو. والكرع: الغدير والضمير فى جانبيه يعود إلى البحر. (٢) هو العجاج الراجز (— ٩٧ هـ):

(٣) اقتاع الفحل: إذا هاج .. وهذا البيت من الرجز.

(٤) خص الحبشى لطوله وسمرته وشدة حركته .

(٤) اختلاط أو كدرة .

جهات أبعاض الجسم على غير نظام مضبوط كحركات الفصيل فى الماء وقد خلا له، وقد عرفتك أن الاختلاف فى جهات الحركات الواقعة فى أبعاض الجسم كالتركيب بين أوصاف مختلفة ليحصل من مجموعها شبه خاص .

واعلم أن هذه الهيئات يغلب عليها الحكم المستفاد من العبرة الثانية(١) ، وذلك أن كل هيئة من هيئات الجسم فى حركاته إذا لم يتحرك فى جهة واحدة فمن شأنها أن تقل وتعز فى الوجود فيباعدها ذلك أيضاً(٢) من أن تقع فى الفكر بسرعة زيادة مباعدة مضمومة إلى ما يوجبه حديث التركيب والتفصيل فيها . ألا ترى أن الهيئة التى اعتمدها فى تشبيه البرق بالمصحف ليست تكون إلا فى النادر من الأحوال وبعد عهد من الإنسان وخروج عن العادة ومقصد خاص أو عيب غالب على النفس غير معتاد : وهكذا حال الفصيل فى وثوبه على أمه ليثيرها وانسيابه فى الماء ونزوه كما توجبه رؤيته الماء عالياً ، وطباع الصغير والفصيلة مما لا ترى إلا نادراً ، وليس الأمر فى هذا النحو كالأمر فى حركة الدولاب والرحا والسهم ونحو ذلك من الحركات المعتادة التى تقع فى مصارف العيون (٣) كثيراً .

ومما يقوى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له ما مضى(٤) من تشبيه « الشمس بالمرآة فى كف الأشل » ، وذلك أن الهيئة التى تراها فى حركة المرآة إذا كانت فى كف الأشل مما ترى نادراً فى الأقل ، فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة فى يد مرتعش .

---

(١) وهى كون الشىء على الذكر لكثرة دورانه — راجع ما سبق .
(٢) أى كما باعدها فى الوجود يباعدها فى الفكر .
(٣) أى متقلباتها .
(٤) (ما) مبتدأ خبره (ومما) .

هذا — وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرآة فى يد الأشل(١) فقط ، بل النكتة المقصودة فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع وكونه فى صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها ، وهذه صفة لا تقوم فى نفس الرائى المرآة الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنف تأملا ، وينظر متثبتاً فى نظره متمهلا ، فكأن ههنا هيئتين كلتاهما من هيئات الحركة : إحداهما حركة المرآة على الخصوص الذى يوجبه ارتعاش اليد ، والثانية حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة . وإذا كان كون المرآة فى يد الأشل مما يرى نادراً ثم كانت هذه الصفة التى هى كائنة فى الشعاع إنما ترى وتدرك فى حال رؤية حركة المرآة بجهد ، وبعد استئناف إعمال للبصر فقد بعدت عن حد ما يعتاد رؤيته مرتين ، ودخلت فى النادر الذى لا تألفه العيون من جهتين ، فاعرفه .

واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة فى التشبيه فكذلك(١) تعتبر هيئة السكون على الجملة(٣) وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك ، فإذا وقع فى شىء من هيئات الجسم فى سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن .

فمن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلا :

٢٠٢ — فلما طغا ماؤه فى البلاد ... وغص به كل واد صدى(٤)
ترى الثور فى متنه طافيا ... كضجعة ذى التاج فى المرقد(٥)

---

(١) يقول التلعفرى فى هذا المعنى :
ولاحت الشمس تحكى عند مطلعها ... مرآة تبر بدت فى كف مرتعش
(٢) الفاء زائدة وكذلك مؤكدة للتشبيه السابق .
(٣) أى من غير ملاحظة أوضاع الجسم .
(٤) أى ظمآن . (٥) ترى مضارع يؤول بالماضى أى رأيت .

وكقول المتنبي في الكلب :

٢٠٣ — يقعى جلوس البدوي المصطلي (بأربع مجدولة لم تجدل)

فقد اختص هيئة البدوي المصطلي في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها فيها ولم ينل التشبيه حظا من الحسن إلا بأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل عضو من الكلب في إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات في حكم أشكال تولف فتجيء منها صورة خاصة .

ومن لطيف هذا الجنس قوله(١) في صفة المصلوب :

٢٠٤ — كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل(٢)

ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل. ولو قال كأنه متمط من نعاس واقتصر عليه كان قريباً من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر قد يقع في نفس الرائي المصلوب لكونه من الجملة، فأما بهذا الشرط وعلى هذا التقييد الذي يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر وقوة من التأمل

= وابن عصفور يجيز وقوع المضارع جواباً للما على تأويله بالماضي ، وغيره يقدر الجواب أي أصبحنا أو صرنا نرى . والثور : الوحش الجبلي ، ومتن السيل : لجه . المرقد موضع الرقاد .

(١) أي الأخيطل الشاعر العباسي – راجع ٤٣٢ معجم الشعراء للمرزباني ٢ : ٤٥ الكامل للمبرد .

(٢) هذا مثال لهيئة السكون المضاف إليها من غير أوصاف للجسم ، لأنه اعتبر هيئة سكون عنقه وصفحته في حال امتدادها مع صفرة الوجه بالموت بالحالة الموجودة في المشبه به . واللوثة : الضعف والاسترخاء بسبب النعاس ولام «لتمطيه» للتقوية و «من» بعدها تعليلية .

وذلك لحاجته أن ينظر إلى غيرجهة فيقول هو كالمتمطى ثم يقول المتمطى يمد ظهره ويده مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك ، ثم لما زاد ذلك طلب علته وهى قيام اللوثة والكسل فى القائم من النعاس ، وهذا أصل فيما يزيد به التفصيل وهو أن يثبت فى الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة وسبب :

ويشبه التشبيه فى البيت قول الآخر[1] وهو مذكور معه فى الكتب(٢)

٢٠٥ — لم أر صفا مثل صف الزط تسعين منهم صلبوا فى خط(٣)
من كل عال جذعه بالشط كأنه فى جذعه المشتط
أخو نعاس جد فى التمطى قد خامر النوم ولم يغط(٣)

فقوله «جد فى التمطى» شرط يتم التشبيه كما أن قوله «مواصل» كذلك إلا أن فى اشتراط المواصلة من الفائدة ما ليس فى هذا ، وذلك أنه يجوز أن يبالغ ويجتهد ويجد فى تمطيه ثم يدع ذلك فى الوقت ويعود إلى الحال التى يكون عليها فى السلامة ، مما يدعو إلى التمدد ، وإذا كان كذلك كان المستفاد من هذه العبارة صورة التمطى وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غاية ما يمكن أن يكون عليها ، وهذا كله مستفاد من الأول(٤) ، ثم فيه(٥) زيادة أخرى ، وهو أخص ما يقصد من صفة المصلوب ، وهى الاستمرار على

(١) هو دعبل بن على الخزاعى الأسدى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .
(٢) كالكامل ص ٥٤ جـ ٢ طبعة التجارية .
(٣) الشط : شاطىء نهير يتفرع من نهر دجلة ، وجذعه : فاعل لاسم الفاعل الذى هو (عال) و «من كل عال» هيئة الخط ، والضمير فى «كأنه» للمصلوب ، المشتط : الزائد فى الغلو ، يغط : يستغرق فى النوم .
(٤) أى من البيت الاول (٥) أى فى البيت الأول .

الهيئة والاستدامة لها فأما قوله بعد : « قد عاص النوم ولم يغط » فهو وإن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال إنه إذا أخذه النعاس فتمطى ثم عاص النوم ، فإن الهيئة الحاصلة له من جده فى التمطى تبقى له ، فليس يبالغ مبلغ قوله « مواصل لتمطيه » ، وتقييده من بعد بأنه « من الكسل » ، واحتياطه قبل بقوله « فيه لوثة » .

وشبيه بالأول فى الاستقصاء قول ابن الرومى :

٢٠٦ — كأن له فى الجو حبلا يبوعه
إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل
يعانق أنفـــاس الرياح مودعا
وداع رحيل لا يحط له رحل(١)

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه حبل آخر يخرج من بوع(٢) الأول إليه كقوله « مواصل لتمطيه من الكسل » فى استيفاء الشبه والتنبيه على استدامته لأنه إذ كان لا يزال يبوع حبلا لم يقبض باعه ولم يرسل يده . وفى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال(٣) فاعرفه .

واعلم أن من حقك ألا تضع الموازنة بين التشبيهين فى حاجة أحدهما إلى زيادة من التأمل على وقتنا هذا ، ولكن تنظر إلى حالهما فى قوى العقل ولم تسمع بواحد منهما . فنعلم أن لو أرادهما مريد واتفقا له جميعاً ولم يكن قد سمع بواحدة منهما . بهما كان يكون أسهل عليه ، وأسرع إليه ، وأعطى بيده ، وأيهما تجده أدل على ذكاء من يسمعه منه ، وأرجى لتخرج من يقوله وذلك أن تقابل بين تشبيه النجوم بالمصابيح والمصابيح بها ، وبين تشبيه سل

---

(١) البيتان فى صفة مصلوب ، يبوع : يقيس ، أتيح : هيء .

(٢) البوع : مد الباع بالشيء ، يبوع : يقيس بالباع ، يشبر : يقيس بالشبر .

(٣) ولكن الأول صرح بالمواصلة والثانى كنى عنها .

السيوف بعقائق البرق(١) وتشبيهها بسل السيوف ، فإنك تعلم أن الأول يقع في نفس الصبي ، أول ما يحس بنفسه ، وأن الثاني لا يجيب إجابته ، ولا يبذل طاعته ، وكذلك تعلم أن تشبيه الثريا بنور العنقود لا يكون(٢) في قرب تشبيهها بتفتح النور ، وأن تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة كما مضى يقع في نفس الغر العامي والصبي ، ولا يقع تشبيهها بالمرآة في كف الأشل إلا في قلب الحصيف ، وتشبيهها في حركتها تلك بمرآة تضطرب على الجملة من غير أن تجعل في كف الأشل قد يقع لمن لا يقع له بهذا التقييد ، وذلك لما مضى من حاجته إلى الفكرة في حال الشمس وأن حركتها دائمة متصلة ، ثم طلب متحرك حركة غير اختيارية ، وجعل المرآة صادرة عن تلك الحركة ومأسورة في حكمها دائماً ، وإنما شترطت عليك هذا الشرط لأنه لا يمتنع أن يسبق الأول إلى تشبيه لطيف يحسن تأمله ، ويدل على ذكائه وحدة خاطره ثم يشيع ويتسع ، ويذكر ويشهر ، حتى يخرج إلى حد المبتذل ، وإلى المشترك في أصله . وحتى يجرى مع دقة تفصيل فيه مجرى المجمل الذي تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الورهاء(٣) ، فإنك تعلم أن قولنا « لا يشق غباره » الآن في الابتذال كقولنا : « لا يلحق ولا يدرك » ، وهو كالبرق ، ونحو ذلك ، إلا أنا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زماناً بطراءة(٤) الشباب وجدة الفتاء(٥) ، وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يشق مطلبه ويصعب تناوله . ومثل هذا وأظهر منه أمراً أن قولنا « أما بعد » منسوب

(١) جمع عقيقة وهي البرق يشق السحاب وينسل منه .

(٢) في قول قيس بن الخطيم : كعنقود ملاحية حين نورا .

(٣) الحمقاء . (٤) أي نضارة . (٥) قوة الشباب .

فى الأصل إلى واحد بعينه(١) ، وإن كان الآن فى البذلة(٢) كقولنا : هذا بعد ذلك — مثلا .

وهكذا الحكم فى الطرق التى ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التى لخصها المتقدمون ، والقوانين التى وضعوها ، حتى صارت فى الاشتراك كالشيء المشترك من أوله . والمبتذل الذى لم يكن المصون من شأنه ، والمبذول الذى لم يعترض دونه المنع فى شيء من زمانه . ورب نفيس جلب إليك من الأمكنة الشاسعة ، وركب فيه النوى الشطون(٣) ، وقطع به عرض الفيافى ثم أخفى عنك فضله ، حتى جهلت قدره ، أن(٤) سهل مرامه ، واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى تحتاج إلى طلبه من مظنته ، لعلمت إحسان الجانى به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولأكثرت من شكره بعد أن أقللت ، وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت . وكذلك رب شيء نال فوق ما يستحقه من شغف النفوس به ، وأكثر مما توجبه المنافع الراجعة إليه ، لأنه(٥) لا يتسع اتساع الأول الذى فوائده أعم وأكثر ، ووجود العوض عنه عند الفقد أعسر ، فكسبت عزة الوجود هذا عزا لم يستحقه بفضله ، كما منعت سعته الآخر فضلا هو ثابت له فى أصله .

ويتصل بهذا الموضع حديث عبد الرحمن بن حسان(٦) ، وذلك أنه

---

(١) وهو قس بن ساعدة .

(٢) أى الابتذال .

(٣) أى البعيدة .

(٤) أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر فاعل أخفى .

(٥) تعليل لنيله فوق ما يستحقه .

(٦) ١ : ١٢٥ الكامل للمبرد ، وتوفى عبد الرحمن عام ١٠٤هـ (٣ : ٢٨٦ أسد الغابة لابن الأثير — طبعة طهران) .

رجع إلى أبيه حسان وهو صبي يبكي ويقول « لسعني طائر » فقال حسان: صفه يابني فقال : كأنه ملتف في بردى حبرة(١) ، وكان لسعه زنبور فقال حسان : قال ابني الشعر ورب الكعبة . أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدل به على مقدار قوة الطبع ويجعل عياراً في الفرق بين الذهن المستعد للشعر وغير المستعد له ، وسره ذلك من ابنه كما سره نفس الشعر حين قال(٢) في وقت آخر :

٢٠٧ — الله يعلم أني كنت منتبذاً ‏ في دار حسان أصطاد اليعاسيبا(٣)

فإن قلت : إن التشبيه يتصور في مكان الصبغ والنقش العجيب ولم يعجب حسان هذا وإنما أعجبه قوله « ملتف » ، وحسن هذه العبارة ، إذ لو قال : طائر فيه كوشي الحبرة ، لم يكن له هذا الموقع ، فهو إن يكن مشبهاً ما أنت فيه فمن حيث دلالته على الفطنة في الجملة .

قيل : مسلم لك أن نكتة الحسن في قوله « ملتف » ولكن لا يسلم أنه خارج من الغرض ، بل هو عين المراد من التشبيه وتمامه فيه ، وذلك أنه يفيد الهيئة الخاصة في ذلك الوشي والصبغ وصورة الزنبور في اكتسائه بهما ، ويؤدي الشبه كما مضى عن طريق التفصيل دون الجملة ، فما ظننت أنه يبعده عما نحن بصدده هو الذي يدنيه منه ، ولقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته .

---

(١) هي ضرب من برود اليمن مخطط .

(٢) أي ابنه عبد الرحمن .

(٣) الانتباذ التنحي ، اليعاسيب : جمع يعسوب طائر أصغر من الجراد تشبه به الخيل الضمر .

فصـــل

في التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب(١)

(١) عنى عبد القاهر بتقسيم الوجه العقلي إلى مفرد ومركب ومتعدد، وأطنب في بيان الفرق بين الوجه المتعدد والوجه المركب، لأن من قبله اشتبه عليهم أمرهما، فذكر وا أن الوجه العقلي المفرد ما كان وجهه منتزعا من أمر واحد، نحو قولك ـ حجة كالشمس في الظهور ـ وأن الوجه المركب ما كان وجهه منتزعا من مجموع أمرين أو أكثر، نحو قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) فالشبه منتزع من أحوال الحمار، وهي أنه يراعى منه فعل مخصوص هو الحمل، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التي هي أوعية العلوم، وأن يكون هذا مع جهل الحمار بما فيها. وأما الوجه المتعدد فهو ما ينتزع من أمرين أو أكثر لا يرتبط أحدهما بالآخر، نحو قولك — هو كالماء يصفو ويكدر — تشبه رجلا في حال رضاه وفي حال غضبه بالماء في صفائه وكدرته من غير ارتباط أحدهما بالآخر، ولهذا يجوز الاقتصار على أحدهما، كما يجوز تقديم أحدهما وتأخيره على صاحبه، بخلاف الوجه المركب.

وذلك التقسيم لا يختص بالتمثيل ولا بالوجه العقلي، وقد لا يكون هناك معنى لعناية عبد القاهر به في التمثيل وحده، ولعله عني به لما ذكره فيه من أن التشبيه المركب كلما كان أكثر جملا كان أوغل في كونه عقلياً، لأن حاجته إلى العمل العقلي تكون أكثر، وبنى على هذا أن التشبيه الذي لا يحصل إلا من جملة من الكلام أو أكثر هو الذي ينبغي أن يكون المثل الحقيقي، والأولى بأن يسمى تمثيلا، وهو بهذا لا يريد حصر التمثيل فيما كان مركباً، كما هو ظاهر قوله — والأولى بأن يسمى تمثيلا — والحق أنه لا شأن =

. . . .

= للتركيب في مزية التمثيل ، لأنه يأتي في الوجه الحسي أيضاً ، ومزيته فيه كمزيته في الوجه العقلي ، فكما لا يقتضي أن يكون الأولى باسم التشبيه ما كان مركباً ، لا يقتضي أن يكون الأولى باسم التمثيل ما كان مركباً ، وليت عبد القاهر لم يتعرض لشيء من هذا في الكلام على التمثيل ، لأنه كما سيأتي كان سبباً في انحراف من أتى بعده عن فهمه على حقيقته عنده .

ولعل الذي دعا الشيخ إلى تقسيم التشبيه إلى تمثيل وغير تمثيل أنه وجد بعض أنواع التشبيه يمتاز بالدقة واللطف ، والحاجة إلى شيء من الترفق ، وحسن التأني ، وبعضها ليس بهذه المثابة، وأن الأول ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي ، والثاني ما كان وجهه حسياً أو عقلياً حقيقياً ، فأراد أن يفرق بين الضربين ، ليخص هذا الضرب الممتاز باسم التمثيل ، ويبين ضروبه ومزاياه وخصائصه وأسباب امتيازه وتأثيره في النفوس ، ويضرب له من الأمثلة ما يظهر فضله وبعد شأوه .

وقد يكون السر في مزية التمثيل ما فيه من التجوز بسبب عدم اشتراك المشبه في وصف المشبه به، مع أن تشبيهه به يقتضي ثبوته له ، فأنت بالتمثيل في حكم من يرى صورة من الصور، ولكنه يراها تارة على حقيقتها، وأخرى في المرآة ، ومن هنا أخذ اسم التمثيل ، أما في التشبيه فأنت ترى صورتين حقيقيتين، وذلك أنك حينما تقول : خدها كالوردة في الحمرة — ترى حمرة الخد حقيقية ماثلة ، وترى حمرة الورد كذلك ، ولا تتوقف معرفة إحداهما على وجود الأخرى بجوارها ، حتى لو فقدت إحداهما لم يؤثر هذا في العلم بالأخرى ، وأما نحو : كلامه كالعسل في الحلاوة — فإنك وإن أثبت الحلاوة للطرفين فليس هنا في الحقيقة، إلا صورة واحدة تراها على حقيقتها في العسل ، وأما حلاوة الكلام فهي صورة معكوسة لحلاوة العسل ،

. . . .

وليس لها وجود فى ذاتها، حتى لو ارتفع العسل وفرضنا أنه لم يوجد أصلا لم يتصور فهم الحلاوة فى الكلام، فلا تجد إلى وجودها فيه سبيلا، ولا تستطيع لها تحصيلا، ولا جملة ولا تفصيلا، وعلى هذا لا يكون فى إثبات الحمرة للخد فى المثال الأول تجوز أصلا، ويكون فى إثبات الحلاوة للكلام تجوز ظاهر، وسيان فى المزية بين هذا وذاك، وهذا الفرق فى المزية يترتب على حقيقة التمثيل عند عبد القاهر، ولا يوجد فيه على مذهب من سبقه، ولا على مذهب من أتى بعده، ولا أثر فيه لتركيب وجه الشبه ونحوه مما يشترك بين التمثيل والتشبيه، ولا يقتضى مزية خاصة بالتمثيل، وقد كان هناك من يعد التشبيه مطلقاً نوعاً من المجاز، فإذا لم يصح هذا فى التشبيه غير التمثيلى، فهو صحيح فى التشبيه التمثيلى، لأن الطرفين لم يشتركا فيه على الحقيقة بل لا بد فيه من التأول على ما سبق، ومتى وجد التأول وجد التجوز.

وبهذا يكون التأول هو المعول عليه فى الفرق بين التمثيل وغيره، لا مجرد كون وجه الشبه عقليا غير حقيقى، فقد يكون وجه الشبه عقليا غير حقيقى ولا يوجد فيه تمثيل لفقد التأول، نحو قولك: كلامه كالعسل فى ميل النفس إليه — وهذا التأول كما يوجد فى تشبيه المعقول بالمحسوس، يوجد فى تشبيه المحسوس بالمحسوس، كقولك — كلامه كالعسل فى الحلاوة — وكقول القاضى التنوخى:

رب ليل قطعته كصدود وفراق ماكان فيه وداع
موحش كالثقيل تقذى به العيـ ـن وتأبى حديثه الأسماع

فتشبيه الليل المحسوس بالصدود والفراق المعقولين من عكس التمثيل

. . . .

على طريق التخييل كما سبق، وتشبيه بالثقيل من تشبيه المحسوس بالمحسوس ووجه الشبه فيه وهو : « تقذى به العين وتأبى حديثه الأسماع » لا يوجد فى المشبه ، فلابد أن يراد منه لازمه وهو النفرة وعدم الاستطابة ، وبهذا يكون تشبيها تمثيليا .

وقد وضع عبد القاهر التمثيل فى وضعه اللائق به ، ووصل فى حده إلى ما يجب أن يكون له ، وجعل هناك معنى للعناية فى البلاغة بأمره ، بعد أن وضعه من قبله وضعا غامضا ، واضطربوا فى أمره اضطرابا ظاهراً ، فهو عندهم مرة نوع من البديع غير استعارة ، وهو عندهم مرة نوع منها ، ولكنه يفرد فى باب وحده ، وهو على ماسبق ماسمى بالاستعارة التمثيلية ، وقد خصوها وحدها باسم التمثيل ، وجعلوا الاستعارة مرادفة للمجاز وقصروها على الاستعارة المفردة ، وقد خالفهم عبد القاهر فى هذا كله . فأقام التمثيل على أساس التأول فى وجه الشبه ، لأنه هو الذى يليق باسمه ، وهو الذى يستحق أن ينال العناية بتحقيق أمره ، وهو بعد هذا قد يذكر فيه طرفا التمثيل فلا يكون استعارة ، ويكون أخص من التشبيه الاصطلاحى خصوصا مطلقاً ، كما ذكر ذلك فى «أسرار البلاغة» وقد يذكر فيه أحد الطرفين فيكون من الاستعارة ، وهو الذى ذكره فى « دلائل الإعجاز » فقال : وأما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى — ولكنه عند عبد القاهر لا يختص بالاستعارة المركبة كما فى هذا المثال ، بل قد يأتى فى الاستعارة المفردة ، كاستعارة النور للقرآن والحياة للعلم ، فقد صرح عبد القاهر بجواز تسميتها تمثيلا ، بل قد يأتى فى الاستعارة بالكناية على ما سبق من قول سعد بن ناشب :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

اعلم أنى قد قدمت بيان المركب من التشبيه .

وههنا مايذكر مع الذى عرفتك أنه مركب ويقرن إليه فى الكتب(١) وهو على الحقيقة لا يستحق صفة التركيب ، ولا يشارك الذى مضى ذكره فى الوصف الذى كان له تشبيهاً مركباً ، وذلك أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر فى الشبه ، ومثاله قول امرىء القيس(٢) :

٢٠٨ — كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى

وذلك أنه لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالا وإنما أراد اجتماعاً فى مكان فقط . كيف ولا يكون لضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها ، أو يعنى بأمرها ، كما يكون ذلك اتباشير الصبح فى أثناء الظلماء ، وكون الشقيقة على قامتها الخضراء ، ويؤدى ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخر واتصاله به اجتماع الحشف البالى والعناب ، كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما فى مكان واحد . ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك فى ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت: كأن

---

(١) أى كتب النقد والأدب القديمة .

(٢) العناب : ثمر أحمر ، الحشف : ما يبس من التمر ، شبه الطرى من قلوب الطير بالعناب ، والعتيق بالحشف . وخص قلوب الطير لأنها أطيب لحما وضمير وكرها راجع إلى العقاب وفرخ العقاب يأكل لحم الطائر إلا قلبه فلذلك كثر عند وكرها ، وقيل : إنه مادام صغيراً لا يأكل إلا قلوب الطير فتأتى العقاب لفرخها به .

الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال ، لم تر أحد التشبيهين موقوفاً في الفائدة على الآخر وليس كذلك الحكم في المركبات التي تقدمت .

وقد يكون في التشبيه المركب ما إذا فضضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيها لما كان جاء في مقابلته مع التركيب ، بيان ذلك أن الجلال في قوله :

٢٠٩ ـ كطرف أشهب ملقى الجلال(١) في مقابلة الليل وأنت لو قلت كأن الليل جلال وسكت لم يكن شيئاً .

وقد يكون الشيء منه إذا فض تركيبه استوى التشبيه في طرفيه إلا أن الحال تتغير ومثال ذلك قوله(٢) :

٢١٠ ـ وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

فأنت وإن كنت إذا قلت : كأن النجوم درر وكأن السماء بساط أزرق ، وجدت التشبيه مقبولا معتاداً مع التفريق فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين ، ومقدار الإحسان الذي يذهب من البين ، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التي تملأ النواظر عجبا ، وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى : من طلوع النجوم مؤتلقة مفترقة في أديم السماء وهي زرقاء وزرقتها الصافية التي تخدع العين والنجوم تتلألأ وتبرق في أثناء تلك الزرقة ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب ؟ وهذا أظهر من أن يخفى .

وإذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب في صورة بيت امرىء القيس ، فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه ، لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه .

(١) راجع الشاهد ١٧٦ . (٢) أبو طالب الرقي ، وقد سبق البيت .

وقوله : « كل رجل وضيعته » . وهى إذا كانت بمعنى « مع » لم يكن فى معطوفها الانقطاع ، وأن يكون الكلام فى حكم جملتين ألا ترى أن قولهم « لو تركت الناقة وفصيلها ، لرضعها » لا يكون بمنزلة أن تقول لو تركت الناقة ولو ترك فصيلها ، فتجعل الكلام جملتين . وكذا لا يمكنك أن تقول كل رجل كذا وضيعته كذا ، فتفرق الخبر عنهما ، كما يجوز فى قولك زيد وعمرو كريمان ، أن تقول : زيد كريم وعمرو كريم . وهذا موضع غامض والكلام فيه موضع آخر(١) .

وإن أردت أن تزداد تبيناً لأن التشبيه إذا كان معقوداً على الجمع دون التفريق كان حال أحد الشيئين مع الآخر حال الشىء فى صلة الشىء وتابعا له ومبنيا عليه حتى لا يتصور إفراده بالذكر ، فالذى يفضى بك إلى معرفة ذلك أنك تجد فى هذا الباب ما إذا فرق لم يصلح للتشبيه بوجه كقوله(٢) :

٢١٥ — كأنما المريخ والمشترى ... قدامه فى شامخ الرفعـــة
منصرف بالليل عن دعوة ... قد أسرجت قدامه شمعه

لو قلت كأن المريخ منصرف بالليل عن دعوة وتركت حديث المشترى والشمعة كان خلفاً من القول . وذلك أن التشبيه لم يكن للمريخ من حيث هو نفسه ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشترى أمامه . وأنت وإن كنت تقول : المشترى شمعة على التشبيه العامى الساذج فى قولهم كأن النجوم مصابيح وشموع فإنه لم يضع التشبيه على هذا وإنما قصد الهيئة التى يكتسبها المريخ من كون المشترى أمامه .

---

(١) خلاصة الفرق بين المركب والمتعدد : صحة تفريق التشبيهات فى المتعدد ، وأن فائدة التشبيه المتعدد الاختصار وحسن الترتيب ، وفائدة المركب تصوير الهيئة ، والتشبيه المركب يجعل الساذج خاصيا وأحد المشبهين فى المركب كالتابع للآخر .

(٢) أى القاضى التنوخى .

ليس القصد فيه أن يريك كل لون على الانفراد وإنما القصد أن يرى الشبه من اجتماع اللونين .

وقول البحترى(١) :

٢١٣ — ترى أحجاله يصعدن فيـــه

صعود البرق فى الغيم الجهـــام(٢)

لا يريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق ، بل المقصود الهيئة الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين الآخر .

كذلك المقصود فى بيت بشار بتشبيه النقع والسيوف فيه بالليل المتهاوى كواكبه ، لا تشبيه الليل بالنقع من جانب والسيوف بالكواكب من جانب ، ولذلك وجب الحكم كما كنت ذكرت فى موضع بأن الكلام إلى قوله « وأسيافنا » فى حكم الصلة للمصدر(٣) ، وجار مجرى الاسم الواحد ، لئلا يقع فى التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : « كأن مثار النقع ليل وكأن السيوف كواكب » . ونصب الأسياف لا يمنع من تقدير الاتصال ، ولا يوجب أن يكون فى تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » كقوله :

٢١٤ — « فإنى وقيار بها لغريب »(٤) :

= الكشاف فى سورة البقرة عند قوله تعالى (عوان بين ذلك) ورواه : كأنه فى الجلد ، ومعنى التوليع : استطالة البلق . والبهق بالتحريك . بياض رقيق فى البشرة .

(١) فى وصف فرس استهداه من عبد الله بن طاهر .

(٢) الجهام السحاب لا ماء فيه ، وقوله فيه : أى فى الفرس المحجل .

(٣) أى لمثار وهو مصدر ميمى أو اسم مفعول .

(٤) هو لضابىء البرجمى وصدره : ومن يك أمسى بالمدينة رحله . والواو فيه بمعنى مع لأن « قيارا » لا يمكن أن يكون غريبا وحده وكذا الخبر فيما بعده .

ونظيره أن للجمع بين عدة تشبيهات في بيت كقوله(١) :

٢١١ — بدت قمراً وماست خوط بان
وفاحت عنبراً ورنت غزالا

مكانا من الفضيلة مرموقا ، وشأواً ترى فيه سابقاً ومسبوقاً ، لا أن حقائق التشبيهات تتغير بهذا الجمع ، أو أن الصور تتداخل وتتركب وتأتلف ائتلاف الشكلين يصيران إلى شكل ثالث فكون قدها كخوط البان ، لا يزيد ولا ينقص في شبه الغزال حين ترنو منه العينان . وهكذا الحكم في أنها تفوح فوح العنبر ، ويلوح وجهها كالقمر .

وليس كذلك بيت بشار «كأن مثار النقع» ، لأن التشبيه هناك كما مضى مركب ، وموضوع على أن يريك الهيئة التي ترى عليها النقع المظلم والسيوف في أثنائه تبرق وتومض ، وتعلو وتنخفض ، وترى لها حركات من جهات مختلفة ، كما يوجبه الحال حين يحمى الجلاد ، وتركض بفرسانها الجياد ، كما أن قول رؤبة مثلا :

٢١٢ — فيها خطوط من سواد وبلق
كأنها في الجلد توليع البهق(٢)

---

(١) أي المتنبي من قصيدة في مدح ابن عمار .
ومثل البيت قول ديك الجن :
سفرن بدورا ، وانتقبن أهلة ومسن غصونا والتفتن جآذرا
وللو أواء الدمشقي :
وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد

(٢) يصف حمراً وحشية فيها خطوط الخ ... وقد أورده في =

وهكذا قول ابن المعتز :

٢١٦ — كأنه وكأن الكأس فى فمه   هلال أول شهر غاب فى شفق(١)

لم يقصد أن يشبه الكأس على الانفراد بالهلال والشفة بالشفق بل أراد أن يشبه بمجموع الصورتين ، ألا ترى أنك لو فرقت لم تحل(٢) من التشبيه بطائل ؟ إذا لا معنى لأن تقول : كأن الشفة شفق ، وتسكت .. ألا ترى أن قوله(٣) :

٢١٧ — بياض فى جوانبه احمرار   كما احمرت من الخجل الخدود(٤)

لم يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامى وأن يقال قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع ، وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ؟ .

وقال القاضى أبو الحسن(٥) رحمه الله : « لو اتفق له أن يقول : احمرار فى جوانبه بياض ، لكان قد استوفى الحسن ، وذلك لأن خد الخجل هكذا يحدق البياض فيه بالحمرة ، لا الحمرة بالبياض ، إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة فشبه على طريق العكس ، فقال : هذا البياض حوله الحمرة هاهنا كالحمرة حولها البياض هناك » .

فانظر الآن إن فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والإحسان ، ويحصر

---

(١) شبيه به قول أبى نواس :

فكأنه وكأن الكأس فوق بنانه   شمس يمد بها إليك هلال

وهو فى ديوان ابن المعتز ٢ : ٥٤ .

(٢) أى لم تفز وهو بفتح التاء واللام وسكون الحاء .

(٣) أى ابن المعتز .

(٤) يوجد فى ديوان ابن المعتز ٢ : ١٢٠ .

(٥) صاحب كتاب الوساطة راجع ص ١٥١ من الوساطة، وراجع العمدة (٢ : ١٧ طبعة التجارية) حيث رأى أن فساد التشبيه راجع لفساد المقابلة .

المعنى ويذهب البيان، لأن تشبيه البياض على الانفراد لامعنى له، وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة ، أعني تشبيه الورد الأحمر بالخد ، فإنه يفسد من حيث إن القصد إلى جنس من الورد مخصوص ، وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة ، فيجب أن يكون وصف المشبه على هذا الشرط أيضاً .

وبهذا الاختصاص وكما ذكرت لك تجد أحد الشيئين فى الأمر الأعم الأكثر وقد ذكر فى صلة الآخر ولم يعطف عليه كقوله(١) :

٢١٨ — والشيب ينهض فى الشباب

٢١٩ — و « بياض فى جوانبه احمرار(٢) »

وأشباه ذلك . فإن جاءت « الواو » كانت واو حال كقوله(٣) :

٢٢٠ — كأنما المريخ والمشترى

قدامه فى شامخ الرفعه

وهى إذا كانت حالية فهى كالصفة فى كونها تابعة وبحيث لا ينفرد بالذكر ، بل يذكر فى ضمن الأول ، وعلى أنه من تبعه وحاشيته .

وهكذا الحكم فى الطرف الآخر ألا ترى قوله(٤) :

٢٢١ — « ليل تهاوى كواكبه »

فتهاوى كواكبه : جملة من الصفة لليل . وإذا كان كذلك فالكواكب مذكورة على سبيل التبع لليل ، ولو كانت مستبدة بشأنها لقلت : ليل وكواكب وكذلك قوله(٥) :

---

(١) أى الفرزدق ، وتتمة البيت : كأنه ليل يصيح بجانبه نهار .
(٢) راجع الشاهد ٢٠٩ .
(٣) أى التنوخى راجع الشاهد ٢٠٧ .
(٤) أى بشار . (٥) أى الفرزدق .

٢٢٢ — ليل يصيح بجانبه نهار(١)

وأشد من ذلك أن يجيء (كما) في الطرف الثاني كقوله :

٢٢٣ — « كما احمرت من الخجل الخدود »

وبيت امرىء القيس(٢) على خلاف هذه الطريقة لأن أحد الشيئين فيه في الطرفين معطوف على الآخر ، أما في طرف الخبر وهو طرف المشبه به فبين وهو قوله « العناب والحشف البالي » ، وأما في طرف المخبر عنه وهو المشبه ، فإنك وإن كنت ترى اسما واحداً وهو القلوب فإن الجمع الذي تفيده الصيغة والمتفق ، يجري مجرى العطف في المختلف . فاجتماع شيئين أو أشياء في لفظ تثنية أو جمع لا يوجب أن أحدهما(٣) في حكم التابع للآخر ، كما يكون ذلك إذا جرى الثاني في صفة الأول أو حاله أو ما أشبه ذلك ، هذا وقد صرح بالعطف في البدل وهو المقصود فقال(٤) : رطبا ويابساً .

واعلم أنه قد تجيء في هذا الباب(٥) شيء له حد آخر ونحو قوله(٦) :

٢٢٤ — إني وتزييني بمدحي معشراً كمعلق دراً على خنزير

هو على الجملة جمع بين شيئين في عقد تشبيه إلا أن التشبيه في الحقيقة لأحدهما ألا ترى أن المعنى على أن فعله في التزيين بالمدح كفعل الآخر في

---

(١) والشيب ينهض في الشباب كأنه
ليـــل يصبح بجانبيه نهار
وراجع الشاهد ٢١١ و ٢٠٩ .
(٢) وهو كأن الطير الخ .
(٣) أي أو أحدها .
(٤) أي امرؤ القيس .
(٥) أي باب التشبيه المركب .
(٦) هو ابن الرومي .

محاولته تزيين الخنزير بتعليق الدر عليه ، ووجه الجمع أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر لأن الشيء غير قابل للتحسين ، ومتى كان المشبه به كمعلق فى البيت فلاشك أن التشبيه لا يرجع إلى ذات الشيء بل إلى المعنى المشتق منه الصفة . وإذا رجع إليه رجع إليه مقروناً بصلته على نحو مامضى فى نحو «ما زال يفتل فى الذروة والغارب» فقد شبه تزيينه بالمدح من ليس من أهله بتعليق الدر على الخنزير هكذا بجملته لا بالتعليق غير معدى إلى الدر والخنزير، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما فى صلته . ولابد للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى مع ، وأمرها فيه أبين إذ لا يمكن أن يقال إنى كذا وإن تزيينى كذا لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم فى «إنى» الذى هو المعطوف عليه والآخر عن «تزيينى» المعطوف ، كما يكون فى نحو بيت بشار شيئان يمكن فى ظاهر اللفظ أن يجعل أحدهما خبراً عن النقع والآخر عن الأسياف إلى أن تجيء إلى فساده من جهة المعنى . فأنت فى نحو «إنى وتزيينى» ملجأ إلى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه حتى لا تقدر على إخراج الكلام إلى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيهاً بعد تشبيه .

فان قلت : إن فى «معلق» معنى الذات والصفة معاً ، فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه .

أقول : لو أريد : أنى كمعلق دراً على خنزير ، وإن تزيينى بمدحى معشراً كتعليق در على خنزير ، كان قولا ظاهر السقوط ، لما ذكرت ، من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلا بمعلق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو ، وإنما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه(١) .

---

(١) جعل الخطيب القزوينى البيت من تشبيه المفرد بالمفرد والطرفان مقيدان ١٧٥ ، ١٧٦ الإيضاح .

فإن قلت : فما تقول فى قوله(١) :

٢٢٥ — وحتى حسبت الليل والصبح إذ بدا
حصانين مختالين جونا وأشقرا

فإنه ظاهره أنه من جنس المفرق ؟

أقول : نعم : إلا أن ثمة شيئاً من الحسن ، وهو أن لاقتران الحصانين الجون والأشقر فى الاختيال ضرباً من الخصوصية فى الهيئة ، لكنه لا يبلغ مبلغ « ليل تهاوى كواكبه » ، ولا مبلغ قوله(٢) :

٢٢٥ — « والصبح مثل غرة فى أدهم »

كما أن قوله(٣) :

٢٢٧ — دون التعانق ناحلين كشكلى
نصب أدقهما وضم الشاكل(٤)

لا يكون كقوله(٥) :

٢٢٨ — إنى رأيتك فى نومى تعانقنى
كما تعانق لام الكاتب الألفا

فإن هذا قد أدى إليك شكلا مخصوصاً لا يتصور فى كل واحد من

---

(١) أى ابن المعتز . (٢) أى ابن المعتز .
(٣) أى المتنبى .
(٤) راجعه فى ٣ : ٢٥٣ شرح العكبرى لديوان المتنبى .
(٥) هو بكر بن النطاح كما فى « أدب الكتاب » للصولى ، أو أبو بكر ابن خارجة كما فى ديوان المعانى (١ : ٢٤٣) ، أو بكر الموسوس كما فى العقد ٤ : ٢١٢ .

المذكورين على الانفراد بوجه، وصورة لاتكون مع التفريق، وأما المتنبي فأراك الشيئين في مكان واحد وشدد في الفرق بينهما ، وذلك أنه لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة في فرط النحول واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا ، والأول لم يعن بحديث الدقة والنحول ، وإنما عنى بأمر الهيئة التي تحصل في العناق خاصة من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه والتفاف الحبيب بمحبه ، كما قال(١) :

١٢٩ — (ولم أنس ليلتنا في العناق)
لف الصبا بقضيب قضيبا

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة لأن خطى اللام والألف في «لا» ترى رأسيهما في جهتين وتراهما قد تماسا من الوسط وهذه هيئة المعتنقين على الأمر المعروف ، فأما قصد المتنبي ، فليس بصفة عناق على الحقيقة ، وإنما هو تضام وتلاصق ، وهو بنحو قوله(٢) :

٢٣٠ — ضمته ضمة عدنا بها واحداً فلو رأتنا عيون ما خشيناها

أشبه ، لأن القصد في مثله شدة الالتصاق ، من غير تعريج على هيئة الاعتناق ، وذهب القاضي(٣) في بيت المتنبي إلى أنه «كأنه معنى مفرد» غير مأخوذ من قوله «كما تعانق لام الكاتب الألفا» . وقال : «ولئن كان أخذه

---

(١) أي البحتري .

(٢) هو أبو إسحاق الفارسي من عصر الدولة البويهية ، راجع ٢ : ٢٢٣ شرح العكبري على ديوان المتنبي طبع الحلبي ، وشبيه به قول ابن المعتز :
فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنا في جسد واحد

(٣) أي القاضي الجرجاني صاحب الوساطة .

كما يقولون فليس عليه بعتب ، لأن التعب فى نقله ليس بأقل من التعب فى ابتدائه(١) » .

وهذا التفضيل والتفصيل من قول القاضى ليس قادحاً فى غرضى لأنى أردت أن أريك مثالا فى وضع التشبيه على الجمع والتفريق وأجعل البيتين معياراً فيما أردت ، ولئن كان المتنبى قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى وهى الإغراق فى الوصف والتحول ، وجمع ذلك للخلين معاً ، ثم إصابة مثال له ونظير من الخط ، فاعرف ذلك ، ولا تظن أن تصدى المفاضلة بين البيتين، من حيث القول فى السابق والمسبوق ، والأخذ والسرقة ، فتحسب أنى خالفت القاضى فيما حكم به .

---

(١) راجع ١٨٨ الوساطة .

فصـــل

« هذا فن غير ما تقدم فى الموازنة بين التشبيه والتمثيل »

(فروق بين التمثيل والتشبيه)

(قلب التشبيه) :

اعلم : أنى قد عرفتك أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا وثبت وجه الفرق بينهما .

وهذا أصل إذا اعتبرته ، وعرضت كل واحد منهما عليه . فوجدته يجىء فى التشبيه مجيئاً حسناً ، وينقاد القياس فيه انقياداً لا تعسف فيه ، ثم صادفته لا يطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعة ، ولا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت ، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق .

وذلك جعـــل الفرع أصلا ، والأصل فرعا ، وهو إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها ، وذلك نحو أنهم يشبهون الشىء فيها بالشىء فى حال ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول ، فترى الشىء مشبهاً مرة ومشبهاً به مرة أخرى ،

فمن أظهر ذلك أنك تقول فى النجوم كأنها مصابيح ، ثم تقول فى حالة أخرى فى المصابيح كأنها نجوم ، ومثله فى الظهور والكثرة : تشبيه الخد بالورد والورد بالخد ، وتشبيه الروض المنور بالوشى المنمنم ونحو ذلك . ثم تشبيه النقش والوشى فى الحلل بأنوار الرياض ، وتشبيه العيون بالنرجس ثم تشبيه النرجس بالعيون ، كقول أبى نواس :

٢٣١ — لدى نرجس غضُّ القطاف كأنه
إذا ما منحنـــاه العيون عيون

وكذلك تشبيه الثغر بالأقاحى(١) ثم تشبيهها بالثغر، كقول ابن المعتز :

٢٣٢ — والأقحوان كالثنايا الغر   قد صقلت أنواره بالقطر

وقول التنوخى :

٢٣٣ — أقحوان معانق لشقيق   كثغور تعض ورد الخدود

وبعده وهو تشبيه النرجس بالعيون :

٢٣٤ — وعيون من نرجس تتراءى   كعيون موصولة التسهيد

وكما يشبهون السيوف عند الإنتضاء بعقائق البروق كما قال(٢) ثم يعودون فيشبهون البرق بالسيوف المنتضاه كما قال ابن المعتز يصف سحابة :

٢٣٥ — وسارية لا تمل البكا   جرى دمعها فى خدود الثرى
سرت تقدح الصبح فى ليلها   ببرق كهندية تنتضى

وكقول الآخر يصف نار البندق :

---

(١) الأقاحى بالتشديد ، والأقاحى : جمع أقحوان بالضم زهر له أوراق بيض وطويلة ووسطه أصفر ومنه نوع صغير ليس له ورق وله رائحة قوية يسمى البابونج .

(٢) أى عنترة فى وصف سيفه :

وسيفى كالعقيقة وهو كمعى   سلاحى لا أفل ولا فطارا

والكمع بزنة حمل : الضجيع أو القميص . والفطار ما فيه تشقق . والعقائق جمع عقيقة وهى الشعاع أو البرق فى وسط السحاب كأنه سيف مسلول .

٢٣٦ ـ وما زال يعلو عجاج الدخان | إلى أن تكون منه زحل(١)
وكنا نرى الموج من فضة | فذهبه النور حين اشتعل
شرار أيحاكي انقضاض النجوم | وبرقا كإيماض بيض تسل

ومن لطيفه قول علي بن محمد بن جعفر(٢):

٢٣٧ ـ دمن(٣) كأن رياضها | يكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانها | فيها عشور من مصاحف
وكأنما أنوارها | تهتز في نكباء عاصف(٤)

(١) هو لأبي الحسن محمد بن عبد الله المخزومي السلامي نسبة إلى دار السلام وهي بغداد ومن أشهر أهل العراق ولد عام ٣٣٦، وتوفي سنة ٣٩٣. والسذق عيد للفرس في الحادي من شهر بهمن ماه حوالي ١٣ نوفمبر، وسنتهم فيه إيقاد النيران العظيمة بسائر الأدهان ويلقون فيها أنواع الحبوب، ويروى بدل «تكون»: تكوّن.

(٢) هو علي بن محمد بن جعفر الحماني من بني حمان بن كعب بن سعد الكوفي الشاعر العباسي المتوفي عام ٢٦٠هـ، وصواب إنشاد البيت الأول هكذا كما ذكرناه:

دمن كأن رياضها | يكسين أعلام المطارف

وقبل البيت الأخير بيتان هما:

باتت سواريها تمخـ | ـض في رواعدها القواصف
ثم انبرت سحا كبا | كية بأربعة ذوارف

(٣) الدمن جمع دمنة وهي هنا: الموضع القريب من الدار. والمطارف: جمع مطرف كمنبر: رداء مربع من الخز فيه أعلام.

(٤) النكباء ريح بين الصبا والشمال.

طرر الوصائف يلتفتـ ن بها إلى طرر الوصائف(١)
وكأن لمع بروقها في الجو أسياف المثاقف(٢)

المقصود البيت الأخير ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين ، وأملأ بالزين ، منها إذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر .

ويشبهون الجواشن(٣) والدروع بالغدير ، يضرب الريح متنه فيتكسر ، ويقع فيه ذلك الشنج(٤) المعلوم ، كقوله(٥) :

٢٣٨ — وبيضاء زغف نثلة سلمية لها رفرف فوق الأنامل من عل
وأشبرنيها الهالكي كأنها غدير جرت في متنه الريح سلسل(٦)

---

(١) الوصائف : جمع وصيفة وهي الفتاة الشابة .

(٢) المثاقف : الملاعب بالسلاح .

(٣) الجواشن : الدروع جمع جوشن .

(٤) الشنج بالتحريك : التقبض من مس نار أو برد شديد .

(٥) هو أوس بن حجر بن عتاب كان من أوصف الشعراء للحمر الوحشية والسلاح لاسيما القوس قال أبو عمرو بن العلاء : كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه .

(٦) الزغف : الدرع الواسعة المحكمة ، والنثلة : الدرع الطويلة . والسلمية : نسبة إلى سليم الذي جاء في شعرهم اختصاره عن سليمان سماعاً . أشبرنيها : أعطانيها . الهالكي : هنا الصيقل أو الحداد ، قيل إن أول من صنع الحديد في العرب هو الهالك بن عمرو .

وقال(١) :

٢٣٩ — وسابغة من جياد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كمتن الغدير زهتـــه الدبور يجر المدجج منها فضولا

وقال البحترى(٢) :

٢٤٠ — يمشون فى زغف كأن متونها
فى كل معركـــة متون نهاء

وهو من الشهرة بحيث لا يخفى .

ثم إنهم يعكسون هذا التشبيه فيشبهون الغدران والبرك بالدروع والجواشن ، كقول البحترى يصف البركة(٣) :

٢٤١ — إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

ومن فاتن ذلك وفاخره ، لاستواء أوله فى الحسن وآخره ، قول أبى فراس الحمدانى :

---

(١) هو عبد القيس بن خفاف البرجمى الشاعر الجاهلى راجع ١٨٤ المفضليات ، ٣١٧ : ١ الحماسة . والدبور : ريح غربية . المدجج : اللابس السلاح . الفضول : الزيادة :

(٢) النهاء أصغر محابس الماء الواحدة نهاءة وهى الغدير الصغير أو هى جمع نهى ، ويشبهون الصارم بلون الملح أيضاً ، يقول مالك بن أبى كعب والد كعب بن مالك شاعر رسول الله ﷺ :

على فضفاضة كالنهى سابغة وصارم مثل لون الملح مصقول

(٣) أى بركة قصر المتوكل ، وزهتها : علتها ، والصبا : ريح شرقية ، والحبك بضمتين : جمع حبيكة وهى الطريق فى الرمل .

٢٤٢ — انظر إلى زهر الربيع والماء فى البرك البديع
وإذا الرياح جرت عليـ ـه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا ئح بيننا حلق الدروع

وتشبه أنوار الرياض بالنجوم كقوله(١) :

٢٤٣ — بكت السماء بها رذاذ دموعها فغدت تبسم عن نجوم سماء

ثم تشبه النجوم بالنور كقوله(٢) :

٢٤٤ — قد أقذف العيس فى ليل كأن به وشياً من النور أو روضاً من العشب

وكقول ابن المعتز :

٢٤٥و١٧٦ — كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتح نور أو لجام مفضض

وقال(٣) :

٢٤٦ — وتوقد المريخ بين نجومها كبهارة فى روضة من نرجس(٤)

وكذلك تشبه غرة الفرس الأدهم بالنجم أو الصبح ، ويجعل جسمه كالليل ، كما قال ابن المعتز :

٢٤٧ — جاء سليلا من أب وأم أدهم مصقول ظلام الجسم

* قد سمرت جبهته بنجم *

---

(١) أى البحترى من القصيدة السابقة .

(٢) أى البحترى فى مدح أبى الصقر .

(٣) أى ابن المعتز ٢ : ٥٢ ديوانه طبعة بيروت .

(٤) المريخ : يمتاز باحمرار لونه . البهارة واحدة البهار بالفتح نبت طيب الرائحة .

(٥) جاء سليلا من أب وأم لا أقفلت من ولد بعقم
أدهم مصقول ظلام الجسم منتعل بجندلات صم
قد سمرت جبهته بنجم

وكما قال كاتب(١) المأمون يصف فرساً :

٢٤٨ — قد بعثنا بجواد   مثله ليس يرام
فرس يزهى به للـ   حسن سرج ولجام
وجهه صبح ولكن   سائر الجسم ظلام
والذى يصلح للمو   لى على العبد حرام

وقال ابن نباتة :

٢٤٩ — وأدهم يستمد الليل منه   وتطلع بين عينيه الثريا

ثم يعكس فيشبه النجم أو الصبح بالغرة فى الفرس كقول ابن المعتز :

٢٥٠ — والصبح فى طرة ليل مسفر   كأنه غرة مهر أشقر

وتشبه الجوارى فى قدو دهن بالسرو تشبيهاً عامياً مبتذلا . ثم إنهم قد جعلوا الفرع فيه أصلا ، فشبهوا السرو بهن كقوله(٢) :

٢٥١ — حفت بسرو كالقيان تلحفت
خضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح حين تميلها   تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

والمقصود من البيت الأول ظاهر وفى البيت الثانى تشبيه من جنس الهيئة المجردة من هيئات الحركة وفيه تفصيل ظريف فانه فقد راعى الحركتين

---

(١) هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن صول أحد وزراء المأمون ومن أبلغ الكتاب يضرب به المثل فى جزالة اللفظ وقلته وصواب المعنى وكثرته توفى عام ٢١٣ هـ .

(٢) هو أحمد بن سليمان بن وهب الكاتب كان ناثراً ناظماً بارعاً فى فنون كثيرة ومن أسرة شهرت بالأدب توفى سنة ٢٨٥ هـ .

حركة التهيؤ للدنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدى ما يكون فى الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية تحسب معها السمع بصراً، تبيينا للتشبيه كما هو، وتصويراً لأن حركة الشجرة المعتدلة فى حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها فى خروجها من مكانها من الاعتدال، وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبداً من حركته إذهم بالدنو. فازعاج الخوف والوجل ، أبداً أقوى من إزعاج الرجاء والأمل، فمع الأول تمهل الاختيار ، وسعة الحوار ، ومع الثانى حفز الاضطرار ، وسلطان الوجوب. وأعود إلى الغرض .

ومن تشبيه السرو بالنساء قول ابن المعتز(١) :

٢٥٢ — ظللت بملهى خير يوم وليلة   تدور علينا الكأس فى فتية زهر
بكف غزال ذى عذار وطرة   وصدغين كالقافين فى طرف سطر
لدى نرجس غض وسرو كأنه   قدود جوار من فى أزر أخضر

وتشبيه ثدى الكواعب بالرمان كقوله(٢) :

٢٥٣ — ربما تبيت أناملى   يجنين رمان النحـــور

وقال المتنبى :

٢٥٤ — وقابلنى رمانتا غصن بانة   يميل به بدر ويمسكه حقف(٣)

وقوله(٤) :

٢٥٥ — يخططن بالعيدان فى كل منزل   ويخبأن رمان الثدى النواهد

---

(١) راجع ٢ : ٤٥ ديوان المعتز طبعة بيروت .

(٢) ينسب للسلامى كما ينسب لمنصور النمرى (٣٥٩ الشعر والشعراء) ولمحمد بن عبيد الله النميرى ، وللمنخل اليشكرى .

(٣) البدر استعارة للوجه . والحقف استعارة للردف .

(٤) النابغة الذبيانى الشاعر الجاهلى المشهور .

ثم يقلب فيشبه الرمان بالثدى كقول القائل(١) :

٢٥٦ — ورمانة شبهتها إذ رأيتها بثدى كعاب أو بحقة مرمر
منمنمة صفراء تضد حولها يواقيت حمر في ملاء معصفر

وتشبه الجداول والأنهار بالسيوف يراد بياض الماء الصافى وبصيصه مع شكل الاستطالة الذى هو شكل السيف كقول ابن المعتز :

٢٥٧ — أعددت للجار وللعفاة كوم الأعالى متساميات
روازقا فى المحل مطعمات

يعنى نخلا ، ثم قال بعد أبيات :

٢٥٨ — تسق بأنهار مفجرات على حصى الكافور فائضات
مثل السيوف المتفريات(٢)

وقول ابن بابك :

٢٥٩ — فما سيل تخلصه المحانى كما سلت من الخلل المناصل(٣)

أبو فراس :

٢٦٠ — والماء يفصل بين زهـ ـر الروض فى الشطين فصلا
كبساط وشى جردت أيدى القيون(٤) عليه نصلا

كشاجم :

٢٦١ — وترى الجداول كالسيو ف لها سواق كالمبارد

آخر(٥) :

---

(١) هو أبو النضر سعيد بن الشاه من شعراء القرن الرابع، والكعاب كسحاب الفتاة نهد ثديها أى ظهر ، والحقة والحق : وعاء الطيب وغيره ويكون مستديرا فى الغالب .

(٢) المتفريات: من تفرى الشىء إذا انشق ويقال تفرى الليل عن صبحه

(٣) جمع محنية ومحنوة هى منعرج الوادى .

(٤) القيون جمع قين وهو الحداد (٥) هو النابغة الجعدى

٢٦٣ - وفى الجداول أسياف محادثة والطير تسجع أهزاجا وارمالا(١)

وقال ذو الرمة :

٢٧٤ - فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت جداول أمثال السيوف القواطع

ابن الرومى :

٢٦٤ - على حفاف جدول مسجور أبيض مثـــل المهرق المنشور
أو مثل متن الصارم المشهور(٢)

ثم يقلبون أحد طرفى التشبيه على الآخر فيشبهون السيوف بالجداول، كقوله(٣) :

٢٦٥ - وتخال ماضربوا بهن جداولا وتخـال ما طعنوا به أشطانا

ابن بابك :

٢٦٦ - وأهدى إلى الغارات عزماً مشيعاً
وبأساً وباعاً فى اللقــاء ومقصلا(٤)
سفيه مقط الطـرتين أشيمه فيوحى إلى الأعضاء أن تتزيلا
أغر كأنى حين أخضب حده خرقت به فى ملتقى الروض جدولا(٥)

---

(١) المحادثة: المجلوة المصقولة: والهزج والرمل بالتحريك ضربان من التلحين

(٢) يصف عنبا رازقيا وهو عنب أبيض طويل الحب دقيق الوسط غليظ الطرفين أصله من الطائف . والحفاف ككتاب الجانب ، والجدول: النهر الصغير . والمسجور . المملوء . والمهرق الصحيفة .

(٣) هو القطامى أو يزيد بن أبان الملقب بنابغة بنى الحارث بن كعب. والأشطان : الحبال التى يستقى بها خاصة .

(٤) المشيع : المعجول . المقصل كمنبر : السيف القطاع .

(٥) السفيه : المضطرب والمسرف فى عمله ، والطرة : طرف الشىء وجانبه .

السرى :

٢٦٧ - وكم خرق الحجاب إلى مقام توارى الشمس! فيه بالحجاب
كأن سيوفه بين العوالى جداول يطردن خلال غاب

وله أيضا :

٢٦٨ - كأن سيوف الهند بين رماحه جداول فى غاب سما وتأشبا(١)

وتشبيه الأسنة كما لا يخفى بالنجوم كما قال(٢) :

٢٦٩ — وأسنة زرقا تخال نجوما

وقال البحترى :

٢٧٠ - وتراه فى ظلم الوغى فتخاله قمرا يكر على الرجال بكوكب

يعنى السنان :

وقال ابن المعتز :

٢٧١ - وتراه يصغى فى القناة بكفه نجما ونجما فى القناة يجره(٣)

ومثله سواء قوله(٤) :

٢٧٢ - كأنما الحربة فى كفه نجم دجى شيعه البدر

ثم قد شبهوا الكواكب بالسنان كقول الصنوبرى :

٢٧٣ - بشر بالصبح كوكب الصبح فاض وجنح الدجى كلا جنح
فهو على الفجر كالسنان هوى للعين كما هوى على رمح

(١) تأشب الشجر : التف .

(٢) أى ليلى الأخيلية الشاعرة توفيت عام ٨٠ هـ .

(٣) يصغى الشيء إصغاء : يميله. النجم الأول : السنان ، والنجم الثانى: الزج وهما لقناة واحدة فإذا أصغى المقاتل القناة فقد أمال السنان وجر الزج، وراجع البيت فى ديوان ابن المعتز ١ : ١١٦ طبعة بيروت .

(٤) أى ابن المعتز .

ابن المعتز :

٢٤٧ ـ شربتها والديك لما ينتبه   سكران من نومته طافح(١)
ولاحت الشعرى(٢) وجوزاؤها   كمثل زج(٣) ، جره رامح

وهذه ـ إن أردت الحق ـ قضية قد سبقت وقدمت ، فقد قالوا السماك الرامح ، على معنى أن كوكبا يتقدمه وهو رمحه ؟ ولا شك أن جل الغرض فى جعل ذلك الكوكب رمحا أن يقدروه سناناً ، فالرمح رمح بالسنان ، وإذا لم يكن السنان فهو قناة ، ولذلك قال (٤) :

١٧٥ ـ ورمحا طويل القناة عسولا

ومن ذلك أن الدموع تشبه إذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر على ما يشبه الخدود من الرياحين ، كقول الناشىء :

٢٧٦ ـ بكت للفراق وقد راعها   بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها   بقية طل على جلنار(٥)

وشبيه به قول ابن الرومى :

٢٧٧ ـ لو كنت يوم الوداع حاضرنا   وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا الدموع ساكبة   تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع ندى   يقطر من نرجس على ورد

ثم يعكس كقول البحترى :

٢٧٨ ـ شقائق يحملن الندى فكأنه   دموع التصابى فى خدود الخرائد

ومثله قول ابن المعتز بعد قوله فى النرجس :

---

(١) أى ممتلىء بالشراب .   (٢) كوكب يطلع بعد الجوزاء .
(٣) هو أسفل الرمح   (٤) عبدالقيس البرجمى عسول : شديد الاهتزاز
(٥) الجلنار : زهر الرمان فارسى معرب .

٢٧٩ - كأن عيون النرجس الغض حولها
مداهن در حشوهن عقيق
إذا بلهن القطر خلت دموعها بكاء عيون كحلهن خلوق(١)

وفى فن آخر منه خارج عن جنس ما مضى يشبه الشيخ إذا أفناه الهرم وحناه القدم حتى يدخل رأسه فى منكبيه بالفرخ كما قال (٢):

٢٨٠ - ثلاث مئين قد مضين كواملا
وها أنا هــذا أرتجى مر أربع
وأصبحت مثل الفرخ فى العين ثاويا إذا رام تطيارا يقال له : قع

وهو كثير ثم يعكس فيشبه الفرخ بالشيخ ، كما قال أبو نواس يرثى خلفاً الأحمر (٣) :

٢٨١ - لو كان حى وائلا من التلف
لوألت شغواء فى أعلى شغف
أم فريخ أحرزته فى لجف مزغب الألغاد لم يأكل بكف (٤)
كأنه مستقعد من الخرف (٥)

---

(١) الخلوق : طيب يضرب إلى الصفرة أهم أجزائه الزعفران .
(٢) هو كعب بن حممة الدوسى الجاهلى وكان من المعمرين .
(٣) من أئمة الرواة والنقاد توفى عام ١٨١ هـ .
(٤) وأل : نجا . الشغواء : العقاب . الشغف : رأس الجبل . اللجف : كل ما أشرف على الغاير من صخر أو غيره . مزغب : الذى نبت زغبه : الألغاد جمع لغد لحمة فى الحلق والمراد ظاهر الحلق .
(٥) ليس فى اللغة مستقعد فهو محرف عن مقعندد .

وأعاده(١) فى قصيدة أخرى فى مرثيته أيضاً :

٢٨٢ — لا تئل العصم فى الهضاب ولا
شغواء تغـــذو فرخين فى لجف
تحنو بجؤشوشها على ضرم كقعدة المنحنى من الحرف(٢)

ويشبه الظليم ى حركة جناحيه مع إرسال لهما ، بالخباء المقوض ، أنشد أبو العباس(٣) لعلقمة(٤) :

٢٨٣ — صعل كأن جناحيه وجؤجؤه
بيت أطافت به خرقاء مهجـــوم

إشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء ليكون أجود لتفاوت حركاته وخروج إضطرابه عن الوزن . وقال ذو الرمة :

٢٨٤ — وبيض رفعنا بالضحى عن متونها
سمـــاوة جون كالخباء المقوض
هجوم عليها نفسه غير أنه متى يرم فى عينيه بالشبح ينهض(٥)

قالوا فى تفسيره يعنى بالبيض بيض النعام ، « ورفعنا » أى أثرنا عن

---

(١) أى أبو نواس .

(٢) اللجف بالجيم ، والعصم : جمع أعصم وهو الوعل فى ذراعيه أو إحداهما بياض . والجؤشوش الصدر . والضرم ككتف : فرخ العقاب.

(٣) أى المبرد أو ثعلب .

(٤) هو علقمة بن عبدة الفحل فى وصف ناقته وتشبيهها بالظليم . والصعل: الصغير الرأس ، والخرقاء : التى لا تحسن شيئاً فهى تفسد ما عرضت له، والمراد بها هنا الريح الهوجاء .

(٥) الشبح محركا ويسكن : الشخص.

ظهورها ، و « سماوة جون » أى شخص نعام جون وسماوة الشيء شخصه ، والجون الأسود ههنا، لأنه قابل بين البياض والسواد . ثم شبه النعام في حال إثارته عن البيض بالخباء المقوض وهو الذي نزعت أطنابه للتحويل، والبيت الثاني من أبيات الكتاب(١) أنشده شاهداً على إعمال فعول عمل الفعل ، وذلك قوله « هجوم عليها نفسه » فنفسه منصوب بهجوم على أنه من هجم متعدياً نحو هجم عليها نفسه أى طرحها عليها كأنه أراد أن يصف الظليم في خوفه بأمرين متضادين بأن يبالغ في الانكباب على البيض فعل من شأنه اللزوم والثبات وأن يثيره عنها الشيء اليسير نحو أن يقع بصره على الشخص من بعد ، فعل من كان مستوفزاً في مكانه غير مطمئن ولا موطن نفسه على السكون ، وقوله : « يرم في عينيه بالشبح » كلام ليس لحسنه نهاية(٢) .

وقد قال ابن المعتز ، فعكس هذا التشبيه ، فشبه حركة الخباء بالطائر ، إلا أنه راعى أن يكون هناك صفة مخصوصة ، فشرط في الطائر أن يكون مقصوصاً ، وذلك قوله :

٢٨٦ — ورفعنا خباءنا تضرب الريح حشاه كالجاذف(٣) المقصوص

وأخرجه إلى هذا الشرط أنه أراد حركة خباء ثابت غير مقوض إلا أن الريح تقع في جوفه فتحرك في جانبيه على توال كما يفعل المقصوص إذا جذف وذلك أن يرد جناحيه إلى خلفة فيتحرك جانباه ، فحصل له أمران : أحدهما أن الموفور الجناح يبسط جناحيه في الأكثر ، وذلك إذا صف في طيرانه فلا يدوم ضربه بجناحيه ، والمقصوص لقصوره عن البسط يديم ضربهما . والثاني : تحريك الجناحين إلى خلف .

---

(١) لسيبويه (١ ٦٠ه كتاب سيبويه) .
(٢) وهو استعارة تمثيلية .
(٣) جذف الطائر من باب ضرب : أسرع .

وهذا كثير جداً وتتبعه فى كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة ، وإنما يمتنع هذا القلب فى طرق التشبيه لسبب يعرض فى البين ، فيمنع منه ، ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبه أحدهما بالآخر .

فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله تشبه ، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

بيان هذا أن ههنا أشياء هى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك فإذا شبهت شيئاً بها كان طلب العكس فى ذلك عكساً لما يوجبه الفهم ونقصاً للعادة لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة ، فأنت إذا قلت فى شىء : هو كخافية الغراب فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يعهد فى جنسه وأن تصحح زيادة هى مجهولة ، وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب فى السواد فليت شعرى ما الذى تريد من قياسه على غيره فيه :

ولهذا المعنى ضعف بيت البحترى :

٢٨٦ — باب قنسرين والليـــل لاطخ
جوانبـــه من ظلمـة بمـداد(١)

وذلك أن المداد ليس من الأشياء التى لا مزيد عليها فى السواد ، كيف

---

(١) نقده ابن العميد وقال : إنه تشبيه غير رائع ولا بارع (٦ رسالة الصاحب فى المتنبى) ، وقنسرين : كورة بالشام قرب حلب وهى مدن بلاد الشام .

ورب مداد فاقد اللون ، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلا ، ألا ترى إلى ابن الرومى حيث قال :

٢٨٧ — حبر أبي حفص لعاب الليل يسيل للاخوان أى سيل

مبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل وكأن البحترى نظر إلى قول العامة فى الشيء الأسود هو كالنقس(١) ثم تركه للقافية إلى المداد .

فإن قلت : فينبغى على هذا ألا يجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس لأجل أن الصبح بالوصف الذى لأجله شبه الغرة به أخص ، وهو فيه أظهر وأبلغ ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافية الغراب والقار وبين ما يشبه بينهما .

فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن تشبيه غرة الفرس بالصبح حيث ذكرت لم يقع من جهة المبالغة فى وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ ، وإنما قصد أمر آخر وهو وقوع منير فى مظلم ، وحصول بياض فى سواد ، ثم البياض صغير قليل بالإضافة إلى السواد ، وأنت تجد هذا التشبيه على هذا الحد فى الأصل ، فإذا عكست فقلت كأن الصبح عند ظهور أوله فى الليل غرة فى فرس أدهم لم تقع فى مناقضة ، كما أنك لو شبهت الصبح فى الظلام بعلم بياض على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب ، وعلى نحو من ذلك قول ابن المعتز :

٢٨٨ — تخلت الدجى والفجر قد مد خيطه
رداء موشى بالكواكب معلما

فالعلم(٢) فى هذا الرداء هو الفجر بلا شبهة

---

(١) أى الحبر ـ مداد القلم .

(٢) العلم : رسم الثوب ورقمه .

وله(١) وهو صريح ما أردت :

٢٨٩ — والليل كالحلة السوداء لاح به
من الصباح طراز(٢) غير مرقوم

وإن كان التفاوت فى المقدار بين الصبح والطراز فى الامتداد والانبساط شديداً . وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة وبالدينار الخارج من السكة (٣) كما قال ابن المعتز :

٢٩٠ — وكأن الشمس المنيرة دينا ر جلته حدائد الضراب

حسن مقبول وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو الجرم لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والائتلاق ، وإنما قصدت إلى مستدير يتلألأ ويلمع ، ثم خصوص فى جنس اللون يوجد فى المرآة المجلوة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد فى الشمس ، فأما مقدار النور وأنه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، والجرم أعظيم هو أم صغير ؟ فلم تتعرض له ، ويستقيم لك العكس فى هذا كله نحو أن تشبه المرآة بالشمس وكذلك لو قلت فى الدينار : كأنه شمس ، أو قلت : كأن الدنانير المنثورة شموس صغار ، لم تتعد(٤) .

وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء . والقصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد ، واقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون ، أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع

(١) أى لابن المعتز أيضاً .
(٢) الطراز علم الثوب .
(٣) هى الحديدة المنقوشة التى تطبع بها النقود .
(٤) أى لم تتجاوز الصواب ، أو أن صحتها لم تبعد .

على حد ، ويوجد هو أو قريب منه فى الأصل ، فإن العكس يستقيم فى التشبيه ، ومتى أريد شىء من ذلك لم يستقم .

وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم فى الشىء هو قاصر عن نظيره فى الصفة أنه زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها فيصح على موجب دعواه وسَرَفِهِ إلى أن يجعل الفرع أصلا ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الامر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب(١) .

٢٩١ — وبدا الصبح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلا .

واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم : لا يدرى أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه ، أو نور الشمع مسروق من جبينه ، وما جرى فى هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة ، فإن فى الطريقة الأولى خلابة وشيئاً من السحر ، وهو أنه كان يستكثر(٢) للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد فى طلب تشبيه يفهم به أمره ، وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاءها . لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه

(١) شاعر عباسى اتصل بالمأمون ومدحه طويلا ، وكان يمدح آل البيت ، وكان مؤدب الفتح بن خاقان وزير المتوكل . والبيت من قصيدة له فى مدح المأمون .

(٢) لأنه لم تجر العادة بهذا التشبيه .

وتزجى الخبر عن أمر مسلم لاحاجة فيه إلى دعوى . ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل : « لم » و « من أين لك ذلك ؟ . والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها .

وفى هذا الموضع شبه بالنكتة التى ذكرتها فى التجنيس لأنك فى الموضعين تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك ، من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك(١) وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم .

ولطيفة أخرى ، وهى أن من شأن المدح إذا ورد على العاقل أن يقفه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما : معرفة حق المادح على ما استشهد له من تزيينه وقصده من تفخيم شأنه فى عيون الناس بالإصغاء إليه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعه عنده ، وملك النفس حتى لا يقابلها(٢) السرور عليه ويخرج بها إلى العجب المذموم وإلى أن يقول أنا وفيقع فى صفة الكبر من حيث لا يشعر ، ويظهر عليه من أمارته مايذم لأجله ويحقر ، فما كبر أحد فى نفسه إلا أغان(٣) الكبر عقله ، وفسخ عقده من حله ، وهذا موقف تزل فيه الأقدام بل تخف عنده الحلوم حتى لا يسلم من جزع النفس هناك إلا أفراد الرجال ، وإلا من أدام التوفيق صحبته ، ومن أين ذلك وأنى ؟ فإذا كان المدح على صورة قوله وجه الخليفة حين يمتدح ، خف عنه الشطر من تكاليف هذه الخصلة .

(١) يقال : ضللت البيت والمسجد وأضللت البعير والعبد ، فالظاهر : وضللتك .
(٢) فى نسخ الكتاب : يقيلها .
(٣) أى غطى .

وإذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلا والأصل فرعاً فى التشبيه الصريح، فارجع إلى التمثيل وانظر هل تجىء فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة، ثم تأمل ما حمل من التمثيل عليها كيف حكمه وهل هو مساو لما رأيت فى التشبيه الصريح، وحاذ حذوه على التحقيق؟ أم الحال على خلاف ذلك؟ والمثال فيما جاء من التمثيل مردوداً فيه الفرع إلى موضع الأصل والأصل إلى محل الفرع قوله(١):

٢٩٢ — وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع

وذلك أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلى، وكذلك تشبيه خلافها من البدعة والضلالة بالظلمة، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن كما يفعل فيما مضى من المشاهدات، إلا أنا نعلم أنه لا يجرى مجرى قولنا كأن النجوم مصابيح تارة، وكأن المصابيح نجوم أخرى، ولا يجرى مجرى قولك: كأن السيوف برق تنعق، وكأن البروق سيوف تسل من أغمادها فتبرق، ونظائر ذلك فيما مضى، وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة وتجده العين فى الموضعين وليس هو فى هذا مشاهداً محسوساً وفى الآخر معقولا متصوراً بالقلب ممتنعاً فيه الإحساس، فأنت تجد فى السيوف لماناً على هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة تجده بعينه أو قريباً منه فى البروق، وكذلك تجد فى المداهن من الدر حشوهن عقيق من الشكل واللون والصورة ما تجده فى النرجس، حتى يتصور أن يشتبه الحال فى الشىء من ذلك، فيظن أن أحدهما الآخر؛ فلو أن رجلا رأى من بعيد بريق سيوف تنقضى من الغمود لم يبعد أن يغلط فيحسب أن بروقا انعقت وما لم يقع فيه الغلط كان حاله قريبا مما يجوز وقوع الغلط فيه، ومحال أن يكون الأمر كذلك فى التمثيل، لأن السنن ليست بشىء يتراءى فى العين، فيشتبه بالنجوم، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم،

(١) أى التنوخى القاضى.

وإنما يقصد بالتشبيه في هذا الضرب ما تقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى فلما كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهل تجعل صاحبها في حكم من يمشي في الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق ولا يفصل الشيء من غيره حتى يتردى في مهواة ويعثر على عدو قاتل وآفة المهلكة، لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة .. ولزم عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة وكل ما هو علم بالنور .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لا تجيء في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح ، وأنها إذا سلكت فيه كان مبنيا على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجا ظاهرا ويبعد عنه بعداً شديداً ، فالتأويل في البيت أنه لما شاع وتعورف وشهر وصف السنة ونحوها بالبياض والإشراق ، والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبي ﷺ : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » وقيل هذه حجة بيضاء ، وقيل للشبهة وكل ما ليس بحق إنه مظلم ، وقيل : سواد الكفر وظلمة الجهل ، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التي لها إشراق ونور وابيضاض في العين ، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن لها فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب أو بالأنوار واتلاقها بين النبات الشديد الخضرة ، فهذا هنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » في بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر ، إلا أن التأويل هناك أنه جعل في وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد ، والتأويل ههنا أنه خيل ما ليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك .

ومن هذا الباب قول الآخر :

٢٩٣ — ولقد ذكرتك والزمان كأنه   يوم النوى وفؤاد من لم يعشق(١)

---

(١) البيت لأبي طالب الرقي — ويروى بدل « والزمان » : والظلام .

لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال : اسود النهار في عيني وأظلمت الدنيا على ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فشبه به ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرفا وإتماما للصفة ، وذلك أن الغزل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق والقلب القاسي يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا في الكدرة والسواد فقاس عليه ، وعلى ذلك قول العامة : ليل كقلب المنافق أو الكافر إلا أنّ في هذا شوبا من الحقيقة من حيث يتصور في القلب أصل السواد ثم يدعى الإفراط ولا يدعى في البدعة نمس السواد لأنها ليس مما يتلون ، لأن اللون من صفات الجسم ، فالذي يساويه في الشبه المساواة الثابتة قولهم : أظلم من الكفر ـ كما قال ابن العميد في كتاب يداعب فيه ويظهر التظلم من هلال الصوم ويدعو على القمر فقال : « وأرغب إلى الله تعالى في أن يقرب على القمر دوره » وينقص مسافة فلكه » ثم قال بعد فصـــل « ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله أخفى من السحر وأظلم من الكفر » .

وإن تأولت في قوله : « سنن لاح بينهن ابتداع » أنه أراد معنى قولهم: إن سواد الظلام يزيد النجوم حسنا وبهاء كان له مذهب . وذلك أنه لما كان وقوف العاقل ، على بطلان الباطل ، واطلاعه على عوار البدعة ، وخرقه الستر عن فضيحة الشبهة ، يزيد الحق نبلا في نفسه ، وحسنا في مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للشاهد المبصر هناك ، إلا أنه على ذلك لا يخرج من أن يكون خارجا عن الظاهر لأن الظاهر أن يمثل المعقول في ذلك بالمحسوس كما فعل البحتري في قوله :

٢٩٤ـ وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار (١) من المجد خيب
وحسن دراري النجوم بأن ترى طوالع في داج من الليل غيهب

---

(١) أصفار صفة لمحذوف أي خلائق أناس أصفار ، أي خالين .

فيك مع هذا الوجه حاجة إلى مثل ما مضى من تنزيل السنة والبدعة منزلة ما يقبل اللون ويكون له فى رأى العين منظر المشرق المتبسم، والأسود الأقتم، حتى يراد أن لون هذا يزيد فى بريق ذاك وبهائه، وحسنه وجماله، وفى القطعة التى هذا البيت منها غيرها(١) مما مذهبه المذهب الأول، وهو :

٢٩٥ - رب ليل قطعته بصدود وفراق ما كان فيه وداع
موحش كالثقيل تقذى به العيـ ن وتأبى حـديثه الأسماع(٢)

وكأن النجوم . . . البيت، وبعده :

٢٩٦ - مشرقات كأنهن حجاج يقطع الخصم والظلام انقطاع

ومما حقه أن يعد فى هذا الباب قول القائل(٣) :

٢٩٧ - كأن انتضاء البدر من تحت غيمة
نجاء من البأساء بعد وقوع

وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذى ينحسر عنه الغمام والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لا من طريق الحس.

وأوضح منه فى هذا قول ابن طباطبا(٤) :

٢٩٨ - صحو وغيم وضياء وظـلم مثل سرور شابه عارض غم

ومن حد ما يقع فى هذا الباب قول التنوخى فى قطعة وهى قوله :

٢٩٩ - أما ترى البرد قد وافت عساكره
وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا

---

(١) أى غير هذه الأبيات .
(٢) البيتان للقاضى التنوخى .
(٣) وهو ابن طباطبا العلوى (المتوفى عام ٣٢٢ هـ) .
(٤) العلوى الأصفهانى (٣٢٢ هـ) - صاحب كتاب « عيار الشعر » .

فالأرض تحت ضريب الثلج تحسبها ... قد ألبست حبكا أو غشيت ورقا
فانهض بنار إلى فحم كأنهما ... فى العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا ... برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا(١)

المقصود: فانهض بنار إلى فحم، فإنه لما كان يقال فى الحق إنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة، وفى الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين لهما ابيضاض واسوداد، وإنارة وإظلام فشبه النار والفحم بهما.

ومن هذا الباب قول ابن بابك:

٣٠٠ — وأرض كأخلاق الكريم قطعتها
وقد كحل الليل السماك فأبصرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التى هى سعة حقيقة وأخلاق الكريم.

ومثله قول أبى طالب المأمونى(٢):

٣٠١ — وفلا كآمال يضيق بها الفتى ... لا تصدق الأوهام فيها قيلا
أقريتها بشملة تقرى الفلا ... عنقا(٣) وتقريها الفلاة نحولا

قاس الفلا فى السعة وهى حقيقة فيها على الآمال وهى إذا وصفت بالسعة

(١) الحبك: الدروع، والضريب هنا بمعنى المضروب أى المقيم الثابت أى أنها تحت الثلج الثابت كأنها دروع فى التبلور واللمعان، وفى القاموس: الضريب: الثلج.

(٢) من نسل المأمون العباسى توفى عام ٣٨٣ هـ.

(٣) الشملة بكسر الشين والميم وتشديد اللام: الناقة السريعة. والإقراء: طلب القرى والضيافة وقرى الضيف قرى، وقراه تقرية: ضيفه، وقرى البلاد طافها. والعنق: سير فسيح واسع للابل والدواب وهو اسم من أعنق.

كان مجازا بلا شبهة ، ولكن لما كان يقال : آمال طوال وآمال لا نهاية لها واتسعت آماله وأشباه ذلك صارت هذه الأوصاف كأنها موجودة فيها من طريق الحس والعيان .

وعلى ذكر الأمل فمن لطيف ما جاء فى التشبيه به على هذا الحد ، وإن لم يكن فى معنى السعة والامتداد ، ولكن فى الظلمة والاسوداد ، قول ابن طباطبا(١) :

٣٠٢ — رب ليل كأنه أملى فيـ ـك وقد رحت عنك بالحرمان
جبته والنجوم تنعس فى الأفـ ـق وتطرفن كالعيون الروانى
هاربا من ظلام فعلك بى نحـ ـو ضياء الفتى الأغر الهجان

لما كان يقال فى الأمر لا يرجى له نجاح : قد أظلم علينا هذا الأمر وهذا أمر فيه ظلمة ، ثم أراد أن يبالغ فى التباس وجه النجح عليه فى أمله تخيل كأن أمله شخص شديد السواد يقاس ليله به كأنه يقول : تفكرت فيما أعلمه من الأشياء السود فرأيت صورة أملى فيك زائدة على جميعها فى شدة السواد فجعلته قياساً فى ظلمة ليلى الذى جبته .

ومن الباب وهو حسن قول ابن المعتز :

٣٠٣ — لا تخلطوا الدوشاب فى قدح بصفاء ماء طيب البرد
لا تجمعوا بالله ويحكم حافظ الوعيد ورقة الوعد

---

(١) جبته : قطعته . وطرفت العين : تحركت . الهجان : الكريم من كل شيء .

(٢) الدوشاب : نبيذ التمر معرب أو الأسود الغليظ منه ، وقال السمعانى : إنه الدبس .

لما كان يقال : أغلظ له القول ، ويوصف الجافى وكل من أساء وقال ما يكره بالغلظ ، ويوصف كلام المحسن ومن يعمد إلى الجميل باللطافة — جعل الوعيد والوعد أصلا فى الصفتين وقاس عليهما .

فأما قول الآخر :

٣٠٤ — شربت على سلامة أفتكين شراباً صفوه صفو اليقين(١)

فهو على الحقيقة لا يدخل فى تشبيه الحقيقة بالمجاز لأن الصفاء خلوص الشىء وخلوه من شىء يغيره عن صفته ، إلا أنه من حيث يقع فى الأكثر لما له بريق وبصيص كان كأنه حقيقة فى المحسوسات ومجاز فى المعقولات . وأما قولهم : هواء أرق من تشاكى الأحباب ، فمن الباب ، لأن الرقة فى الهواء حقيقة ، وفى التشاكى مجاز .

وهكذا قول أبى نواس فى خلاعته :

٣٠٥ — « حتى هى فى رقة دينى(٢) »

لأن الرقة من صفات الأجسام فهى فى الدين مجاز .

ومما كأنه(٣) يدخل فى هذا الجنس قول المتنبى :

٣٠٦ — يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس .

---

(١) أفتكين مولى لمعز الدولة ومن ولاته وقواده . هزم فى معركة مع جيوش الفاطميين فى الشام ، وأسر فى مصر حيث مات عام ٣٧٢ هـ .

(٢) عتقت فى الدن حتى هى فى رقة دينى

(٣) عبر بكأنه لأن التشبيه فيه ضمنى غير صريح .

ومما هو حسن جميل من هذا الباب قول الصاحب كتب به إلى القاضي أبي الحسن(١) روى عن القاضي أنه قال : انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد فجاءني رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

٣٠٧ — يأيها القاضي الذي نفسي له ‏ مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه ‏ فكأنما أهدى له أخلاقه

وكون هذا التشبيه مما نحن فيه من الترجيح أوضح ما يكون فليس يخفى أن العادة أن يشبه الثناء بالعطر ونحوه ويشتق منه وقد عكس كما ترى وذلك على ادعاء أن ثناءه أحق بصفة العطر وطيبه من العطر وأخص به وأنه قد صار أصلا حتى قيس نوع من العطر عليه فقد بولغ في صفته بالطيب ، وجعل له في الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب .

وإذا قد عرفت الطريقة في جعل الفرع أصلا في التمثيل ، فارجع وقابل بينه وبين التشبيه الظاهر ، تعلم أن حاله في الحقيقة مخالفة لتلك الحال ثم ، وذلك أنك لا تحتاج في تشبيه البروق بالسيوف والسيوف بالبروق إلى تأويل ، ثم من أن العين تؤدي إليك من حيث الشكل واللون وكيفية اللمعان صورة خاصة تجدها في كل واحد من الشيئين على الحقيقة ، ولا يمكننا أن نقول إن الثريا شبهت باللجام المفضض وبعنقود الكرم المنور وبالوشاح المفصل لتأويل كذا ، بل ليس بأكثر من أن أنجم الثريا لونها لون الفضة ثم إن أجرامها في الصغر قريبة من تلك الأطراف المركبة على سيور اللجام ، ثم إنها في الاجتماع والافتراق على مقدار قريب من مواقع تلك الأطراف ، وكذا القول في العنقود فإن تلك الأنوار مشاكلة في البياض وفي أنها ليست

---

(١) الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة » المتوفى عام ٣٩٢ .

متضامة تضام التلاصق ولا هى شديدة التباين حتى يبعد الفصل بين بعضها وبعض ، بل مقاديرها فى القرب والبعد على صفة قريبة مما يترامى فى العين من مواقع تلك الأنجم . وإذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ما تصف من ذاك لم يكن تشبيه اللجام المفضض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به . والحكم على أحدهما بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد المتكلم فما بدأ به فى الذكر فقد جعله فرعاً وجعل الآخر أصلا ، وليس كذلك قولنا : له خلق كالمسك . وهو فى دنوه بعطائه ، وبعده بعزه وعلائه ، كالبدر فى ارتفاعه ، مع نزول شعاعه ، لأن كون الخلق فرعاً والمسك أصلا أمر واجب حيث كان المعلوم من طريق الإحساس والعيان متقدماً على المعلوم من طريق الروية وهاجس الفكر .

وحكم هذا فى أن الفرع لا يخرج عن كونه فرعاً على الحقيقة حكم ما طريق التشبيه فيه المبالغة من المشاهدات والمحسوسات كقولك : هو كحلك (١) الغراب فى السواد لما هو دونه فيه ، وقولك فى الشىء من الفواكه مثلا : هو كالعسل ، فكما لا يصح أن يعكس فيشبه حلك الغراب بما هو دونه فى السواد، والعسل بما لا يساويه فى صدق الحلاوة كذلك لا يصح أن تقول : هذا مسك كخلق فلان ، إلا على ما قدمت من التخييل ؛ ألا ترى أنه كلام لا يقوله إلا من يريد مدح المذكور ، فأما أن يكون القصد بيان حال المسك على حد قصدك أن تبين حال الشىء المشبه بحلك الغراب فى السواد والمشبه بالعسل فى الحلاوة فما لا يكون ، كيف ولولا سبق المعرفة من طريق الحس بحال المسك ثم جريان العرف بما جرى من تشبيه الأخلاق به واستعارة الطيب لها منه لم يتصور هذا الذى تريد تخييله من أنا نبالغ فى وصف

---

(١) حلك الغراب بالتحريك : حنكه ، وقيل سواده .

المسك بالطيب تشبيهاً بخلق الممدوح ، وعلى ذلك قولهم : كأنما سرق المسك عرفه من خلقك ، والعسل حلاوته من لفظك ، هو مبنى على العرف السابق من تشبيه الخلق بالمسك واللفظ بالعسل ، ولو لم يتقدم ذلك ولم يتعارف ولم يستقر فى العادات لم يعقل لهذا النحو من الكلام معنى ، لأن كل مبالغة و مجاز فلابد من أن يكون له استناد إلى حقيقة .

وإذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين التشبيه الصريح الواقع فى العيان وما يدركه الحس وبين التمثيل الذى هو تشبيه من طريق العقل والمقاييس(١) التى تجمع بين الشيئين فى حكم تقتضيه الصفة المحسوسة لا فى نفس الصفة كما بينت لك فى أول قول ابتدأته فى الفرق بين التشبيه الصريح وبين التمثيل ، من أنك تشبه اللفظ بالعسل على أنك تجمع بينهما فى حكم توجبه الحلاوة دون الحلاوة نفسها — فهنا لطيفة أخرى تعطيك للتمثيل مثالا من طريق المشاهدة ، وذاك أنك بالتمثيل فى حكم من يرى صورة واحدة إلا أنه يراها تارة فى المرآة وتارة على ظاهر الأمر . وأما فى التشبيه الصريح فإنك ترى صورتين على الحقيقة .

يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام فى القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف فى الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان : قريباً من حيث الجود والإحسان حتى يخطر ببالك ، وتطمح بفكرك ، إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك ، وقرب نوره منك ، وليس كذلك الحال فى الشيئين يشبه أحدهما الآخر

---

(١) معطوفة على التمثيل عطف بيان .

من جهة اللون والصورة والقدر ؛ فإنك لا تفتقر فى معرفة كون(١) النرجس وخرطه(٢) واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه إلى تشبيه بمداهن در حشوهن عقيق ، كيف وهو شىء تعرضه عليك العين وتضعه فى قلبك المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هـذه التى معك ويجتلبها لكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا . وأما فى الأولى فإنك لا تجد فى الفرع نفس ما فى الأصل من الصفة وجنسه(٣) وحقيقته ، ولا يحضرك تمثيل أوصاف الأصل على التعيين والتحقيق وإنما يخيل إليك أنه يحضرك ذلك ، فإنه يعطيك من المداح بدراً ثانيا فصار وزان أن المرآة تخيل إليك أن فيها شخصاً ثانيا صورته صورة ما هى مقابلة له ، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ما كنت تتخيله ، فلا تجد إلى وجوده سبيلا ، ولا تستطيع له تحصيلا ، لا جملة ولا تفصيلا .

---

(١) قد يكون صوابها : لون .
(٢) تفصيله وشكله وحجمه .
(٣) الضمير يرجع إلى ما أو إلى الأصل .

فصــــل

« فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل »

اعلم أن من المقاصد التى تقع العناية بها أن نبين حال الاستعارة مع التمثيل أهى هو على الإطلاق حتى لا فرق بين العبارتين أم حدها غير حده ، إلا أنها تتضمنه وتتصل به ، فيجب أن تفرد جملة من القول فى حالها مع التمثيل .

قد مضى فى الاستعارة (١) أن حدها أن يكون للفظ اللغوى أصل ثم ينقل

---

(١) الاستعارة عرفها الجاحظ بأنها « تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه » . ورجع بعض المثل إليها (١١٦ و ٢٩٢ : ١ البيان) .

وذكرها أرسطو فى خطابته ، فرأى أن الاستعارة أن تجعل الشىء غيره والتشبيه يحكم عليه بأنه كغيره » . وقسمها إلى : استعارة من الضد ، واستعارة من التشبيه ، واستعارة من الاسم وحده . وتكلم على بلاغة الاستعارة والمقام الذى تستعمل فيه ، ورأى أنه يجب أن تكون غير كثيرة التداخل بأن لا تدخل الاستعارة فى استعارة .

وقد أخذ ذلك قدامة فى نقد الشعر فجعل فاحش الاستعارة أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به (١٠٤ نقد الشعر) عما لم يعرف له مجاز (١٠٦ نقد الشعر) . . وأفاض فى شرح ذلك ابن سنان فى سر الفصاحة ، كما رأى أن تؤخذ من جنس مناسب لذلك الجنس محاك له غير بعيد منه ولا خارج عنه ، وذلك ما سار عليه علماء البيان (١٠٥ و١٠٦ نقد الشعر ، ١١٧ الموازنة ، ٣٧ و ٢٢٤ الوساطة ، ٢١٢ أسرار) ، ويقول ابن رشيق : وإنما يستحسنون من الاستعارة القريبة وعلى ذلك مضى جلة العلماء (٢٣٩و ٢٤٠ ج١ العمدة) ، ورأى تكون المعانى التى يستعار من أجلها =

. . . .

= معروفة ، وهذه الدراسة لا نظير لها عند الجاحظ ، وهى دراسة فيلسوف عميق البحث .

وأشار المبرد إلى الاستعارة فى الكامل من غير أن يعرج عليها بالدراسة أو التحديد ، وأشار ابن المدبر إليها إشارة عابرة ، وذكر ثعلب الاستعارة وقال : « وهى أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه » وذكر مثلا كثيرة لها (قواعد الشعر لثعلب) .

والاستعارة هى الباب الأول فى كتاب البديع ، وعرفها ابن المعتز بأنها استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها . وذكر كثيراً من شواهدها ، ومثلا لقبيحها ، وبذلك تنتهى دراسته لهذا الباب الذى نهج فيه منهج أستاذه ثعلب فى قواعد الشعر .

وقد عقد لها أبو هلال باباً تأثر فيه خطا ابن المعتز فى دراسة الاستعارة، وعلى ضوئهما سار ابن رشيق ، وقد ألم بها قدامة فى نقد الشعر ، كما عرض لها صاحب نقد النثر ، مع بعدهما عن اتجاه ابن المعتز فى دراستها ، وقد قسمها قدامة إلى حسن الاستعارة وفاحشها ، وفاحش الاستعارة هى الاستعارة غير المفيدة عند عبد القاهر .

وقدامة يصل فى بحثه فى أسلوب الاستعارة ـ متأثراً بثقافة أرسطو فى دراستها ـ إلى نتيجة جد خطيرة احتذاه فيها كثير من علماء البيان بعده ، وهى أن الاستعارة لا تستجاد فى إغرابها إلا إذا كانت مبنية على التشبيه ، وأن سر جمالها فى قربها ووضوحها وعدم التغلغل فى خفاياها ، فلا يصح أن يدخل فيها بعض الكلام فيما ليس من جنسه ، ولا يصح أن تكون منافرة للعادة ، أو بعيدة عما يستعمل الناس مثله .

وتقريب الشبه فى الاستعارة فكرة سارت من أرسطو إلى قدامة =

. . . .

= إلى الآمدى - ١١٤ موازنة - إلى أبي الحسن الجرجانى - إلى ابن رشيق وسواهم ، ويرى ابن رشيق أن قسما من الاستعارة مخرجه مخرج التشبيه مثل :

ولف الثريا فى ملاءته الفجر (٢٣٩ : ١ العمدة)

وكذلك درس عبدالقاهر هذا الأسلوب ، وحلله تحليلا مفصلا ، فذكر أن :

١ — أسلوب الاستعارة يعتمد التشبيه لأنها نقل الإسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة فهى تعتمد التشبيه والتشبيه كالأصل فى الاستعارة وهى شبيه بالفرع له -٢٢ أسرار- والتشبيه قسمان : صريح مثل زيد كالأسد وغير صريح مثل رأيت أسداً ، ورأى أن أحد أقسام الاستعارة (العنادية) قد لا يتصور فيه التشبيه فتحايل على إرجاعه إلى معنى التشبيه على أنك كلما زدت إرادتك للتشبيه فيها إخفاء ازدادت الاستعارة حسناً ، ثم أكد اعتماد الاستعارة على التشبيه فذكر أنها لا تطلق إلا على ما طريقة نقله التشبيه دون سواه .

٢ — ورأى أن اللفظ لا يستحق الوصف بالاستعارة لمجرد النقل بل لأنه يشار به إلى المعنى من حيث قصد باستعارة الإسم إثبات أخص معانيه للمستعار له ، فالاستعارة طريقها العقل دون اللغة ، والتجوز فيها إنما هو فى المعنى لا اللفظ ، والمستعير لم يستعر إلا بعد أن ادعى للرجل أنه فى معنى الأسد وأنه كأنه هو هو فى قوة قلبه ، ومآل الأمر إلى أن القصد منها المعنى فهى ليست فى نقل الإسم من شيء إلى شيء ، بل فى ادعاء معنى الإسم لشيء ، ولذلك إنما تصرف فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ ، على أن المزية فيها إنما هى فى الإثبات لا فى المثبت ، ومع ذلك فهى من المجاز اللغوى لا العقلى ، ولذلك ناقش رأى من ذهب إلى خلاف ذلك ورده إلى رأى من يرى أن الاستعارة من باب التخييل والتأويل ، وهو فى رده على هذا الرأى ضعيف الحجة .

=

. . . .

= ٣ — وقرر عبد القاهر أن الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل الذى يثبت فيه الشاعر أمراً غير ثابت أصلا ، بل إنما سبيلها سبيل الكلام المحذوف الذى إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ، كما قرر أن الاستعارة كلما عسر الرجوع فيها إلى صريح التشبيه كان أمر التخييل فيها أقوى . . ورأى عبد القاهر أن إنكار أمر التخييل فى الاستعارة ضرب من المحال فأخذ يقرر أنها تعتمد التشبيه على وجه خاص هو المبالغة حتى كأن الثانى انقلب مثلا إلى جنس الأول فصار الرجل أسداً وبحراً وبدراً والعلم نوراً والجهل ظلمة ، وعبد القاهر لايتردد فى أن يرى الاستعارة فى قول لبيد « إذ أصبحت بيد الشمال زمامها » تخييلية لأنها ضرب آخر غير الاستعارة فى رأيت أسداً ، فالثانية نقل الإسم فيها عن مسماه الأصلى إلى شىء آخر ثابت معلوم فأجرى عليه وجعل متناولا له ، والأولى أخذ الإسم عن حقيقته ووضع فيها موضعاً لايبين فيه شىء يشار إليه ، فليس فيها أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المتصرف لما زمامه بيده وأن ذلك كله لا يتعدى التخييل والوهم .

ويذكر عبد القاهر فى موضع آخر رأى من يصف المجاز — وهو يشمل الاستعارة — بغير الصدق — أى بأنه أمر تخييلى لا حقيقة له — وينقده نقداً لاذعاً .

٤ — وقرر عبد القاهر فى مواضع متفرقة نظرية وضوح الاستعارة ، فحتم أن يكون الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل تناوله ويكون فى الحال دليل عليه وفى العرف شاهد له حتى يعرف الغرض فيها ويعلم المراد بها ، وجعل الأصل فى التمييز بين ما يحسن مأخذه على سبيل الاستعارة وما لا يحسن هو ظهور وجه الشبه أو خفاؤه وكلما خفى مكان الشبه بين =

. . . .

= الشيئين وبعد عن العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر فى الاستعمال ، وذلك لأن أسلوب الاستعارة إنما يحسن إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له .

٥ — وقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة ، وفصل سر عدم الفائدة فى الثانية وسر الفائدة فى الأولى ، وبين ماتشتبه فيه المفيدة بغير المفيدة من المثل ، وهو فى هذا التقسيم متأثر بقدامة فى نقد الشعر حين قسمها إلى فاحشة ليس مخرجها التشبيه وأخرى بالعكس ، وهو لا يعد غير المفيدة من الاستعارة إلا متابعة لعلماء البيان قبله . وتكلم على المفيدة وسحرها وخطرها فى البيان ، وقسمها إلى تحقيقية وتخييلية ، وإلى استعارة يوجد فيها الجامع فى الطرفين وهما من جنس واحد أو من جنسين مختلفين ، وإلى استعارة جامعها عقلى وطرفاها حسى وعقلى أو حسيان أو عقليان وعبدالقاهر فى هذا التقسيم متأثر بأرسطو فى تقسيمه لها إلى استعارة من التشبيه وأخرى من الضد (عنادية) ، ثم يقرر عبد القاهر الفروق بين الاستعارة والتمثيل ، وبينها وبين التشبيه البليغ ، ويقرر أن التجريد ليس من أمر التشبيه فى شىء حتى يظن أنه استعارة .

ومن الغريب أن يكون فحوى كلام عبد القاهر فى الدلائل أن التجريد فى مثل لئن لقيت زيداً لتلقين به الأسد يرجع إلى التشبيه .

ويذكر عبد القاهر المجاز اللغوى المفرد وأن الاستعارة قسم من أقسامه فكل استعارة مجاز ، ويفرق بين نوعى المجاز (الاستعارة والمجاز المرسل) ويرى أن التمثيل من المجاز إذا جاء على حد الاستعارة ، ويذكر الاستعارة التمثيلية ، ثم تكلم على درجاتها فى العامية والخاصية .

وذلك كله هو ما كتبه عبد القاهر عن الاستعارة ، وسنعقبه بعد قليل

. . . .

بالتحليل والنقد . . ولا داعى لأن نبسط رأى السكاكى ومدرسته فى الاستعارة فهى صورة مقتبسة من آراء عبد القاهر فيها مع فرق ضئيل .

آراء لبعض العلماء :

وصاحب المثل السائر يجعل الكلام ثلاثة أقسام : توسع فى الكلام واستعارة وتشبيه .

وقسم التشبيه إلى مظهر الأداء مثل زيد كالأسد ومضمر الأداة مثل زيد الأسد ، وفرق بين التشبيه المضمر الأداة والاستعارة بأنه يحسن فيه إظهار الأداة بعكس الاستعارة . فتقدير الأداة فيهما لابد منه ، وإن كان يحسن إظهار الأداة فى التشبيه دون الاستعارة (١٣٩ المثل السائر) .

ويذكر ابن الأثير أن الاستعارة لا تجىء إلا ملائمة مناسبة ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد (١٤ المثل السائر) .

والتشبيه المحذوف ـ وهو ما ذكر فيه المشبه به دون المشبه ـ يسمى عنده استعارة .

فابن الأثير يرى أن الاستعارة مبنية على التشبيه ، ويحتم فيها أن تكون ملائمة مناسبة .. ومن ذلك لا نرى فيما كتبه عنها جديداً من القول . فإن رأيه فيها صورة لما كتبه علماء البيان قبله .

وذكر الاستعارة الجرجانى م ٣٩٢هـ فى الوساطة ، وابن سنان م٤٦٦هـ فى سر الفصاحة .

ولقد جهد علماء البيان منذ نشأة البحث البيانى فى أسلوب الاستعارة إلى تصوير ألوانها وبيان مظاهرها وتحليل أساليبها باعتبار طرفيها أو قرينتها أو الوصف الجامع فيها وباعتبار خاصيتها أو عاميتها وحسيتها أو عقليتها =

عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم . وهذا الحد لا يجيء في الذى تقدم في معنى التمثيل الذى تقدم من أنه الأصل في كونه مثلا وتمثيلا ، هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور . والذى لا يحصله لك إلا جملة(١) من الكلام أو أكثر ، لأنك قد تجد الألفاظ في الجمل التى يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها في اللغة .

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح إطلاقها في كل شيء يقال فيه إنه تمثيل ومثل . والقول فيها بأنها دلالة على حكم يثبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوى وإجراؤه على مالم يوضع له . ثم إن هذا النقل يكون في الغالب من أجل شبه بين مانقل إليه وما نقل عنه .

وبيان ذلك ما مضى من أنك تقول رأيت أسداً ـ تريد رجلا شبيها به في الشجاعة ، وظبية ـ تريد امرأة شبيهة بالظبية ، فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها ، وكالعلة والسبب في فعلها .

فإن قلت : كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه والتشبيه يكون ولا استعارة ؟ وذلك إذا جئت بحرفه الظاهر فقلت : زيد كالأسد .

= وأصليتها أو تبعيتها وبحسب قوة معانيها الاستعارية وضعفها بكونها مطلقة أو مجردة أو مرشحة ، وباعتبار أنها استعارة مفردة أو استعارة تمثيلية وباعتبار أنها تحقيقية أو تخييلية أو مكنية .

وكثير من هذه البحوث البيانية في الاستعارة لا يمس صميم البيان ، وليس له أثر ما إلا تكثير أقسامها وتعديد صورها العامة وإيجاد خلافات لفظية حولها ، وليس له قيمة في تذوقها البياني والأدبي .

(١) يراد بها خلاف المفرد المطلق .

فالجواب : أن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة فقولى « من أجل التشبيه » أردت من أجل التشبيه على هذا الشرط ، وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها ، ألا أنك تفيد بالإسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعاً شبيها بالأسد وأن شبهه به فى الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه ، حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها .

وإذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال : إن الاستعارة هى الاختصار والإيجاز على الحقيقة ، وإن حقيقتها وحقيقتهما واحدة ، ولكن يقال إن الاختصار والإيجاز يحصلان بها ، أو هما غرضان فيها ، ومن جملة ما دعا إلى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها ، وإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا .

وإذ قد تقرر هذه الجملة فإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له ، من المحسوس والغرائز والطباع وما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال إن فيها تمثيلا وضرب مثل ، وإذا كان الشبه عقليا جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الإسم مثلا لكذا كقولنا : ضرب النور مثلا للقرآن ، والحياة مثلا للعلم فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله فى اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلى إلى مكان آخر لأجل الأغراض التى ذكرنا من التشبيه والمبالغة والاختصار ، والضارب للمثل لا يفعل ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد إلى تقرير الشبه بين الشيئين من الوجه الذى مضى ، ثم إن وقع فى أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجملتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها

فذاك شيء لم يعتمده من جهة المثل الذى هو ضاربه ، وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت : زيد كالأسد ، وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة ، وله رأى كالسيف فى المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه ، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون فى الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعانى وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع الدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلا ، فإذا كانت اسماً كان اسم جنس أو صفة ، فإذا كان اسم جنس فإنك تراه فى أكثر الأحوال التى تنقل فيها محتملا متكفئاً (١) بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذى من شأنه أن ينقل إليه .

فإذا قلت رأيت أسداً ، صلح هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيت واحداً من جنس السبع المعلوم وجاز أن تريد أنك رأيت شجاعا باسلا شديد الجرأة وإنما يفصل لك أحد الغرضين من الآخر شاهد الحال وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد ، وإن كان فعلا أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال فى بعض الأحوال ، وذلك إذا أسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على ما يكون أصلا فى تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعاً فيهما ، نحو أن تقول : أنار لى شيء ، وهذا شيء منير ، فهذا الكلام يحتمل أن يكون « أنار » و « منير » فيه واقعين على الحقيقة بأن يعنى بالشيء بعض الأجسام ذوات النور وأن يكونا واقعين على المجاز بأن تريد بالشيء نوعاً من العلم والرأى وما أشبه ذلك من المعانى التى لا يصح وجود النور فيها حقيقة ،

(١) المتكفىء فى هذا الموضع الصالح للأمرين على السواء أى متساوياً .

وإنما توصف به على سبيل المثال والتشبيه ، وفى الفعل والصفة شىء آخر وهو أنك كأنك تدعى معنى اللفظ المستعار للمستعار له فإذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ، ولذلك تجىء فتضيفه إليه(١) ، كما تضاف المعانى التى يشتق منها الفعل والصفة إلى الفاعل والموصوف فتقول : نور هذه الحجة جلا بصرى وشرح صدرى ، كما تقول : نور الشمس ، والمثل لا يوجب شيئاً من هذه الأحكام فلا هو يقتضى تردد اللفظ بين احتمال شيئين(٢) ولا أن يدعى معناه للشىء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

وإذا قد ثبت هذا الأصلة ، فاعلم أن ههنا أصلا آخر يبنى عليه وهو أن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل ، وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبهاً ومشبهاً له وكذلك التمثيل ، لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلى - فان الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين ، وتطرحه ، وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به ، كما مضى من قولك : رأيت أسداً تريد رجلا شجاعاً ، ووردت بحراً زاخراً تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نوراً تريد علماً ، وما شاكل ذلك ، فاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى ، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث يخيل أن معك نفس الاسد والبحر والنور كى تقوى أمر المشابهة وتشدده ويكون لهاهذا الصنيع حيث يقع الاسم(٣) المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجروراً بحرف الجر أو مضافا إليه : :

فالفاعل كقولك بدا لى أسداً ، وانبرى لى ليث ، وبدا نور ، وظهرت

---

(١) إليها أوضح . (٢) كما فى اللفظ الجامد .
(٣) ضابط هذا أن يكون الاسم أصلا فى الحديث عنه أو كالأصل .

شمس ساطعة ، وفاض لى بالمواهب بحر ، كقوله(١) :

٣٠٨ — وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة
غزال كحيل المقلتين ربيب(٢)

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً ، والمجرور نحو قولك لا عار إن فر من أسد يزأر ، والمضاف إليه كقوله(٣) :

٣٠٩ — يابن الكواكب من أئمة هاشم
والرجح الأحساب والأحلام

وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً أو كان مبتدأ واسم المشبه به واقعاً فى موضع الخبر ، كقولك زيد أسد ، أو على هذا الحد ، وهل يستحق الاسم فى هذه الحالة أن يوصف بوصف الإستعارة أم لا ؟ فيه شبهة وكلام سيأتيك إن شاء الله تعالى .

وإذا قد عرفت هذه الجملة فينبغى أن تعلم أنه ليس كل شىء يجىء مشبهاً به بكاف وبإضافة « مثل » إليه يجوز أن تسلط عليه الإستعارة وتنفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك ، أبديت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأياً ، وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون فى الحال دليل عليه وفى العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الإسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت(٤) .

(١) الأحوص الأنصارى والأموى المعروف .

(٢) وجرة : موضع بين مكة والبصرة مشهورة بالغزلان . ربيب : منعم ، غزال : مبتدأ أو فاعل بالظرف . (٣) أى قول أبى تمام .

(٤) وذلك مأخوذ من قدامة والآمدى والجرجانى صاحب الوساطة .

فكل شيء كان من الضرب الأول(١)، الذى ذكرت أنك تكتفى فيه بإطلاق الإسم ، داخلا عليه حرف التشبيه نحو قولهم : هو كالأسد، فإنك إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة وجدت فى دليل الحال وفى العرف مايبين غرضك ، إذ يعلم إذا قلت رأيت أسداً وأنت تريد الممدوح ـ أنك قصدت وصفه بالشجاعة ، وإذا قلت طلعت شمس ـ وأنت تريد امرأة ـ علم بأنك تريد وصفها بالحسن ، وإن أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما إذا كان من الضرب الثانى الذى لاسبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل فإن الإستعارة لا تدخله لأن وجه الشبه إذا كان غامضا لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ، ينبىء عن الشبه .

فلو حاولت فى قوله : « فإنك كالليل الذى هو مدركى » .

أن تعامل الليل معاملة الأسد فى قولك : رأيت أسداً ـ أعنى أن تسقط ذكر الممدوح من البين ـ لم تجد له مذهبا فى الكلام ولاصادفت طريقة توصلك إليه، لأنك لاتخلو من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول : إن فررت أظلنى الليل ، وهذا محال لأنه ليس فى الليل دليل على النكتة التى قصدها من أنه لايفوته وإن أبعد فى الهرب ،وصار إلى أقصى الأرض ، لسعة ملكه وطول يده، وأن له فى جميع الآفاق عاملا وصاحب جيش ومطيعا لأوامره، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية مايتأتى فى ذلك أنه يريد إن هرب منه أظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار كمن يحصل فى ظلمة الليل ، وهذا شيء خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم لتؤدى به التشبيه الذى قصد فى البيت ولم أرد أنه لاتمكن

(١) وهو ما كان وجه الشبه فيه ظاهرا مثل زيد كالأسد .

استعارته على معنى ما ولا يصلح فى غرض من الأغراض، وإن لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدى إلى تعسف إذ لو قلت : إن فررت منك وجدت ليلا يدركنى وإن ظننت أن المتأى واسع الهرب بعيد — قلت مالا تقبله الطباع ، وسلكت طريقه مجهولة لأن العرف لم يجر بأن تجعل الممدوح ليلا هكذا .

فأما قولهم إن التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فإنه لا يفسح فى أن يجرى اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوهما ، وإنما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ، كما قال ابن طباطبا :

٢١٠ — « بعثت معى قطعا من الليل مظلما »

يعنى زنجيا قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه إلى منزله .

هذا وربما بل كلما وجدت ما إن رمت فيه طريقة الإستعارة لم تجد فيه هذا القدر من التمحل والتكلف أيضاً ، وهو كقول النبى ﷺ : «الناس كإبل مائة لاتجد فيها راحلة » ، قل الآن : من أى جهة تصل إلى الاستعارة هہنا ، وبأى ذريعة تتذرع إليها ؟ هل تقدر أن تقول : رأيت إبلا مائة لاتجد فيها راحلة ، فى معنى رأيت ناساً ، أو الإبل المائة التى لاتجد فيها راحلة ، تريد الناس ؟ كما قلت رأيت أسداً ، على معنى رجلا كالأسد أو « الأسد » على معنى الذى هو كالأسد ؟

وكذا قول النبى ﷺ : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة» لا تستطيع أن تتعاطى الإستعارة فى شىء منه فتقول رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمناً . إن من رام مثل هذا كان كما قال صاحب الكتاب « ملغزاً تاركا الكلام الناس الذى يسبق إلى أفئدتهم » ، وقد قدمت

طرقاً من هـــذا الفصل فيما مضى(١) ولكننى أعدته هنا لاتصاله بما نريد ذكره .

فقد ظهر أنه ليس كل شىء يجىء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به ، وبق أن يتعرف الحكم فى الحالة الأخرى وهى التى يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكورا فيها نحو : زيد أسد ووجدته أسدا . هل تساوق(٢) صريح التشبيه حتى يجوز فى كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثانى وتجعله خبراً عن الأول أو بمنزلة الخبر ؟

والقول فى ذلك أن التشبيه إذا كان صريحا بالكاف و « مثل » كان الأعرف الأشهر فى المشبه به أن يكون معرفة كقولك : هو الأسد وهو كالشمس ، وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم، وما شاكل ذلك، ولا يكاد يجىء نكرة مجيئا يرتضى ، نحو هو كأسد وكبحر وكليث ، إلا أن تخصص بصفة نحو كبحر زاخر ، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالإعراب الذى يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين - التعريف والتنكير - فيه حسنا جميلا ، تقول زيد الأسد والشمس والبدر والبحر ، وزيد أسد وشمس وبدر وبحر .

وإذ قد عرفت هذا فارجع الى نحو :

٣١١ — فإنك كالليل الذى هـــو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(٣)

---

(١) وهو فى الفصل الذى قبل فصل سر بلاغة التمثيل .
(٢) أى تساوى .
(٣) البيت للنابغة الذبيانى .

واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول : فإنك الليل الذى هو مدركى ، أو أنت الليل الذى هو مدركى ، وتقول فى قول النبى ﷺ «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع» المؤمن الخامة من الزرع ، وفى قوله عليه الصلاة والسلام «الناس كإبل مائة» الناس إبل مائة ، ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد (واسئل القرية) ، تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلا .

والنكتة فى الفرق بين هذا الضرب الذى لابد للمجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذى هو نحو زيد كالأسد ، أنك إذا حذفت الكاف هناك فقلت : زيد الأسد فالقصد أن تبالغ فى التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبه أصلا فقلت : رأيت أسداً أو الأسد فأما فى نحو «فإنك كالليل الذى هو مدركى» فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ولكنك تنوى أنك أردت أن تقول : فإنك مثل الليل ثم حذفت المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف ؛ وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً إن الأصل زيد مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغة ، ألا تراهم يقولون جعله الأسد ، وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع إلى وصف فى الليل كالظلمة ونحوها وإنما قصد الحكم الذى له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه .

وإذا أردت أن تزداد علماً بأن الأمر كذلك ، أعنى أن ههنا ما يصلح فيه

التشبيه الظاهر (١) ولا تصلح فيه المبالغة (٢) وجعل الأول الثاني (٣) فاعمد إلى ما تجد الاسم الذي افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده، كقوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية، لو قلت : إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الأرض ، لم يكن للكلام وجه ، غير أن تقدر حذف « مثل » نحو إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت وكيت ، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده وقد أفرد، كما قد يتخيل في البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل في السخط ، وهذا موضع في الجملة مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لا سبيل إلى جحد أنك تجد الاسم في الكثير وقد وضع موضعا في التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه في ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك ، كالنكرة التي هي « ماء » في الآية وفي الآي الأخر نحو قوله تعالى : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) ولو قلت : هم صيب ولا تضمر مثلا ألبتة على حد « هو أسد » لم يجز لأنه لا معنى لجعلهم صيبا في هذا الموضع ، وإن كان لا يمتنع أن يقع صيب في موضع آخر ليس من هذا الغرض في شيء استعارة ومبالغة كقولك : فاض صيب منه تريد جوده ، وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق في الجود — فلسنا نقول : إن هاهنا

(١) الذي هو مثل « زيد كأسد أو كالأسد » ، مما ذكر فيه الطرفان والأداة .

(٢) أي المستفادة من طريق التشبيه البليغ بحمله على معنى المبالغة لا على الحذف .

(٣) أي على الخبرية إن صح النقل فيه إلى أسلوب التشبيه البليغ لا على معنى المبالغة ولكن على معنى الحذف وتقدير لفظ مثل .

اسم جنس واسما صفة لا يصلح للاستعارة في حال من الأحوال(١) .

وهذا شعب من القول يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ويدخل فيه مسائل ولكن استقصاءه يقطع عن الغرض(٢) .

فإن قلت : فلابد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة والمبالغة وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه .

فالجواب : أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع ، ولكن ههنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهي أن الشبه إذا كان وصفا معروفا في الشيء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس أو الاشتهار والظهور وأنها لا تخفى فيها أيضا، وكالطيب في المسك والحلاوة في العسل والمرارة في الصاب والشجاعة في الأسد والفيض في البحر والغيث ، والمضاء والقطع والحدة في السيف، والنفاذ في السنان وسرعة المرور في السهم، وسرعة الحركة في شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم في معانيه — فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف كونها أصولا فيها وأنها أخص ما توجد فيه بها ، فكل

(١) من هذا الكلام يفهم أن عبد القاهر يطلق على أسلوب التشبيه البليغ اسم استعارة اللهم إلا إذا قلنا ، إن العطف في قوله إلى حد الاستعارة والمبالغة ، ليس من عطف المترادفين بل من عطف المتغايرين ، فالاستعارة مثل رأيت أسدا والمبالغة مثل زيد أسد ، وقد يرجح ذلك قوله بعد : ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح .

(٢) وهو الفرق بين التمثيل والاستعارة .

أحد يعلم أن أخص المنيرات بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد ، ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجز أن تدل عليه بالاستعارة . ولكن إن أردتها من الفلك جاز ، فإن قصدتها من الكرة كان أبين لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها ، ومتى صلحت الاستعارة فى شىء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح ، أعنى أنك إذا قلت :

٣١٢ — يابن الكواكب من أئمة هاشم

٣١٣ — و « يابن الليوث الغر » .

فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذى وضع له ، وادعيته له كان قولك : هم الكواكب وهم الليوث ، أوهم كواكب وليوث، أحرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع فى وقوع العلم له به .

واعلم أن المعنى فى المبالغة — وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة — أن المشبه الشىء بالشىء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين و ينفى عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى(١) ماعداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهراً فى الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد ، تناهى فى الدعوى إما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزاً فى القول بجملة بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً ، وإذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد فى حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضع على ذلك السبع إلا للشجاعة التى فيه . وأن ماعداها من صورته وسائر صفاته عيال

---

(١) أى طرح .

عليها وتبع لها فى استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذى يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت فقد جعل الأسد له لا محالة لأن قولنا « هو هو » على معنيين :

أحدهما : أن يكون للشىء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر فإذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فإذا قلت : زيد هو أبو عبدالله عرفت أن هذا الذى تذكر الآن هو الذى عرفه بأبى عبد الله .

والثانى : أن يراد تحقيق التشابه بين الشيئين وتكميله لهما ونفى الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أى لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع إذا اختص أحدهما بصفة لا تكون فى الآخر .

وهذا المعنى الثانى فرع على الأول . وذلك أن المتشابهين التشابه التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرائى لهما فى حالين أنه رأى شيئاً واحداً صاروا إذا حققوا التشبيه بين الشيئين يقولون « هو هو » ، والمشبه إذا وقف وهمه كما عرفتك على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقا ، فقد صار إلى معنى قولنا « هو هو » بلا شبهة .

وإذا تقررت هذه الجملة فقولنا :

٣١٤ — فإنك كالليل الذى هو مدركى

إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فإنك الليل الذى هو مدركى — لزمك لا محالة أن تعمد إلى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التى من أجلها جعلت الرجل الأسد ، فإن قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشة ، كما قال(١) :

---

(١) أى المتنبى .

٣١٥ — أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب(١)

قيل لك : هـذا التقدير إن استجزناه وعملنا عليه فإنا نحتمله والكلام على ظاهره ، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه فى البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجىء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لايواجه بها الممدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلا بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله :

٣١٦ — أنت الصاب والعسل

ولا تقول وأنت مادح : أنت الصاب وتسكت . وحتى إن الحاذق لا يرضى بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتاط فى دفع ما يغشى النفس من الكراهة بإطلاق الصفة التى ليست من الصفات المحبوبة فيصل بالكلام ما يخرج به إلى نوع من المدح ، كقول المتنبى :

٣١٧ — حسن فى وجوه أعدائه أقبح من ضيفه رأته السوام(٢)

بدأ بجعله حسناً على الإطلاق ثم أراد أن يجعله قبيحاً فى عيون أعدائه على العادة فى مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ما سبق من تمهيده وتقدم من احترازه فى تلافى ما يجنيه إطلاق صفة القبح حتى وصل به هذه الزيادة من المدح وهى كراهة سوامه لرؤية أضيافه وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطاً بين سعدين فيبطل فعله ويمحق أثره .

وقد عرفت ماجناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبى تمام ، حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شىء فى بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله

---

(١) عجزه : وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب .

(٢) قد مضى هذا الشاهد من قبل ـ الشاهد ١١٦ .

وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال فى كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ ، واقتصر على صميم التشبيه ، وأطلق اسم الجنس الخسيس ، كإطلاق الشريف النبيه كقوله(١) :

٣١٨ — فإذا ما أردت كنت رشاء وإذا ما أردت كنت قليبا

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال(١) :

٣١٩ — مازال يهذى بالمكارم والعلى حتى ظننـــا أنه محـــوم

فجعله يهذى وجعل عليه الحمى ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة فى إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ، فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافى ، والمدح المتنافى ، فكذلك أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، فى اقتراحك علينا أن نسلك بالليل فى البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

فإن قلت : أفترى أن تأبى هـذا التقدير فى البيت أيضاً حتى يقصر التشبيه على ما تفيده الجملة الجارية فى صلة الذى ؟

قلت : فإن ذلك الوجه فيما أظنه ، فقد جاء فى الخـبر عن النبى ﷺ : « ليدخلن هـذا الدين ما دخل عليه الليل » ، فكما تجرد المعنى للحكم الذى هو الليل من الوصول إلى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه ، كذلك يجوز أن يتجرد فى البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل إلى إدراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده ، وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : إن النهار بمنزلة الليل فى وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما ، فكما أن الكائن فى النهار لا يمكنه أن يصير إلى

---

(١) أى أبو تمام .

مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن فى الليل لا يجد موضعاً لا يلحقه فيه نهار(١) ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قدروى فى نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزاد فى تصرفه بقوله(٢) :

٣٢٠ — نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشـــراق فى كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغة فى تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان . إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصى البلاد ، وانتشارها فى العباد : بالليل ووصوله الى كل بلد ، وبلوغه كل أحد لكان قد أخطأ خطأ فاحشا،الا أن هذا وان كان يجيء مستوياً فى الموازنة ففرق بين ما يكره من الشبه وما يحب ، لأن الصفة المحبوبة اذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريباً مما يناله الغرض نفسه . وأما ما ليس بمحبوب فيحسن أن يعرض عنها صفحاً ويدع الفكر فيها جانباً .

وأما تركه(٣) أن يمثل بالنهار وان كان بمنزلة الليل فيما أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لامحالة ، واذا كان يكلمه وهو فى النهار بعد أن يضرب المثل بإدراك النهار له ، وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر ، وطريانه على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو فى صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكاناً يقيني الطلب منك ، ولكان إدراكك لى وإن بعدت واجباً كإدراك هذا الليل المقبل فى

---

(١) وذلك نقد الأصمعى للبيت (راجع فحولة الشعراء للأصمعى) .

(٢) هو العباس بن الأحنف المتوفى عام ١٩٢هـ وراجع البيت فى الوساطة ص ٢٠٥ .

(٢) هذا رد لنقد الأصمعى .

عقب نهارى هذا إياى ، ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض .

وهنا شىء آخر وهو أن تشبيه النعمة فى البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملابسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلا على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع وجعله أصلا ومقصوداً على الانفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة ، وليس كذلك الحكم فى الليل ، لأن تجريده لوصف الممدوح بالسخط مستكره حتى لو قلت : أنت فى حال السخط ليل وفى الرضى نهار فطفقت هكذا تجعله ليلا بسخطه ، لم يحسن ، وإنما الواجب أن يقول : النهار ليل على من تغضب عليه ، والليل نهار لمن ترضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها ، كما قال :

٣٢١ — أيامنا مقصولة أطرافها   بك والليالى كلها أسحار(١)

وقد يقول الرجل لمحبوبه : أنت ليلى ونهارى . أى بك تضىء الدنيا وتظلم ، فإذا رضيت فدهرى نهار ، وإذا غضبت فليل ، كما تقول : أنت دائى ودوائى وريّى وسقامى ، ولا تكاد تجد أحداً يقول ، أنت ليل ، على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالوصف بالظلمة وسواد الجلد وتجهم الوجه أخص ، وبأن يراد بها أخلق ، وهذا المعنى منها إلى القلب أسبق .. فاعرفه .

---

(١) هو لأبى تمام يمدح أبا سعيد الثغرى وقد قيل لرجل : كيف ليلكم ؟ قال سحر كله (٣ : ٣٧ البيان) .

فصـــــل

اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذى يقتضى كونه مستعاراً ثم لا يكون مستعاراً ، وذلك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ، وليس له شبه ينفرد به ، على ما قدمت لك أن الشبه يجىء منتزعا من مجموع جملة من الكلام .

فمن ذلك قول داود بن على حين خطب فقال :

« شكراً شكراً إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهرا ، ولا لنبنى فيكم قصرا ، أظن عدو الله أن لن نظفر به ؟ أرخى له فى زمامه ، حتى عثر فى فضل خطامه(١) فالآن عاد الأمر فى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره فى أهل بيت نبيكم ، أهل بيت الرأفة والرحمة » .

فقوله : « الآن أخذ القوس باريها » ـ وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة والبارى عن المستحق لها ـ فإنه لا يجوز أن يقال : إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس ، لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد ، وأن يقال « هى قوس » كما يقال « هى نور وشمس » وإنما الشبه مؤلف بحال(٢) الخلافة مع القائم بها من حال القوس مع الذى براها ، وهو أن البارى للقوس أعرف بخيرها وشرها وأهدى إلى توفيرها وتصريفها إذ كان العامل لها ، فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة فى الإقامة والجامع لها ، يكون أهدى إلى توفية الخلافة حقها

---

(١) الخطام ككتاب حبل يوضع فى عنق البعير ويثنى فى خطمه أى أنفه ليقتاد به ، والنزعة بالتحريك : الرماة بالنبل جمع نازع ، وفى المثل صار الأمر إلى النزعة أى قام بإصلاحه أهل الأناة والسياسة .

(٢) أى من حال .

وأعرف بما يحفظ مصارنها عن الخلل ، وأن يراعى فى سياسة الخلق بالأمر والنهى التى هى المقصود منها ترتيباً ووزناً تقع به الأفعال مواقعها من الصواب كما أن العارف بالقوس يراعى فى تسوية جوانبها ، وإقامة وترها ، وكيفية نزعتها(١) ووضع السهم الموضع الخاص منها مايوجب فى سهامه أن تصيب الأغراض وتقرطس(٢) فى الأهداف ، وتقع فى المقاتل ، وتصيب شاكلة الرمى(٣) .

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاماً حسناً من رجل دميم : « عسل طيب فى ظرف(٤) سوء » ليس (عسل) ههنا على حدة فى قولك : ألفاظه عسل ، لأجل أنه لم يقصد إلى بيان حال اللفظ وتشبيهه بالعسل ، فى هذا الكلام الحسن من المتكلم المشنوء فى منظره ، وإنما قصد إلى قياس اجتماع فضل المخبر ، مع نقص النظر بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذى يقابل الرجل هو « ظرف سوء » وظرف سوء لا يصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ، لأن الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هى دمامة ، ما لم يتقدم شيء يشبه فى الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعانى التى تجعل الأشخاص أوعية لها »(٥) .

---

(١) الأولى : نزعها .

(٢) قرطس : أصاب القرطاس وهو الهدف .

(٣) الشاكلة : الخاصرة . والرمى : المرمى .

(٤) راجع ١ : ١٦٨ البيان والتبيين للجاحظ :

(٥) الأدب بطبيعته للعاطفة والوجدان والخيال المقام الأول فيه ، كما أن العلم بطبيعته للعقل والتفكير والتجربة المقام الأول فيه ، وأساليب الأدب البيانية صور عامة يشكلها الخيال وتلونها العاطفة بألوانها الخاصة المتميزة =

. . . .

= عن حقائق الحياة ، ومقررات الوجود ، والأدب عمله الأول خدمة الحياة ومثلها العليا ، وتوجيه الفكر الإنسانى والعواطف البشرية وجهة الخير والسداد ، وقلما تخضع الجماعات لسلطان العقل والتفكير كما تخضع لأحكام العاطفة وتصورات الخيال ، ولذلك كان مقامه الأول فى توجية الجماعات يدخل عليها من الباب الذى تذعن له وتسير فى تياره وأساليب الأدب البيانية قسمان :

أسلوب يصور صورا ليس لها وجود فى حقائقها العامة ويحاول أن يفرضها كأمر ثابت مقرر يأخذ سيره مع حقائق الحياة .

وأسلوب يدخل على العقل والوجدان من باب الحقائق المقررة الثابتة التى أقرتها طبيعة الحياة ونواميس الوجود .

وهذان الأسلوبان يسيران معاً إلى هدف واحد وغاية واحدة ، ويعملان على الوصول إليها من وراء السبيل الذى يسلكه كل أسلوب .

والتشبيه حقيقته الأولى قياس حقيقة ممتازة فى بعض صفاتها بحقيقة أخرى ثبت للعقل والناس امتيازها فى هذه الصفة ، وتقريب الشقة البعيدة بين الحقيقتين .. وذلك أسلوب بعيد عن التخييل وإن كان فيه بعض المبالغة .

وهناك أسلوب التشبيه البليغ الذى تجعل فيه الحقيقة حقيقة أخرى على سبيل المبالغة والتخييل لا على سبيل الاقتصاد والتحقيق ، فثل محمد حاتم وزيد أسد وهند بدر وشمس وظبى ، كل ذلك على سبيل التخييل الذى تجعل فيه الحقيقة هى نفس حقيقة أخرى ، وقد مهد القرآن الكريم لهذا الأسلوب تمهيداً رائعاً بنفى حقيقة الشىء أولا ثم أثبت له الحقيقة الأخرى المرادة =

. . . .

= فقاله : « ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم » .

وأما أسلوب الاستعارة من مثل رأيت أسدا ففيه تخييل فى الإدعاء والمبالغة أقوى من التخييل الأول ، وجعل الحقيقة حقيقة أخرى على أحد أمرين : إما ادعاء اتحادهما على سبيل التخييل ، وإما ادعاء تقاربهما على سبيل التشبيه ، والأول هو المفهوم من أسلوب الاستعارة ، ولأمر ما ادعى عبد القاهر عكس ذلك وذهب إلى الاحتمال الثانى ، وقد أثبت سابقا ما أبطل دعوى التشبيه فى الاستعارة ، فلم يبق مفر من التسليم بأنها من قبيل التخييل ، ولنعرض رأى عبد القاهر أولا لنرى مدى ما فيه من تحقيق علمى ، ثم أثبت ما يؤيد وجهة نظرى فى هذا الموضوع البلاغى .

قال عبد القاهر : إن الاستعارة لا تدخل فى باب التخييل :

١ — لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة بل إلى إثبات شبه هناك .. وذلك عندى منقوض بما يأتى :

(أ) أن أسلوب الاستعارة المقصود منه كما يفهم الذوق إثبات معنى اللفظة المستعارة لا إثبات الشبه .

(ب) أن كثير من علماء البيان صرحوا بأن المراد منه اثبات معنى اللفظة المستعارة ، كمؤلف نقد النثر والآمدى وسواهما من علماء البيان .

(ح) أن عبد القاهر نفسه صرح بأن الاستعارة انما هى فى ادعاء معنى الاسم لشىء لا فى نقل الاسم من شىء الى شىء (٢٩٠ وما بعدها من الدلائل — رشيد رضا) .

والدليل الثانى لعبد القاهر : وجود الاستعارة فى القرآن الكريم والحديث الشريف .

. . . .

وردى على ذلك أن استعارات القرآن والحديث تمط عاص فذ من أنماط الاستعارة ، قد تجرى فيها خدمة الخيال للواقع وللحقائق وسيره مع العقل وتمشيه مع حاجة البيان إلى سحر الأداء وروعة التأثير وقوة الإقناع ، وهو خيال يثبت حقائق صادقة لا غلو فيها ولا إغراق . ثم إن الذكر الحكيم لم يجعل الرجل الشجاع أسداً ، إنما جعل الأرض فى ازدهارها بأنوار الله مشرقة مضيئة ، وجعل إزالة الليل من مكانه محوا له ، وهكذا .

والدليل الثالث لعبد القاهر : أن الاستعارة سبيلها سبيل الكلام المحذوف الذى يثبت به قائله أمرا عقليا صحيحاً .

وأقول نعم إنها سبيلها سبيل الكلام المحذوف ، فالقائل رأيت أسداً أصل الكلام رأيت رجلا هو الأسد عينه ، وهو يثبت به أمراً عقلياً صحيحاً وهو الشجاعة للرجل ولكنه يثبتها بعد إثبات أمر تخييلى صرف وهو ادعاء أن هذا الرجل هو الأسد نفسه على طريق التخييل الذى يوهمك أن هذا الرجل فى قوته هو هذا الأسد فى شجاعته ، ويخدعك بهذا اللون البيانى خديعة من يريد المبالغة فى التصوير ويحملك على الاقتناع بما يقول .

ويقول عبد القاهر : إن الاستعارة تعتمد على التشبيه والتشبيه قياس والقياس يجرى فى المعقولات .

وقد ناقشت هذا الدليل سابقاً مناقشة طويلة فيها غنى عن بيان جديد ، وأزيد رأيى هذا إثباتا وقوة بما يأتى :

١ — كثير من علماء البيان القدامى لم يصرح بأنها تعتمد التشبيه حين صرح آخرون بأنها من قبيل التخييل كابن رشيق (١ : ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٤١ العمدة) .

. . . .

= ويقول ابن جنى : لا تكون الاستعارة إلا للمبالغة وإلا فهى حقيقة (١ : ٢٤٠ العمدة) .

٢ — كثير من أقسام الاستعارة مبنى على التخييل كالتخييلية ، وهى كلما كان الاسم المستعار فيها أثبت فى مكانه وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرح بالتشبيه ، كان أمر التخييل فيها أقوى ، كما يقول عبدالقاهر نفسه .

وهناك استعارات أخرى يرى عبد القاهر فيها أنها شديدة التخييل وقد تنوسى فيها التشبيه ، مثل :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

وفى الاستعارة أيضاً ما لا يحسن دخول أدوات التشبيه فيها .

٣ — على أن فى تقدير التشبيه تكلفا لا يقبله عقل أو ذوق .

وأما القرب والوضوح فى الاستعارة فأساسه وضوح المراد المقصود من الاستعارة ، بوضوح المناسبة بين المستعار له والمستعار منه ، سواء بوضوحها فى نفس الأمر أو بوجود قرائن واضحة ترشد إلى المناسبة وتدل على المراد .

وذلك مذهب العرب الجاهليين فى استعاراتهم وإن كان كثير من المحدثين دفعتهم الحضارة وسعة الثقافة إلى الإغراب فيها وإبعاد منزعها مما كان حافزاً لكثير من النقاد على إعلان الخصومة لهم .

وهذه النظرية أول من أشار إليها أرسطو ، واهتدى إليها علماء البيان العربى .

ولم يشذ أحد عن الإيمان بهذه الفكرة إلا ابن وكيع المصرى م ٣٩٣هـ الذى ذهب إلى إيثار الاستعارة البعيدة مادام لا يدخلها لبس ولا إبهام (١ : ٢٤٠ العمدة) .

. . . .

= والتطور العقلي والأدبي في أسلوب الاستعارة ، وانتقالها من سذاجة البداوة في العصر الجاهلي إلى دقة التفكير في القرن الرابع والخامس الهجري ، ثم إلى عمق الثقافة في عصرنا الحديث ؛ بانتقال الفكر الإنساني من بداوة العصور القديمة إلى حضارة القرن العشرين ؛ أكبر مؤيد لرأي ابن وكيع .

وأرى أن أسلوب « يد الشمال » ، من أساليب التمثيل والاستعارة التمثيلية وهو من أقوى درجات التمثيل بلاغة وبيانا ، فالشاعر يخيل إليك أن مثل الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها مثل المدبر المصرف لما زمامه بيده ومقادته في كفه ، ثم رأى الشاعر أن محور الكلام في الممثل به هو اليد وهو الزمام فأثبت اليد في الأسلوب كما أثبت الزمام وحذف ما سواهما لأنهما وحدهما يغنيان عن كل بيان وكلام . وكذلك قول الشاعر :

وإذا المنية أنشبت أظفارها

مثل المنية في اغتيالها للنفوس بالأسد يفترس فريسته ، ثم حذف أجزاء الممثل به مكتفيا بأهمها خطرا في أداء المعنى وتصوير المراد ، وهو الظافر يتشبه الأسد في فريسته ، فأبقاه في الكلام واكتفى به في الدلالة على غرضه والإشعار بمراده . . وكذلك قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، مثل الذكر الحكيم البار بأبيه وأمه بطير يحنو على صغاره ويسدل عليهم جناحا من الحنان والعطف والشفقة ثم حذف أجزاء الممثل به مكتفيا بكلمة جناح ، لأن مظهر الجناح وقد غطى به الطير صغاره هو أبلغ شيء في الطير وفيه أبلغ تصوير لمعاني الحنان والعطف ، وبذلك أجرى الكلام على صورة رائعة من التمثيل الذي يدل بعضه على بعض ، ومن الجدير بالذكر أن أساليب الترشيح التخييلي في أساليب التشبيه والتمثيل والاستعارة الواردة في الذكر الحكيم قليلة ، ولا يلجأ إليها القرآن الكريم في تصوير المعاني =

. . . .

= إلا قليلا ونادراً ، وهنا جاءت كلمة الجناح تخيلات للسامع صورة الطير بأبلغ مظاهر الحنان فيه ، ثم أعقبت بكلمة الرحمة لتعيد السامع من جو الخيال المتأمل إلى مجال الحقيقة المرادة ، من بر الابن بوالديه والتفانى فى الرحمة بهما والحنان والشفقة عليهما ، فكان فى ذلك أبلغ تصوير للغرض وأبين أداء للمراد ... ودليلنا على ما نذهب إليه هو :

١ — أن فى رد هذا الأسلوب إلى الاستعارة المكنية تكلفا كثيرا مما وقع فيه عبد القاهر ومن تبعه .

٢ — أن المشبه وهو الشمال مثلا فى بيت لبيد موجود فى الكلام ، وكذلك المشبه به ، أو قل أهم جزء يشعر بالغرض منه كاليد والزمام فى البيت ، والاستعارة لابد فيها من حذف أحد الطرفين ، وقد دفع ذلك السكاكى إلى تكلف آخر فى فهم هذا الأسلوب فزعم أن المنية فى قول أبى ذؤيب مثلا أريد بها السبع المغتال الخ .

٣ — يظهر بوضوح أسلوب المثل فى كثير من أمثلة هذا الأسلوب ، مثل هو مرخى العنان وملق الزمام ، مما هو أسلوب عادى من أساليب هذا اللون الذى يرتقى فى بلاغته إلى منزلة الأساليب الخاصية كما فى بيت لبيد وأبى ذؤيب ، ثم يرتقى إلى حد الإعجاز فى القرآن الكريم .

٤ — هذا الأسلوب — وهو يد الشمال وزمام الغداة وأظفار المنية وجناح الذل مثلا — صورة تخييلية للأسلوب : « ذهب الأصيل ، ولجين الماء » التحقيق .

ويؤكد عبد القاهر نظرية ابتناء الاستعارة على التشبيه ، وهى نظرية موجودة فى خطابة أرسطو ، وذكرها قدامة وأشار إليها صاحب الوساطة =

. . . .

= وصاحب الموازنة وابن رشيق في العمدة ، ودافع عنها عبد القاهر ومن بعده من علماء البيان .

وقد طبقت هذه الفكرة على أدبنا تطبيقاً ، وفرضت عليه فرضاً ، ودافع عنها كثير من البيانيين ، ثم رأى بعضهم كعبد القاهر أن هذا الرأى قد يقابل بإنكار ، فزعم أن التشبيه الذى تعتمده الاستعارة تشبيه خاص وهو التشبيه على وجه المبالغة ، وحاول فى كثير من التعسف إثبات هذا التشبيه فى الاستعارة التخييلية وفى العنادية ، ورأى بعض آخر كابن رشيق أن الاستعارة من التشبيه إلا أنها بغير أداته وعلى غير أسلوبه (١ : ٢٤٩ العمدة) ، والتشبيه عنده تخييل وإيهام لا تحقيق وإثبات واقع ، وبذلك نجا من النقد إلى حد محدود .

ولعل الباعث الأول الذى دفع علماء البيان إلى هذا الرأى هو رغبتهم فى إخراج الاستعارة من باب التخييل حتى لا تكون معانيها من كذب الخيال وعمل الوهم وصنع التأويل الذى ينزه عنه القرآن الكريم والحديث الشريف .

وقد نفى البيانيون من قديم أن يكون المجاز كذبا ، وأشفق ابن قتيبة من هذا الرأى ونفاه فقال : لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا محالا الخ (١ : ٢٣٦ العمدة) .

ومن قديم ترددت هذه الشبهة فى أذهان كثير ، فقد قال رجل لشاعر : أتقول :

ولأنت أشجع من أسامة إذ دعيت نزال ولج فى الذعر

أيكون الرجل أشجع من أسامة ؟ فقال الشاعر : نعم إن الأمير فتح مدينة لا يفتحها الأسد .

. . . .

= وفى نظرى أنه يجب أن يفرق بين أمرين : ابتداع الخيال فى مجاله الواقعى أو الوهمى ، وكذب الحقائق فى محيط الحياة الاجتماعى ، والخيال ما هو إلا وسيلة لتأييد حقائق الحياة ، وإن خرج به كثير من الشعراء إلى مجال الغلو والإغراق .

وقد بالغ عبد القاهر فى الرد على من يصف المجاز بغير الصدق وأقام الاستعارة على أساس التشبيه على وجه المبالغة حذراً من ذلك الرأى ، كما فرق بين الاستعارة والكذب ، لبناء الدعوى فى الاستعارة على التأويل ونصب القرينة على أن المراد بها خلاف الظاهر فإن الكاذب يبرأ من التأويل ولا ينصب قرينة دالة على خلاف زعمه .

ورأيى الذى أومن به أن الاستعارة لاتعتمد التشبيه مطلقاً فى أى لون من ألوانها ، وأن العربى الأول حين نطق بالأساليب البيانية التى يعبر بها عن مقصوده ، من مثل : زيدكالأسد ورأيت به أسداً وزيد أسد ورأيت الأسد ، إنما كان يقصد فى الأسلوب الأول التشبيه ويلوح فى الثانى به ، ويعتبر ذلك فى الأسلوب الرابع على وجه المبالغة فى الادعاء والتخييل حتى ليدعوك إلى أن لا تجعل للتردد على عقلك سبيلا فى الوثوق بأن هـــذا الشجاع المبرز فى بسالته هو فرد من أفراد الأسد المشهور فى شجاعته ، وأى مجال للتشبيه فى هذا الأسلوب وأى أثر لوجوده فيه ؟ .

ومن العبث أن نفسر الاستعارة على ضوء بعض الخوارق بتفسير يخالف حقيقتها وما عليه الذوق فى فهمها ، فكون الاستعارة لا تعتمد التشبيه أمر لا يضر إيماننا الثابت الذى لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، والتنزيل الكريم كما لم يقلب اللغة فى أوضاعها المفردة عن أصولها ولم يخرج الألفاظ عن دلالتها ، كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها ولم ينقلهم عن =

فمن حقك أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه إذا كان موجوداً في الشيء على الانفراد من غير أن يكون نتيجة بينه وبين شيء آخر — فالاسم(١) مستعار لما أخذ الشبه منه كالنور للعلم ، والظلمة للجهل ، والشمس للوجه الجميل أو الرجل النبيه الجليل ، وإذا لم تمكن نسبة الشبه إلى الشيء على الانفراد وكان مركباً من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن بمجموع الكلام مثل .

= أساليبهم وطرقهم ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاستعارة كما يقول عبد القاهر .

وأزيد على ذلك أنه لم يغير أذواقهم الأدبية ولا فطرتهم العربية الحساسة بمعاني الجمال في الأساليب والأداء ، ثم أي ضير على الكتاب الكريم إذا استعمل الأساليب العربية الأولى التي تعمد على التخييل في في أسلوبها وطريق أدائها مع تحويره لغاياتها ومراميها وأهدافها البيانية والفكرية ، بعد أن بذ العرب في هذه الأساليب وبلاغتها ؟ وفي القرآن الكريم من الاستعارات التخييلية التي لا تدانى بلاغة ، وهل عابه « جناح الذل » أو تنقص ما فيه من حق وما أشعره من صدق « لباس الجوع والخوف » واشتعال الرأس شيبا .

ولعلنا نفرق بين شيئين : الخيال في الحقائق والخيال في أساليب الحقائق وطرق تصويرها ، ثم أي دليل عرضه عبد القاهر في تأييد هذا المذهب ؟ لا شيء إلا الدعوى جعلها دليلا والرأي فرضه فرضا وألقاه جزافا ، فإن كان يومىء إلى الطبع والذوق ويحملهما الحكم في ذلك فإن أذواقنا لا تقر ما يدعي بحال .

(١) أي اللفظ .

واعلم أن هذه الأمور التي قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة (١)، وذلك أنها معروفة على الجملة لا ينكر بيانها في نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمهرين(٢) في فصل جيده من رديئه، ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التي يرجع إليها فتستخرج منها العلل في حسن ما استحسن. وقبح ما استهجن، حتى تعلم علم اليقين غير الموهوم، وتضبط ضبط المزموم(٣) المخطوم.

ولعل الملال إن عرض لك، أو النشاط إن فتر عنك، قلت: ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة وإنما يكفي أن يقال: الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات، وهكذا يكفينا المئونة في التشبيه والتمثيل يسير من القول.

---

(١) في الدلائل (ص ١٠٥ وما بعدها تحقيق خفاجي) شرح موجز للفروق بين أنواع البيان وفي (ص ١٠٧و١٠٩) يرى عبد القاهر أن مثل «أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى» تمثيل يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة، وقد يقال إنه تمثيل لحالة الرجل المعنوية في تردده في الرأي بحالته الحسية في تردده في السير، وليس من الضروري أن يكون التمثيل بين حالة الرجل المعنوية والحالة الحسية لرجل آخر، ورأيي أن أساليب الاستعارة التمثيلية في رأي البلاغيين إنما هي تمثيل وليست من الاستعارة في شيء.

(٢) تمهر الرجل: حذق مثل مهر.

(٣) المزموم: ما شد بالزمام أي المقود. والمخطوم: ما وضع على خطمه أي أنفه الخطام ليقتاد.

فإنك(١) تعلم أن قائلا لوقال ، الخبر مثل قولنا : زيد منطلق ، ورضى به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حدا للخبر إذا عرفه تميز فى نفسه من سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن ههنا كلاما لفظه لفظ الخبر وليس هو بخبر ولكنه دعاء كقولنا : رحمه الله عليه ، وغفر الله له ، ولم يجد فى نفسه طلباً لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لا ينقسم ، وأن أول امره فى القسمة أنه ينقسم إلى جملة من الفعل والفاعل ، وجملة من مبتدأ وخبر ، وأن ما عدا هذا من الكلام لا يأتلف ، نعم ، ولم يحب أن يعلم أن هذه الجملة يدخل عليها حروف بعضها يؤكد كونها خبراً وبعضها يحدث فيها معانى تخرج بها عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب ، وهكذا يقول إذا قيل له ، الاسم مثل زيد وعمرو ، : اكتفيت ولا أحتاج إلى وصف أو حد يميزه من الفعل والحرف أو حد لهما إذا عرفتهما عرفت أن ما خالفهما هو الاسم على طريقة الكتاب ، ويقول : لا أحتاج إلى أن أعرف أن الاسم ينقسم فيكون متمكناً أو غير متمكن ، والمتمكن يكون منصرفاً وغير منصرف ، ولا إلى أن أعلم شرح غير المنصرف والأسباب التسعة التى يقف هذا الحكم على اجتماع سببين منها أو تكرر سبب فى الاسم ولا أنه ينقسم إلى المعرفة والنكرة ، وأن النكرة ما عم شيئين فأكثر . وما أريد به واحد من الجنس لا بعينه ، والمعرفة ما أريد به واحد بعينه أو جنس بعينه على الإطلاق ، ولا إلى أن أعلم شيئاً من الانقسامات التى تجىء فى الاسم — كان قد أساء الاختيار وأسرف فى دعوى الاستغناء عما هو محتاج إليه إن أراد هذا النوع من العلم(٢) .

---

(١) رد لمقول القول السابق وهو قلت .

(٢) كرر عبد القاهر ذلك فى دلائل الإعجاز ، وذلك مقتبس من مناقشة السيرا فى لمتى بن يونس (التى رواها التوحيدى فى الجزء الأول من الإمتاع والمؤانسة) .

ولئن كان الذى يتكلف شرحه لايزيد على مؤدى ثلاثة أسماء ، وهى : التمثيل والتشبيه والاستعارة ، فإن ذلك يستدعى جملا من القول يصعب استقصاؤها ، وشعباً من الكلام لا تستبين لأول النظر أنحاؤها ، إذ قولنا « شىء » يحتوى على ثلاثة أحرف ، ولكنك إذا مددت يداً إلى القسمة ، وأخذت فى بيان ما تحويه هـــذه اللفظة ، احتجت إلى أن تقرأ أوراقاً لا تحصى ، وتتجشم من المشقة والنظر والتفكير ما ليس بالقليل النزر « والجزء الذى لا يتجزأ » يفوت العين ، ويدق عن البصر ، والكلام عليه يملأ أجلاداً عظيمة الحجم .

فهذا مثلك إن أنكرت ماعنيت به من هذا التتبع ، ورأيته من البحث ، وآثرته من تجشم الفكرة ، وسومها أن تدخل فى جوانب هذه المسائل وزواياها ، وتستثير كوامنها وخفاياها ، فإن كنت ممن رضى لنفسه أن يكون هذا مثله ، وههنا محله ، فعب كيف شئت ، وقل ما هويت ، وثق بأن الزمان عونك على ما ابتغيت ، وشاهدك فيما ادعيت ، وأنك واجد من يصوب رأيك ، ويحسن مذهبك ، ويخاصم عنك ، ويعادى المخالف لك .

فصـــل

« في الأخذ والسرقة وما في ذلك من التعليل، وضروب الحقيقة والتخييل(١) »

١ — القسم العقلي

اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق، واقتدى بمن تقدم وسبق. لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة، ويجب أن نتكلم أولا على المعاني، وهي تنقسم أولا قسمين عقلي وتخييلي، وكل واحد منهما يتنوع.

فالذي هو العقلي على أنواع:

أولها عقلي صحيح، مجراه في الشعر والكتابة، والبيان والخطابة، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء، والفوائد التي تثيرها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعاً من أحاديث النبي ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم، ومنقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، وقصدهم الحق، أو ترى له أصلا في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء فقوله(٢):

٣٢٢ ـ وما الحسب الموروث لا در دره　　بمحتسب إلا بآخر مكتسب

ونظائره كقوله(٣):

٣٢٣ ـ وإني وإن كنت ابن سيد عامر　　وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة　　أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

---

(١) هذا ليس في الأصل.　(٢) ابن الرومي (ص ١١٥ ديوانه)
(٣) هو لعامر بن الطفيل من المخضرمين توفي عام ٩ هـ (راجع ١١٨ الشعر والشعراء طبعة محمود صبيح) والبيت في (١ : ١١٨ الكامل للمبرد).

معنى صريح محض يشهد له العقل بالصحة، ويعطيه من نفسه أكرم النسبة، وتتفق العقلاء على الأخذ به، والحكم بموجبه، فى كل جيل وأمة، ويوجد له أصل فى كل لسان ولغة، وأعلى مناسبة وأنورها، وأجلها وأفخرها، قول الله تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، وقول النبى ﷺ «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، وقوله عليه السلام «يا بنى هاشم لا تجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى(١)، بالأنساب»، وذلك أنه لو كانت القضية على ظاهر يغتر به الجاهل ويعتمده المنقوص، لأدى ذلك إلى إبطال النسب أيضاً وإحالة التكثر به، والرجوع إلى شرفه، فإن الأول لو عدم الفضائل المكتسبة، والمساعى(٢)، الشريفة، ولم يبن من أهل زمانه بأفعال تؤثر، ومناقب تدون وتسطر، لما كان أولا، ولكان العلم من أمره بجهلا، ولما تصور افتخار الثانى بالانتماء إليه، وتعويله فى المفاضلة عليه، ولكان لا يتصور فرق بين أن يقول: هذا أبى، ومنه نسبى، وبين أن ينسب إلى الطين، الذى هو أصل الخلق أجمعين، ولذلك قال ﷺ «كلكم لآدم وآدم من التراب»، وقال محمد بن الربيع الموصلى(٣):

٣٢٤- الناس فى صورة التشبيه أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

---

(١) يجوز أن تكون الواو واو المعية نصب الفعل بعدها وأن تكون للعطف ونون الرفع محذوفة.

(٢) جمع مسعاة وهى المأثرة والشرف.

(٣) من الشعراء المقلين فى صدر العصر العباسى، وتنسب للامام على.

فهذا كما ترى باب من المعانى التى تجمع فيها النظائر وتذكر الأبيات الدالة عليها ، فإنها تتلاقى وتتناظر ، وتتشابه وتتشاكل ، ومكانه من العقل ما ظهر لك واستبان ووضح واستنار ، وكذلك قوله(١) :

٢٢٥ — وكل أمرء يولى الجميل محبب

صريح معنى ليس للشعر فى جوهره وذاته نصيب ، وإنما ما يلبسه من اللفظ ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية ، من الاختصار وخلافه ، والكشف أوضده ، وأصله قول النبى ﷺ : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها(٢) » ، بل قول الله عز وجل « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وكذا قوله(٣) :

٢٢٦ - لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الاحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم ، إذ كان موضوع الجبلة على ألا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين الذين لايعون الحكمة فتردعهم ، ولايتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغى والضلال .

---

(١) أى المتنبى ، وعجز البيت : وكل مكان ينبت العز طيب .

(٢) يقول البستى الشاعر (٢٣٠ — ٤٠٠هـ) :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان إحسان

والذى نسبه عبد القاهر هنا إلى الرسول وهو (جبلت) الصحيح أنه حكمة وليس حديثاً .

(٣) هو المتنبى .

وما في الجور والظلم من الضعة والخبال ، فيجدوا لذلك مس ألم يحبسهم على الأمر ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبشار ، من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنف عنه الأقذاء ، ولا تقر الروح في بدن لم ترفع عنه الأدواء.

وكذلك قوله(١) :

٢٢٧ — إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

٢ — القسم التخييلي(٢)

وأما القسم التخييلي : فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لا يكاد يحصر إلا تقريباً ، ولا يحاط به تقسيما وتبويباً .

ثم إنه يجيء طبقات ، ويأتي على درجات :

فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطى شبهاً من الحق ، وغشي رونقاً من الصدق ، باحتجاج تمحل ، وقياس تصنع فيه وتعمل ، ومثاله قول أبي تمام :

٢٢٨ — لا تنكري عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالي

---

(١) أي المتنبي من قصيدة في مدح سيف الدولة .

(٢) هو ما يعنيه المتأخرون من البلاغيين بحسن التعليل .

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة فى قدره ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن يزل عن الكريم ، زليل ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام ، فالعلة فى السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال .

وأقوى من هذا فى أن يظن حقا وصدقاً وهو على على التخييل قوله(١) :

٢٢٩ ـ الشيب كره وكره أن يفارقنى　　أعجب بشىء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الإنسان لا يعجبه أن يدرك الشيب فإذا هو أدركه كره أن يفارقه فتراه لذلك ينكره ويكرهه ، على إرادته أن يدوم له ، إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة ، فأما كونه مراداً وموداً فتخيل فيه وليس بالحق والصدق ، بل المودود الحياة والبقاء ، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن فى زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محبباً إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب .

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شىء أو نقصه . ومدحه أو ذمه ، فتعلقوا ببعض ما يشاركه فى أوصاف ليست هى سبب الفضيلة والنقيصة ، وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة ، كما تراه فى باب الشيب والشباب كقول البحترى :

---

(١) هو مسلم بن الوليد ونسب إلى بشار خطأ .

٣٣٠ — وبياض البازى(١) أصدق حسناً
إن تأملت من سواد الغراب

وليس اذا كان البياض فى البازى آنق فى العين وأخلق بالحسن من السواد فى الغراب ، وجب لذلك ألا يدوم الشيب ولا تنفر منه طباع ذوى الألباب ، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون ، ولا أتت الغوانى ما أتت من الصد والإعراض لمجرد البياض . فإنهن يرينه فى قباطى(٢) مصر فيأنسن ، وفى أنوار الروض وأوراق النرجس الغض فلا يعبسن ، فما أنكرن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهجاته ، وإدباره فى حياته ، وانك لترى الصفرة الخالصة فى أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف واقبال الشتاء وهبوب الشمال فتنكرها وتنفر منها ، وتراها بعينها فى اقبال الربيع فى الزهر المتفتق ، وفيما ينشئه ويشيه(٣) ، من الديباج المونق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية وتمتلىء من الأريحية ، ذاك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ، وحيث أبشرت أرواح الرياحين وبشرت أنواع التحاسين(٤) ورأيته فى الوقت الآخر حين ولت السعود ، واقشعر العود ، وذهبت البشاشة والبشر ، وجاء العبوس والعسر — هذا ولو عدم البازى فضيلة أنه جارح وأنه من عتيق الطير لم تجد لبياضه الحسن الذى تراه ، ولم يكن للمحتج به على من ينكر الشيب ويذمه ما تراه من الاستظهار ، كما أنه لولا ما يهدى اليك المسك من رياه التى

(١) تشديد الياء هنا إنما هو لضرورة الوزن لا غير ولابن المعتز :
قالت : كبرت وشبت : قلت لها   هذا غبـــار وقائع الدهر
(٢) القباطى بالضم جمع قبطية وهى ثياب رقاق بيض من كتان تنسج بمصر وهى منسوبة نسبة غير قياسية إلى القبط بالكسر كالدهرى ، وقد تكسر القاف على القياس .
(٣) من الوشى أى ما يزنيه .   (٤) جمع تحسين .

تتطلع إليها الأرواح ، وتهش لها النفوس وترتاح . لضعفت حجة المتعلق به فى تفضيل الشباب ، وكما لم تكن العلة فى كراهة الشيب بياضه ولم يكن هو الذى غض عنه الأبصار ، ومنحه العيب والإنكار ، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سوادا فقط ، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته ، وبهجته وطلاوته ، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الإقبال ، ويريانك الإقتبال(١) : ويحضرانك الثقة بالبقاء ، ويبعدان عنك الخوف من الفناء . وإنك لترى الرجل وقد طعن فى السن وشعره لم يبيض ولكنه على ذاك قد عدم إبهاجه الذى كان ، وعاد لا يزين كما زان ، وظهر فيه من الكمود(٢) والجمود ما يريكه غير محمود .

وهكذا قوله(٣) :

٣٣١ — والصارم المصقول أحسن حالة
يوم الوغى من صارم لم يصقل

إحتجاج على فضيلة الشيب وأنه أحسن منظراً من جهة التعلق باللون وإشارة إلى أن السواد كالصدأ على صفحة السيف ، فكما أن السيف إذا صقل وجلى وأزيل عنه الصدأ ونق كان أبهى وأحسن وأعجب إلى الرائى وفى عينه أزين ، كذلك يجب أن يكون حكم الشعر فى انجلاء صدأ السواد عنه ، وظهور بياض الصقال فيه ، وقد ترك أن يفكر فيما عدا ذلك من المعانى التى يكره لها الشيب ، ويناط بها العيب .

وعلى هذا موضوع(٤) الشعر والخطابة بأن يجعلوا اجتماع الشيئين فى وصف

(١) اقتبل الرجل : كاس بعد حمق .
(٢) هو تغير اللون وذهاب صفائه .
(٣) لخالد الكاتب كما فى زهر الآداب أو أبى دلف العجلى كما فى الأمالى .
(٤) مصدر ميمى أى موضع أووضع .

علة الحكم يريدونه وإن لم يكن كذلك فى المعقول ومقتضيات العقول ، ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلا وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو ينقض من قضية ، وأن يأتى على ما صيره قاعدة وأساسا ببينة عقلية ، بل تسلم مقدمته التى اعتمدها (بلا) بينة ، كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه ، وتناسينا سائر المعانى التى لها كره ومن أجلها عيب .

وكذلك قول البحترى :

٣٣٢ — كلفتمونا حدود منطقكم
فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه(١)

أراد كلفتمونا أن نجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لاندعى إلا مايقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجىء إلى موجبه ، مع أن الشعر يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس الى ماترتاح اليه من التعليل ، ولاشك أنه الى هذا النحو قصد ، واياه عمد ، اذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم ليس هو أهله ، وأن يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لايبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ، وانما يكذب فيه القائل بالرجوع الى حال المذكور واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدرة وخسته ، ورفعته أوضعته ، ومعرفة محله ومرتبته ،

وكذلك قول من قال : « خير الشعر أكذبه(٢) » ، فهذا مراده ، لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصاً وانحطاطاً وارتقاعا بأن

(١) عاتب حجر أبو امرىء القيس ابنه على قول الشعر وقال له : يابنى ان أعذب الشعر أكذبه فكيف تستسيغ الكذب ؟

(٢) راجع فى ذلك « نقد الشعر » ص ٣٧ — ٤٠ .

ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منه عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر وبخيل سخاه ، وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث ، وذى ضعة أوطأه قمة العيوق(١) وغبى قضى له بالفهم ، وطائش ادعى له طبيعة الحكم(٢) ، ثم لم يعتبر ذلك فى الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره ، وتنشر ديابيجه ، ويفتق(٣) مسكه فيضوع أريجه .

وأما من قال فى معارضة هذا القول « خير الشعر أصدقه » كما قال :

٣٢٣ — وإن أحسن بيت أنت قائله
بيت يقال إذا أنشدته صدقا(٤)

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى وتبين موضع القبح والحسن فى الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، والأول أولى ، لأنهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعى الشعر ، فمن قال « خيره أصدقه » كان ترك الإغراق والمبالغة والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح ، أحب إليه وآثر عنده ، إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ،

---

(١) نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .
(٢) أى الحكمة .
(٣) فتق المسك : أدخل عليه شيئاً مما يستخرج به رائحته .
(٤) ينسب لزهير (٣ : ٢٨٠ العقد الفريد) ، ولحسان كما فى ديوانه وفى المطول ، وهو لبقيلة الأكبر صاحب الخيل يوم أحد (٦٢ المؤتلف والمختلف للآمدى) .

وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال « أكذبه » ذهب إلى أن الصنعة إنما يمد باعها وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم والوصف والبث(١) والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء فى اختراع الصور ويعيد . ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعانى متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهى .

وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المدانى قيده(٢) والذى لا تتسع كيف شاء يده وأيده ، ثم هو فى الأكثر يورد على السامعين معانى معروفة وصوراً مشهورة ، ويتصرف فى أصول هى وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها ، ولا يرجى ازديادها ، وكالأعيان الجامدة التى لا تنمى ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم .

هذا ونحوه يمكن أن يتعلق فى نصرة التخييل وتفضيله ، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلج(٣) وإن قضى عليه ، هذا ومن سلم

---

(١) هو أشد الحزن . (٢) أى المضيق عليه القيد .

(٣) الأيد : القوة .

(٤) المفلج الفائز الظافر يقال فلج وأفلج على خصمه إذا انتصر واستظهر عليه .

أن المعانى المغرقة فى الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ، فى حكم الجامد الذى لا ينمى ، والمحصور الذى لا يزيد ؟

وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبى فراس :

٣٣٤ — وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا(١)

ألست تراه عقليا عريقاً فى نسبه ، معترفاً بقوة سببه ، وهو على ذلك من فرائد أبى فراس التى هو أبو عذرها والسابق إلى إثارة سرها .

واعلم أن الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يعمد إلى إثبات(٢) شبه هناك ، فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك فى أن لا مدخل للاستعارة فى هذا الفن وهى كثيرة فى التنزيل على ما لا يخفى : كقوله عز وجل « واشتعل الرأس شيباً » ثم لا شبهة فى أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهرا ، وإنما المراد إثبات شبهه .

وكذلك قول النبى ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن » ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل ، : لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سبباً للعلم بما لولاها لم يعلم ، لأن ذلك العلم طريقه الرؤية ، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة فقد جمع بين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه .

وكذا قوله ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن » معلوم أن ليس القصد

---

(١) أى نصرنا فى الحرب بسبب شجاعة وكفاية قائدنا .

(٢) الشبه وإثباته تحقيق لا تخييل .

إثبات معنى ظاهر اللفظين ، ولكن الشبه الحاصل من مجموعها ، وذلك حسن الظاهر ، مع خبث الأصل .

وإذا كان هذا كذلك بان منه أيضاً أن لك مع لزوم الصدق والثبوت على محض الحق الميدان الفسيح ، والمجال الواسع ، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخييل الخارج على أن يكون الخبر على خلاف المخبر من أنه إنما يتسع المقال ويفتن ، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها ، وتكثر أغصانها وتتشعب فروعها ، إذا بسط من عنان الدعوى فادعى ما لا يصح دعواه ، وأثبت ما ينفيه العقل ويأباه .

وجملة الحديث الذى أريده بالتخييل ههنا : ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى . أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف فى أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح فى العقل . وستمر بك دروب من التخييل هى أظهر أمراً فى البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق ، فتزداد استبانة للغرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاما فى الفرق بين ما يدخل فى حيز قولهم : خير الشعر أكذبه وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتساع وتجوز فاعرفه .

وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه وهم يريدون كلاما غفلا ساذجا يكذب فيه صاحبه ويفرط ، نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين ، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها ، وتدقيق فى المعانى يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب ، وغوص شديد ، والله الموفق للصواب .

وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقى وغير الحقيقى —

واعلم أن ما شأنه التخييل أمره فى عظم شجرته . إذا تؤمل نسبه ، وعرفت شعوبه وشعبه ، — على ما أشرت إليه قبل — لا يكاد تجىء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتبع الشىء بعد الشىء ويجمع ما يحصره الاستقراء . فالذى بدأت به من دعوى أصل وعلة فى حكم من الأحكام مما كذلك ما تركت المضايقة ، وأخذ بالمسامحة ، ونظر إلى الظاهر ، ولم ينقر عن السرائر : وهو النمط العدل والفرقة الوسطى ، وهو شىء تراه كثيراً بالآداب والحكم البريئة من الكذب . ومن الأمثلة فيه قول أبى تمام :

٢٣٥ — إن ريب الزمان يحسن أن يهـ
دى الرزايـــا إلى ذوى الأحســـاب

فلهـذا يجف بعـد اهـــتزاز قبل روض الوهاد روض الروابى

وكذا قوله(١) يذكر أن الممدوح قد زاده مع بعده عنه وغيبته فى العطايا على الحاضرين عنده اللازمين خدمته :

٢٣٦ — لزموا مركز الندى وذراه وعدتنا عن مثل ذاك العوادى
غير أن الربى إلى سبل الانو اء أدنى والحظ حــظ الوهاد

لم يقصد من الربى إلى العلو ولكن إلى الدنو فقط ، وكذلك لم يرد بذكر الوهاد الضعة والتسفل والهبوط ، كما أشار إليه فى قوله(٢) :

٢٣٧ — والسيل حرب للمكان العالى

وإنما أراد أن الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء ثم إنها تتجاوز

(١) أى أبو تمام فى مدح أحمد بن أبى دؤاد .
(٢) أى أبى تمام .

الربى التى هى دانية قريبة إليها إلى الوهاد التى ليس لها ذلك القرب .

ومن هذا النمط فى أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما إدعى قوله(١) :

٣٣٨ — ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحتجب(١)

فاستتار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جوداً منها ، ونعمة صادرة عنها ، كما قال ابن المعتز :

٣٣٩ — ما ترى نعمة السماء على الأر
ض وشكر الرياض للأمطار(٢)

وهذا نوع آخر وهو دعواهم فى الوصف هو خلقة فى الشىء وطبيعة أو واجب على الجملة ، من حيث هو أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفاده ، وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ولهم فيه عبارات منها قولهم . إن الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، أو تتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة . وألطف من ذلك أن يقال : تسرق وإن نورها مسروق من الممدوح وكذلك يقال المسك يسرق من عرفه ، وإن طيبه مسترق منه ومن أخلاقه ، قال ابن بابك :

---

(١) أى أبى تمام يعاتب أبا دلف أو عبد الله بن طاهر وفى البيت تشبيه ضمنى وحسن تعليل .

(٢) وأنشد الجاحظ : تضحك الأرض من بكاء السماء — وبيت ابن المعتز فى ديوانه ٢ : ٤٣ .

٣٤٠ — ألا يارياض الحزن من أبرق الحمى
نسيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعد(١) فنشرك نشره
ولكن له صدق الهوى ولك الملل

ونوع آخر: وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها: إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور.

فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى ترجمته:

٣٤١ — لو لم تكن نية الجوزاء خدمته
لما رأيت عليهـــا عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى، أعنى ما أصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة والإغراق والإغراب.

ويدخل فى هذا الفن قول المتنبى:

٣٤٢ — لم تحك نائلك السحاب وإنمــا
حمت به فصبيبها الرحضاء(٢)

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وضعاً وصوره فى صورة خرج معها إلى ما لا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضربين.

---

(١) يعنى به على بن محمد بن خلف الهمذانى من أعلام القرن الرابع ومدحه البديع الهمذانى وغيره.

(٢) الرحضاء: العرق المتصبب.

وقريب منه فى أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة فى تشبيهه وخلع صورته خلعاً قوله :

٣٤٣ — وما ريح الرياض لها ولكن
كساها دفنهم فى الترب طيبــاً (١)

ومن لطيف هذا النوع قول أبى العباس الضبى :

٣٤٤ — لا تركنن إلى الفرا ق وإن سكنت إلى العناق
فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق

ادعى لتعظيم الفراق أن ما يرى من الصفرة فى الشمس حين يرق نورها بدنوها من الأرض إنما هو لأنها تفارق الأفق الذى كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم ، وأنست بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها .

ونوع آخر منه : قول الآخر :

٣٤٥ — قضيب الكرم نقطعه فتبكى
ولا تبكى وقــد قطع الحبيب(٢)

وهو منسوب إلى إنشاد الشبلى(٣) ويقال أيضاً إن أبا العباس أخذ معناه فى بيته من قول بعض الصوفية ، وقيل له : لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال : من حذر الفراق .

(١) للمتنبى يمدح على بن مكرم التميمى .

(٢) الصفة الثابتة سيلان الماء من العود المعبر عنه بالبكاء ، والعلة هى القطيعة بمعنى الهجر .

(٣) هو أبو بكر دلف بن جحدر من أئمة الصوفية وتلميذ الجنيد (توفى سنة ٣٣٤ هـ) وهو منسوب إلى شبلة قرية بالقرب من سمرقند .

ومن لطيف هذا الجنس قول الصولى :

٣٤٦ — الريح تحسدنى عليك ولم أخلها فى العدا
لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا(١)

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب فى طباعها أن ترد الرداء عليه ، وأن تلف من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها وغيرة لمحبوبه . وهى من أجل ما فى نفسها : تحول بينه وبين أن ينال من وجهها .
وفى هذه الطريقة قوله(٢) :

٣٤٧ — وحاربنى فيه ريب الزمان
كأن الزمان له عاشق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شىء بل أثبت محاربة من الزمان فى معنى الحبيب ثم جعل دليلا على علتها جواز أن يكون شريكا فى عشقه . وإذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة إللمحاربة وجمع بين الزمان والريح فى ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل ، وذاك أن الكلام فى وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علة لذلك الأمر ، وكون العشق علة للمعاداة فى المحبوب ، معقول معروف غير بدع ولا منكر . فإذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة . وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون ذلك لعلة الحسد أو لغيرها ، لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فإن من حكم المحصل ألا ينظر فى تلاقى المعانى وتناظرها إلى جمل الأمور ، وإلى الاطلاق والعموم ، بل ينبغى أن يدقق النظر فى ذلك

---

(١) هما فى اليتيمة منسوبان إلى أبى القاسم الهرندى نسبة إلى هرند قرية بالقرب من أصفهان .
(٢) هو محمد بن وهيب الحيرى .

ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل فأنت فى نحو بيت ابن وهيب — وحاربنى الخ — تدعى صفة غير ثابتة إذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التى ذكرها . وفى نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعاً ، فافهمه .

٣٤٨ — ملامى النوى فى ظلمها غاية الظلم
لعل بها مثل الذى بى من السقم

فلو لم تغر لم تزو عنى لقاكم ولو لم تردكم لم تكن فيكم خصمى

الدعوى فى إثبات الخصومة وجعل النوى كالشىء الذى يعقل ويميز ويريد ويختار ، وحديث الغيرة والمشاركة فى هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن يفتقر منك إلى وضع اختراع .

ومما يلحق بالفن الذى بدأت به قوله :

٣٤٩ — بنفسى ما يشكوه من راح طرفه
ونرجسه مما دها حسنه ورد

أراقت دمى عمداً محاسن وجهه
فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو(٢)

لأنه قد أتى بحمرة العين وهى تعرض لها من حيث هى عين بعلة ، وأتى بإراقة الدم فى صورة العلة ، وهو يعلم أنها مخترعة موضوعة فلبس ثم إراقة دم .

---

(١) راجع ص ١٩٠ الوساطة طبعة العرفان .

(٢) هما لأبى الفرج الببغاء عبد الواحد بن نصر المخزومى من شعراء سيف الدولة ومن أهل نصيبين (توفى نحو سنة ٣٩٠هـ) .

وأصل هذا قول ابن المعتز :

٣٥٠ — قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

وبين هذا الجنس وبين نحو «الريح تحسدنى» فرق ، وذلك أن لك هناك فعلا هو ثابت واجب فى الريح ، وهو رد الرداء على الوجه ، ثم أحببت أن تتطرف فادعيت لذلك الفعل علة من عند نفسك ، وأما ههنا فنظرت إلى صفة موجودة فتأولت فيها أنها صارت إلى العين من غيرها ، وليست هى من شأنها أن تكون فى العين ، فليس معك هنا إلا معنى واحد . وأما هناك فعندك معنيان أحدهما موجود معلوم ، والآخر مدعى موهوم ، فاعرفه .

ومما يشبه هذا الفن الذى هو تأول فى الصفة فقط من غير أن يكون معلول وعلة : ماتراه من تأولهم فى الأمراض والحميات أنها ليست بأمراض ولكنها فطن ثاقبة وأذهان متوقدة وعزمات كقوله(١) :

٣٥١ — وحوشيت أن تضرى بجسمك علة
ألا أنما تلك العزوم الثواقب

وقال ابن بابك :

٣٥٢ — نقرت وما وجدت(٢) أبا العلاء
سوى فرط التوقد والذكاء

---

(١) هو أبو إبراهيم بن أحمد الشاشى من شعراء الصاحب .

(٢) يخاطب أبا العلاء السرورى : وكان ابن بابك قديم الصحبة للصاحب شديد الاختصاص به .

والكشاجم بقوله فى على بن سليمان الأخفش(١) :

٣٥٣ — ولقد أخطأ قوم زعموا أنها من فضل يردف العصب
هو ذاك الذهن أذكى ناره والمزاج المفرط الحر التهب

ولا يكون قول المتنبى :

٣٥٤ — ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا
ما عذرها فى تركها خيراتها ؟
أعجبتها شرفاً فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها

من هذا فى شىء بأكثر من أن كلا القولين فى ذكر الحمى وفى تطييب النفس عنها ، فهو اشتراك فى الغرض والجنس ، فأما فى عمود المعنى وصورته الخاصة فلا ، لأن المتنبى لم ينكر أن ما يجده الممدوح حمى كما أنكره الآخر ولكنه كأنه سأل نفسه كيف اجترأت الحمى على الممدوح مع جلالته وهيبته ؟ أم كيف جاز أن يقصد شىء إلى أذاه مع كرمه ونبله ؟ وأن المحبة من النفوس مقصورة عليه ؟ فتحمل لذلك جواباً ، ووضع للحمى فيما فعلته من الأذى عذراً ، وهو تصريح ما اقتصر فيه على التعجب فى قوله(٢) :

٣٥٥ — أيدرى ما أرابك من يريب
وهل ترقى إلى الفلك الخطوب
وجسمك فوق همة كل داء
فقرب أقلها منه عجيب

إلا أن ذلك الإبهام ، أحسن من هذا البيان ، وذلك التعجب موقوفا غير مجاب . أولى بالإعجاب ، وليس كل زيادة تفلح ، وكل استقصاء يملح .

---

(١) هو الأخفش الأصغر توفى سنة ٣١٥ .
(٢) أى المتنبى يخاطب سيف الدولة .

ومن واضح هذا النوع وجيده قول ابن المعتز(١) :

٣٥٦ — صدت شرير وأزمعت هجرى
وصغت ضمائرها إلى الغدر
قالت كبرت وشبت قلت لها
هذا غبار وقائع الدهر

ألا تراه أنكر أن يكون الذى بدأ به شيباً ، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقاً إلى نفى العيب وقطع الخصومة ، ولم يسلك الطريقة العامية فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ، ويريه الخطأ فى غيبه ، به ، ويلزمه المناقضة فى مذهبه ، كنحو مامضى أعنى كقول البحترى : «وبياض البازى » ، وهكذا إذا تأولوا فى الشيب أنه ليس بابيضاض الشعر الكائن فى مجرى العادة وموضوع الخلقة ، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر، وبان من وجهه وظهر ، كقول الطائى الكبير(٢) :

٣٥٧ — ولا يروعك إيماض القتير به
فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب

وينبغى أن(٣) باب التشبيهات قد حظى من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حداً يرد المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان وينفث فى عقد الوحشة ، وينشد ماضل عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما

---

(١) شرير : اسم محبوبته .
(٢) هو أبو تمام . القتير : هو أصول مسامير حلق الدرع تلوح فيها لامعة .. يشبه بها الشيب إذا نقب فى سواد الشعر .
(٣) لعل الأصل : وينبغى أن تعلم أن .

يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر ، فمن ذلك قول ابن الرومى :

٣٥٨ — خجلت خدود الورد من تفضيله
خجلا توردها عليــــه شاهد

لم يخجل الورد المورد لونه ... إلا وناحله الفضيلة عاند(١)
للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية أن هذا قائد ... زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هـذا موعد ... بتسلب(٢) الدنيا وهذا واعد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح سميه ... أبداً فإنك لا محالة واجد
والورد إن فكرت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمى واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما ... شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

وترتيب الصنعة فى القطعة أنه عمل أولا على قلب طرفى التشبيه كما مضى فى فصل التشبيهات ، فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه واستحكمت صورته ، طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل على النرجس ووضع فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار يتشور من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزىء ، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ، ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها ، ثم زادته الفطنة

(١) من عند إذا مال عن طريق الحق أو خالف الحق وأنكره .
(٢) السلاب : ثياب الحداد السود ، وتسلب إذا لبس السلاب .

الثاقبة والطبع المثمر فى سحر البيان ، ما رأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن واحسان لا تكاد تجد مثله إلا له .

ومما هو خليق أن يوضع فى منزلة هذه القطعة ، ويلحق بها فى لطف الصنعة ، قول أبى هلال العسكرى :

٣٥٩ — زعم البنفسج أنه كعذاره حسناً فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به فلشد ما رفع البنفسج شأنه

وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت ولطف وبدع وطرائف لا يستكثر لها الكثير من الثناء ، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء .

فمن ذلك قول ابن نباتة فى صفة الفرس :

٣٦٠ — وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا(١)
سرى خلف الصباح يطير مشيا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله(٢) فى قطعة أخرى :

٣٦١ — فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض فى أحشائه

وأول القطعة :

---

(١) هى الغرة أو يكون فوق الرأس من الحية .
(٢) أى ابن نباته أيضا .

٣٦٢ — قد جاءنا الطرف(١) الذى أهديته
هاديه يعقد(٢) أرضـــه بسمائه
أولاية وليتنا فبعثته زمحا سبيب العرف عقد لوائه(٣)
نختال منه على أغر محجل ماء الدياجى قطرة من مائه
فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض فى أحشائه
متمهلا والبرق من أسمائه متبرقعا(٤) والحسن من أكفائه
ما كانت النيران تسكن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه(٥)
لا تعلق الألحاظ فى أعطافه إلا إذا كفكفت من غلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه

ومما له فى هذا التفضيل الفضل الظاهر لحسن الإبداع مع السلامة من التكلف قوله(٦) :

٣٦٣ — وماء على الرضراض(٧) يجرى كأنه
صفائح تبر قد سكبن جداولا

(١) هو الفرس الكريم .
(٢) أى يصل .
(٣) السبيب : الخصلة من الشعر ، والعرف : شعر رقبة الفرس ، جعل شعره على العنق كأنه راية على رمح .
(٤) أى بسواده .
(٥) أى حدته ونشاطه .
(٦) هو أبو سعيد الرستمى ، وكان الصاحب يقدمه على أكثر ندمائه ، وقالها فى وصف دار بناها الصاحب بأصفهان وقد عرض كثير من الشعراء لوصفها وتهنئته بسكناها (راجع اليتيمة) .
(٧) الرضراض : ما دق من الحصى .

كأن بها من شدة الجرى جنة وقد ألبستهن الرياح سلاسلا

وإنما ساعده التوفيق ، من حيث وطىء له من قبل الطريق ، فسبق العرف بتشبيه الحبك على صفحات الغدران بحلق الدروع ، فتدرج من ذلك إلى أن جعلها سلاسل كما فعل ابن المعتز فى قوله :

٣٦٤ — وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر

ثم أتم الحذق بأن جعل للماء صفة تقتضى أن يسلسل ، وقرب مأخذ ما حاول عليه ، فإن شدة الحركة وفرط سرعتها من صفات الجنون ، كما أن التمهل فيها والتأنى من أوصاف العقل .

٣٦٥ — ومن هذا الجنس قول ابن المعتز فى السيف فى أبيات قالها فى الموفق(١) وهى :

وفارس أغمد فى جنة تقطع السيف إذا ما ورد
كأنه ماء عليه جرى حتى إذا ما غاب فيه جمد
فى كفه عضب إذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أن يخترع لهزة السيف علة ، فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته .

ويشبه أن يكون ابن بابك نظر إلى هذا البيت وعلق(٢) منه الرعدة فى قوله :

(١) هو طلحة بن المتوكل أخو الخليفة أحمد بن المعتمد بالله كان ولى العهد لأخيه المعتمد من سنة ٢٦١ هـ . لكن المنية عاجلته قبل وفاة المعتمد .
(٢) أى أخذ واقتبس .

٣٦٦ — فإن عجمتنى نيوب الخطوب
وأوهى الزمان قوى منتى(١)

فما اضطرب السيف من خيفة
ولا أرعد(٢) الرمح من قرة

إلا أنه ذهب بها فى أسلوب آخر وقصد إلى أن يقول : إن كون حركات الرمح فى ظاهر حركة المرتعد لا يوجب أن يكون ذلك من ألم عارض، وكأنه عكس القضية فأبى أن تكون صفة المرتعد فى الرمح للعلل التى لمثلها تكون فى الحيوان ؛ وأما ابن المعتز فحقق كونها فى السيف على حقيقة العلة التى لها تكون فى الحيوان فاعرفه ، وقد أعاد هذا الارتعاد على الجملة التى وصفت لك فقال :

٣٦٧ — قالوا طواه حزنه فانحنى
فقلت والشك عدو اليقين

ماهيف(٣) النرجس من صبوة
ولا الضنى فى صفرة الياسمين

ولا ارتعاد السيف من قرة
ولا انعطاف الرمح من فرط لين

ومما حقه أن يكون طرازاً (٤) فى هذا النوع قول البحترى :

٣٦٨ — يتعثرن فى النحور وفى الأو
جه سكراً لما شربن الدماء

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثراً منها ، كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزه له ارتعاداً ، ثم طلب للتعثر علة كما طلب هو للارتعاد فاعرفه .

---

(١) المنة : بضم الميم . القوة .
(٢) أى أخذته الرعدة .
(٣) أى ضمور . وهو فى الأصل دقة الخاصرة وفعله هيف كفرح .
(٤) الطراز : الجيد من كل شىء .

ومن هذا الباب قول خلية(١) :

٣٦٩ — وكأن السماء صاهرت الأ رض فصار النثار(٢) من كافور

وقول أبي تمام :

٣٧٠ — كأن السحاب الفرغيين تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع

وقال السرى يصف الهلال :

٣٧١ — جاءك شهر السرور شوال وغال شهر الصيام مغتال

ثم قال :

٣٧٢ — كأنه قيد فضة حرج فض عن الصائمين فاختالوا

كل واحد من هؤلاء خدع نفسه عن التشبيه وغالطها وأوهم أن الذى جرى العرف بأن يؤخذ منه الشبه قد حضر وحصل بحضرتهم على الحقيقة ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى يصيب له علة وأقام عليه شاهداً . فأثبت خلية زفافاً بين السماء والأرض ، وجعل أبو تمام للسحاب حبيباً قد غيب فى التراب وادعى السرى أن الصائمين كانوا فى قيد وأنه كان حرجاً فلما فض عنهم انكسر بنصفين أو اتسع فصار على شكل الهلال . والفرق بين بيت السرى وبيتى الطائيين أن تشبيه الثلج بالكافور معتاد على جار على الألسن وجعل القطر الذى ينزل من السحاب دموعاً ووصف السحاب والسماء بأنها تبكى كذلك ، فأما تشبيه الهلال بالقيد فغير معتاد نفسه إلا أن نظيره معتاد

---

(١) هى منسوبة للصاحب الوزير .
(٢) النثار : الثلج .

ومعناه من حيث الصورة موجود . وأعنى بالنظير مامضى من تشبيه الهلال بالسوار المنفصم كما قال :

٣٧٣ — حاكيا نصف سوار من نضار يتوقد(١)

وكما قال السرى(٢) نفسه :

٣٧٤ — ولاح لنا الهلال كشطر طوق
على لبات زرقاء اللباس

إلا أنه ساذج لا تعليل فيه يجب من أجله أن يكون سوارا أو طوقا فاعرفه .

ورأيت بعضهم ذكر بيت السرى الذى هو : « كأنه قيد فضة حرج » مع أبيات شعر جمعه إليها ، وأنشد قطعة ابن الحجاج :

٣٧٥ — يا صاحب البيت الذى قد مات فيه الضيف جوعا
مالى أرى فلك الرغيـ ـف لديك مشترفا رفيعا(٣)
كالبـدر لا نرجو إلى وقت المساء له طلوعا

قال : إنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين : إحداهما الاستدارة والثانى طلوعه مساء ، قال : وخير التشبيه ما جمع معنيين كقول ابن الرومى :

٣٧٦ — يا شبيه البدر فى الحسـ ـن وفى بعد المنال

---

(١) البيت لابن المعتز العباسى (- ٢٩٦ هـ) .

(٢) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادى المتوفى عام ٣٩١ هـ .

(٣) الفلك : المستدير من كل شيء ، والمشترف : من اشترف إذا انتصب وارتفع .

جند فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال

وأنشد أيضاً لإبراهيم بن المهدى(١) :

٣٧٧ — ورحت أفراعا كأفراخ القطا
وحنين والمة كقوس النازع

ثم قال : ومثله قول السرى :

٣٧٨ ، ٣٧٢ — كأنه قيد فضة حرج

وهو لا يشبه ما ذكره إلا أن يذهب إلى حديث أنه أفاد شكل الهلال بالقيد المفضوض ولونه بالفضة ، فأما إن قصد النكتة التى هى موضع الإغراب فلا يستقيم الجمع بينه وبين ما أنشد ، لأن شيئاً من تلك الأبيات لا يتضمن تعليلا ، وليس فيها أكثر من ضم شبه إلى شبه كالحنين والانحناء من القوس والاستدارة والطلوع مساء من البدر ، وليس أحد المعنين بعلة للآخر ، كيف ولا حاجة بواحد من الشيهين المذكورين إلى تصحيح غيره له .

ومما هو نظير لبيب السرى وعلى طريقة قول ابن المعتز :

٣٧٩ — سقانى وقد سل سيف الصبا
ح والليل من خوفه قد هرب

لم يقنع ههنا بالتشبيه الظاهر والقول المرسل كما اقتصر فى قوله(٢) :

٣٨٠ — حتى بدا الصباح من نقاب كما بدا المنصل من قراب

وقوله(٢) :

---

(١) من امراء البيت العباسى توفى عام ٢٢٤ هـ .

(٢) أى ابن المعتز العباسى (— ٢٩٦ هـ) .

٣٨١ — أما الظـــلام فحين رق قميصه
وأرى بياض الصبح كالسيف الصدي

ولكنه أحب أن يحقق دعواه أن هناك سيفا مسلولا، ويجعل نفسه كأنها لا تعلم أن ههنا تشبيها، وأن القصد إلى لون البياض في الشكل المستطيل فتوصل إلى ذلك بأن جعل الظلام كالعدو المنهزم الذى سل السيف في قفاه فهو يهرب مخافة أن يضرب به.

ومثل هذا في أن جعل الليل يخاف الصبح لا في الصنعة التي أنا في سياقها قوله(١):

٣٨٢ — سبقنا إليها الصبح وهو مقنع
كمين وقلب الليل منه على حذر

وقد أخذ الخالدى(٢) بيته الأول أخذاً فقال:

٣٨٣ — والصبح قـــد جردت صوارمه
والليـــل قد هم منـــه بالهرب

وهذه قطعة لابن المعتز، منها هو المقصود:

٣٨٤ — وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت
مثـــل البغى تبرجت لزناة(٣)

(١) أى ابن المعتز.
(٢) هو أبو عثمان سعيد بن هاشم الموصلي من شعراء سيف الدولة منسوب إلى خالد بلد بالموصل.
(٣) وفى رواية: تبرجت (٢: ٣٤ ديوان ابن المعتز).

جاءتك زائرة كعام أول وتلبست وتعطرت بنبات
وإذا تعرى الصبح من كافوره
نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس
قذيت وآذان حيها بممات

هذا البيت الأخير هو المراد، وذلك أن الضحك فى الورد وكل ريحان ونور يتفتح مشهور معروف، وقد قاله فى هذا البيت، وجعل الورد كأنه يعقل ويميز فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته، وإدبار دولته، وبدو أمارات الفناء فيه.

وأعاد هذا الضحك من الورد فقال(١) :

٣٨٥ — ضحك الورد فى قفا المنثور(٢)
واسترحنا من رعدة المقرور

أراد إقبال الصيف وحر الهواء، ألا تراه قال بعده :

٣٨٦ — واستطبنا المقيل فى برد ظل
وشممنا الريحان بالكافور
فالرحيل الرحيل يا عسكر اللـ
ـذات عن كل روضة وغدير

فهذا من شأن الورد الذى عابه به ابن الرومى فى قوله :

---

(١) أى ابن المعتز (٢ : ٤٦ ديوانه) .
(٢) نوع يسمى بالخيرى .

٣٨٧ — فصل القضية أن هـذا قائد
زهر الرياض وأن هـــذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهـذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر ، وابتز غيره ولاية الزمان واستبد بها .

ومما يشوب الضحك فيه شيء من التعليل قوله(١) أيضاً :

٣٨٨ — مات الهوى منى وضاع شبابى
وقضيت من لذاته آرابى
وإذا أردت تصابيا فى مجلس
فالشيب يضحك بى مع الأحباب

لا شك لهذا الضحك زيادة معنى على الضحك فى نحو قول دعبل :

٣٨٩ — (لا تعجبى يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأســـه فبكى

وما تلك الزيادة إلا أنه جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطى الرجل مالا يليق به ، وتكلفة الشيء ليس هو من أهله ، وفى ذلك ما ذكرت من إخفاء صورة التشبيه ، وأخذ النفس بتناسيه ، وهكذا قوله(٢) :

٣٩٠ — لما رأونا فى خميس يلتهب   فى شارق(٣) يضحك من غير عجب

(١) أى ابن المعتز (٢ : ١٣٥ ديوانه) .
(٢) ابن المعتز (١ : ١١ ديوانه) .
(٣) الشارق : الشمس .

كأنه صب على الأرض ذهب   وقد بدت أسيافنا من القرب
حتى تكون لمناياهم سبب   ترفل فى الحديد والأرض تجب[١]
وحن شريان[٢] ونبع فاصطخب   تترسوا من القتال بالحرب

المقصود قوله : « يضحك من غير عجب » ، وذلك أن نفيه العلة إشارة إلى أنه من جنس ما يعلل ، وأنه ضحك قطعاً وحقيقة . ألا ترى أنك لو رجعت إلى صريح التشبيه فقلت : هيئته فى تلألؤه كهيئة الضاحك ثم قلت : « من غير عجب » ، قلت قولا غير مقبول .

واعلم أنك إن عددت قول بعض العرب :

٣٩١ — ونثرة[٣] تهزأ بالنصال   كأن فيها حدق الهلال[٤]

الهلال الحية ههنا ، واللام للجنس — فى هذا القبيل ، لم يكن لك ذلك .

---

(١) تضطرب .
(٢) هما نوعان من الشجر يصنع منهما القسى والسهام وينبتان فى أعلى الجبال .
(٣) هى الدرع الواسعة .
(٤) الحية .

فصـــل

وهذا نوع آخر فى التعليل

وهو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ، ثم يجىء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى ، مثاله قول المتنبى :

٣٩٢ — ما به قتل أعاديه ولكن　　　يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلارادته هلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبى كما ترى أن العلة فى قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك .

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون فى استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير فى الذم كقصد المتنبى ههنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الحد ، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه يهزم العدا ويكسرهم كسراً لا يطمعون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم وأنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق ، ولا يعفو إذا قدر ، وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه .

ومن الغريب فى هذا الجنس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى(١) فى قصيدة يمدح بها بعض الوزراء ببخارى :

---

(١) من أدباء القرن الرابع توفى عام ٣٨٣ هـ .

٣٩٣ — مغرم بالثناء صب بكسب المجد يهتز للسماح ارتياحا

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا(١)

وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه في الأوقات التي ليست من أوقات الإذن قلوا فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم ، والإفراط في التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ، ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم أنه يحتج له وأنه من لا يرغب كل واحد في أخذ عطائه وأنه ليس في طبقة من قيل فيه :

٣٩٤ — عطاؤك زين لامرىء إن أصبته بخير وما كل العطاء يزين(٢)

ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به — أي بالاعتراض — أن الشاعر يهمه أبداً إثبات ممدوحه جواداً أو تواقاً إلى السؤال فرحاً بهم ، وأن يبرئه من عبوس البخل ، وقطوب المتكلف في البذل ، الذي يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ومن يهوى الثناء والثراء معاً ولا يتمكن في نفسه معنى قول أبي تمام :

٣٩٥ — ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرىء والدراهم(٣)

---

(١) الممدوح بذلك هو أبو نصر بن أبي زيد وكان وزير دولة السامانية ببخارى وكان قد بنى داراً عظيمة وانتقل إليها عند تقلد الوزارة سنة ٣٨٠ هـ .

(٢) هو لأمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان .

(٣) في مدح أحمد بن أبي دؤاد .

فهو يسرع إلى استماع المدائح ، ولا يبطىء عن صلة المادح ، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر فى خطرات الظنون ، وقد يجوز بشىء من الوهم الذى ذكرته على قول المتنبى(١) :

٣٩٦ — يعطى المبشر بالقصاد قبلهم   كمن يبشره بالماء عطشاناً

وهذا شىء عرض ، ولاستقصائه موضع آخر ، إن وفق الله .

وأصل بيت الطيف المستميح من نحو قوله(٢) :

٣٩٧ — وإنى لأستغشى وما بى نعسة
لعل خيالا منك يلقى خياليا

وهذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضاً من باب ما استؤنف له علة غير معروفة لا أنه لا يبلغ فى القوة ذلك المبلغ فى الغرابة والبعد من العادة وذلك أنه قد تصور أن يريد المغرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه .

ومما يلحق بهذا الفصل قوله :

٣٩٨ — رحل العزاء برحلتى فكأننى   أتبعته الأنفاس للتشييع(٣)

وذاك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ما هو

---

(١) فى مدح ابن سهل بن عبد الله الشريف الحسينى .

(٢) أى مجنون ليلى ، واستغشى ثوبه وبثوبه : إذا تغطى به ، أى أنه يطلب النوم .

(٣) من أبيات المتنبى قالها فى صباه .

المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف .

والمعنى : رحل عن العزاء بارتحالى عنكم أى عنده ومعه أو به أو بسببه ، فكأنه لما كان محل الصبر الصدر وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً صار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة .

ومما يلاحظ هذا النوع ويجرى فى مسلكه وينتظم فى سلكه قول ابن المعتز :

٣٩٩ — عاقبت عينى بالدمع والسهر إذ غار قلبى عليك من بصرى
واحتملت ذاك وهى راضية فيك وفزت بلذة النظر

وذاك أن العادة فى دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب . أو اعترض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب ، وقد ترك ذلك كله كما ترى ، وادعى أن العلة ما ذكرة من غيرة القلب منها على الحبيب وإيثاره أن ينفرد برؤيته ، وأنه بطاعة القلب وامتثال رسمه رام للعين عقوبة ، فجعل ذلك أن أبكاها ، ومنعها النوم وحماها .

وله(١) أيضاً فى عقوبة العين بالدمع والسهر من قصيدة أولها :

٤٠٠ — قل لأحلى العباد شكلا وقدا أبجد ذا الهجر أم ليس جدا
ما بذا كانت المنى حدثتنى لهف نفسى أراك قد خنت ودا
ما ترى فى متيم بك صب خاضع لا يرى من الذل بدا

(١) أى لابن المعتز .

إن زنت عينه بغيرك فاضرب   ها بطول السهاد والدمع حدا

قد نجعل البكاء والسهر عقوبة على ذنب أثبته للعين كما فعل فى البيت الأول إلا أن صورة الذنب هنا غير صورته هناك فالذنب هنا نظرها إلى غير الحبيب واستجازتها من ذلك ما هو محرم محظور ، والذنب هناك نظرها إلى الحبيب نفسه ، ومزاحمتها القلب فى رؤيته ، وغيرة القلب من العين سبب العقوبة هناك ، فأما هنا فالغيرة كائنة بين الحبيب وبين شخص آخر كما عرفته .

ولا شبهة فى قصور البيت الثانى عن الأول وأن للأول عليه فضلا كبيراً ، وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض ، وجعل الخصومة فى الحبيب بين عينيه وقلبه ، وهو تمام الظرف واللطف ، فأما الغيرة فى البيت الآخر فمثل ما يكون أبداً .

هذا ولفظ « زنت » ، وإن كان ما يتلوها من إحكام الصنعة يحسنها ، وورودها فى الخبر « العين تزنى » يؤنس بها ، فليست تدع ما هو حكمها ، من إدخال نفرة على النفس .

وإن أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصنعة فى أعجب صورة وأظرفها فانظر إلى قول القائل(١) :

٤٠١ - أتتنى تؤنبنى بالبكاء   فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفى قولها حشمة   أتبكى بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم   أمرت الدموع بتأديبها

---

(١) من الغريب أن هذه الأبيات نسبت لأبى بكر بن العربى (- ٥٤٣ هـ) - ٣ : ٨٨ أزهار الرياض للقاضى عياض - وطبعاً ورودها عند عبد القاهر يجعلها متقدمة عن ذلك .. وهى لسلم الخاسر .

أعطاك بلفظة التأديب، حسن الليب، فى صيانة اللفظ عما يحوج إلى الاعتذار، ويؤدى إلى النفار، إلا أن الأستاذية تعد ظاهرة فى بيت ابن المعتز، وليس كل فضيلة تبدو مع البديهة، بل تعقب النظر والروية، وبأن يفكر فى أول الحديث وآخره، وأنت تعلم أنه لا يكون أبلغ فى الذى أراد — من تعظيم شأن الذنب — من ذكر الحسد وأن ذلك لا يتم إلا بلفظة «زنت».

ومن هذه الجهة(١) يلحق الضيم كثيراً من شأنه وطريقته طريق أبى تمام ولم يكن من المطبوعين، وموضع البسط فى ذلك غير هذا، فغرضى الآن أن أريك أنواعاً من التخييل. وأضع شبه القوانين ليستعان بها على ما يراد من التفصيل والتبيين.

---

(١) أى إدخال أحكام الصنعة والنظر إلى أول الكلام وآخره حتى يقع الشاعر فيما يستوجب الاعتذار.

فصـــل

فى تخييـل بغير تعليل

وهذا نوع آخر من التخييل وهو يرجع إلى ما مضى من تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهمه ، إلا أن ما مضى معلل .

بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة ، تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها ، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها ، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال .

ومثاله : استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره من الفضل والقدر والسلطان ، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان ، ألا ترى إلى قول أبى تمام :

٤٠٢ — ويصعد حتى يظن الجهول ... بأن له حاجـــة فى السماء

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده ، فيجعله صاعداً فى السماء من حيث المسافة المكانية ، لما كان لهذا الكلام وجه .

ومن أبلغ ما يكون فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

٤٠٣ — أعلم الناس بالنجوم بنونو ... بخت علماً لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء(١) سمواً ... بترق فى المكرمات الصعاب
مبلغ لم يكن ليبلغه الطا ... لب إلا بتلكم الأسباب

---

(١) هذا موضع الشاهد .

وأعاده في موضع آخر فزاد الدعوى قوة ومر فيها مرور من يقول صدقا، ويذكر حقاً :

٤٠٤ — يا آل نوبخت(١) لاعدمتكم ... ولا تبدلت بعدكم بدلا
إن صح علم النجوم كان لكم ... حقاً إذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن ... قاس ولكن بأن رق فعلا
أعلاكم في السماء مجدكم ... فلستم تجهلون ما جهلا
شافهتم البدر بالسؤال عن الأ ... مر إلى أن بلغتم زحلا

وهكذا الحكم إذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضى بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة .

ومثال قوله(٢) :

٤٠٥ — قامت تظللني من الشمس ... نفس أعز علي من نفسي
قامت تظللني ومن عجب ... شمس تظللني من الشمس

فلولا أنه أنسي نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول ، وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى، فليس ببدع ولا منكر أن يظلل إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهجاً بشخصه ، وهكذا قول البحتري :

(١) هم أسرة فارسية كان أفرادها من الحكماء والأدباء في عهد المنصور وما بعده .

(٢) هو ابن العميد ، قالها وقد قام على رأسه غلام جميل يظلله من الشمس ، أوهي لرزق الله بن عبدالوهاب التميمي الواعظ في ولده أبي العباس ، وفي معجم الأدباء لياقوت : كان أبو إسحق الصابي واقفاً بين يدى عضد الدولة وعلى رأسه غلام تركي جميل فكان يظلله من الشمس ، فقال للصابي : هل قلت شيئاً يا ابراهيم ؟ فقال هذا الشعر .

٤٠٦ — طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا(١)

سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق

وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية ما يروه قط ولم تجر العادة به، ولم يتم للتعجب معناه الذى عناه ولا تظهر صورته على وضعها الخاص حتى يجترىء على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر ولا يحفل بتكذيب الظاهر له، ويسوم النفس — شاءت أم أبت — تصور شمس ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا وفقاً . وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقاً، ومدار هذا النوع(٢) الغالب على التعجب وهو والى أمره، وصانع سحره، وصاحب سره، وتراه أبداً وقد أفضى بك إلى خلابة لم تكن عندك، وبرز لك فى صورة ما حسبتها تظهر لك، ألا ترى أن صورة قوله «شمس تظللنى من الشمس» غير صورة قوله «وما عاينوا شمسين» وإن اتفق الشعران فى أنهما يتعجبان من وجود الشىء على خلاف ما يعقل ويعرف .

وهكذا قول المتنبى :

٤٠٧ — كبرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

له صورة غير صورة الأولين . وكذا قوله(٣) :

٤٠٨ — ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه

ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

تعرض صورة غير تلك الصور كلها، والاشتراك بينها عامى لا يدخل فى السرقة، إذ لا اتفاق بأكثر من أن أثبت الشىء فى جميع ذلك على خلاف ما يعرفه

---

(١) أى فأبصروا . (٢) أى البناء على تناسى التشبيه .

(٣) أى المتنبى .

الناس، فأما إذا جئت إلى خصوص ما يخرج به عن المتعارف فلا اتفاق ولا تناسب ، لأن مكان الأعجوبة مرة أن تظلل شمس من الشمس، وأخرى أن يرى للشمس مثل لها يطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق ، وثالثة أن ترى الشموس طالعة من ديارهم .

وعلى هذا الحد قوله(١) :

٤٠٩ — ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه
ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

العجب من أن يمشى البدر إلى آدمى وتعانق الأسد رجلا .

واعلم أن فى هذا النوع مذهباً هو كأنه عكس مذهب التعجب ونقيضه ، وهو لطيف جداً . وذلك أن تنظر إلى خاصية ومعنى دقيق يكون فى المشبه به ثم تثبت تلك الخاصية وذلك المعنى للمشبه وتتوصل بذلك إلى إيهام أن التشبيه قد خرج من البين ، وزال عن الوهم والعين ، أحسن توصل وألطفه ، ويقام منه شبه الحجة على أن لا تشبيه ولا مجاز .

ومثاله قوله :

٤١٠ — لا تعجبوا من بلى غلالته قد زرّ أزراره على القمر

قد عمد كما ترى إلى شىء هو خاصية فى طبيعة القمر، وأمر غريب من تأثيره، ثم جعل يرى أن قوماً أنكروا بلى الكتان بسرعة ، وأنه قد أخذ ينهاهم عن التعجب من ذلك ، ويقول : أما ترونه قد زرّ أزراره على القمر ، والقمر من شأنه أن يسرع بلى الكتان ، وغرضه بهذا كله أن يعلم أن لا شك ولا مرية فى أن المعاملة مع القمر نفسه ، وأن الحديث عنه بعينه وليس فى البين شىء غيره ، وأن التشبيه قد نسى وأنسى ، وصار — كما يقول الشيخ أبو على فيما يتعلق به الظرف — إنه شريعة منسوخة .

وهذا موضع فى غاية اللطف ، لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام

---

(١) أى المتنبى أيضاً فى المدح .

حساساً يعرف وحى طبع الشعر ، وخفى حركته التى هى كالخلس ، وكمسرى النفس فى النفس ، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم فى هذا النحو على إخفاء التشبيه ، ومحو صورته من الوهم ، فأبرز صفحة التشبيه ، واكشف عن وجهه ، وقل : لاتعجبوا من بلى غلالته ، فقد زر أزراره على من حسنه حسنُ القمر ، ثم انظر هل ترى إلا كلاماً فاتراً ، ومعنى نازلا ، وأخبر عن نفسك : هل تجد ما كنت تجده من الأريحية ، وانظر فى أعين السامعين : هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ، ودلالة على الإعجاب ومن أين ذلك وأنى ؟ وأنت بإظهار التشبيه تبطل على نفسك ماله وضع البيت ، من الإحتجاج على وجوب البلى فى الغلالة ، والمنع من العجب فيه بتقرير الدلالة.

وقد قال آخر فى هذا المعنى بعينه ، إلا أن لفظه لا ينبىء عن القوة التى لهذا البيت فى دعوى القمر ، وهو قوله(١) :

٤١١ — ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر فى كل وقت طالع فيها

ومما ينظر إلى قوله(٢) :

٤١٢ و ٤١٠ — قد زر أزراره على القمر

فى أنه بلغ فى دعواه فى المجاز حقيقة(٣) مبلغ الاحتجاج به كما يحتج بالحقيقة قول العباس بن الأحنف :

(١) هو وجيه الدولة أبو المطاع ذو القرنين بن أبى المظفر بن ناصر الدولة بن حمدان التغلبى وكان شاعراً ظريفاً جيد الابتكار حسن السبك ، هاجر إلى مصر فى أيام الظاهر بن الحاكم العبيدى الفاطمى فقلده ولاية الأسكندرية وأعمالها فأقام بها ثم رجع إلى دمشق وتوفى سنة ٤٢٨ هـ. والمعاجر جمع معجر كمنبر : ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها.

(٢) لابن طباطبا العلوى الاصفهانى (٣٢٢ هـ)

(٣) مفعول دعواه.

٤١٣ — هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

صورة هذا الكلام ونصبته(١)، والقالب الذي فيه أفرغ، يقتضى أن التشبيه لم يجر في خلده وأنه معه كما يقال «لست منه وليس مني» وأن الأمر في ذلك قد بلغ مبلغاً لا حاجة معه إلى إقامة دليل وتصحيح دعوى، بل هو في الصحة والصدق بحيث تصحح به دعوى ثانية، ألا تراه كأنه يقول النفس ما وجه الطمع في الوصول وقد علمت أن حديثك مع الشمس ومسكن الشمس السماء! أفلا تراه قد جعل كونها الشمس حجة على نفسه يصرفها بها عن أن ترجو الوصول إليها ويلجئها إلى العزاء، وردها في ذلك إلى ما لا تشك فيه وهو مستقر ثابت كما تقول «أو علمت ذلك» و «أليس قد علمت»؟ ويبين لك هذا التفسير والتقرير فضل بيان بأن تقابل هذا البيت بقول الآخر(٢):

٤١٤ — فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها
قريب ولكن في تناولها بعد

وتتأمل أمر التشبيه فيه فإنك تجده على خلاف ما وصفت لك، وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ما ذكر بعد من قرب شخصها ومثالها في العين مع بعد منالها، بل قال «هي الشمس» كذا(٣) قولا مرسلا يومىء فيه بل يفصح بالتشبيه، ولم يرد أن يقول: لا تعجبوا أن تقرب وتبعد

(١) النصبة: السارية والعمود الذي يبنى عليه البيت.

(٢) هو محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة، ونسبه الأغاني لمجنون ليلى ص ٤ ح ٢، والبيت في الوساطة ص ٢٠٤.

(٣) مفعول مطلق، وقولا بدل منه. أو «كذا» حال أي قال هي الشمس كائنا كذا أي على هذا الحال.

بعد أن علمتم أنها الشمس ، حتى كأنه يقول : ما وجه شككم فى ذلك ، ولم يشك عاقل فى أن الشمس كذلك ؟ كما أراد العباس(١) أن يقول : كيف الطمع فى الوصول إليها مع علمك بأنها الشمس وأن الشمس مسكنها السماء ! فبيت ابن أبى عيينة فى أن لم ينصرف عن التشبيه جملة ولم يبرز فى صورة الجاحد له والمتبرىء منه كبيت بشار الذى صرح فيه بالتشبيه ، وهو :

٤١٥ — أو كبدر السماء غير قريب حين يوفى والضوء فيه اقتراب(٢)

وكبيت المتنبى :

٤١٦ ـ كأنها الشمس يعيى كف قابضه شعاعها ويراه الطرف مقتربا

فإن قلت : فهذا من قولك يؤدى إلى أن يكون الغرض من ذكر الشمس بيان حال المرأة فى القرب من وجه والبعد من وجه آخر دون المبالغة فى وصفها بالحسن وإشراق الوجه وهو خلاف المعتاد لأن الذى يسبق إلى القلوب أن يقصد من نحو قولنا : هى كالشمس أوهى شمس ـ الجمال والحسن والبهاء .

فالجواب : أن الأمر وإن كان على ما قلت فإنه فى نحو هذه الأحوال التى يقصد فيها إلى بيان أمر غير الحسن يصير كالشىء الذى يعقل من طريق العرف وعلى سبيل التبع ، فأما يكون الغرض الذى له وضع الكلام فلا . وإذا تأملت قوله :

٤١٧ و ٤١٤ — فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها

وقول بشار : « أو كبدر السماء » وقول المتنبى « كأنها الشمس » ، علمت أنهم جعلوا جل غرضهم أن يصيبوا لها شبها فى كونها قريبة بعيدة . فأما حديث الحسن فدخل فى القصد على الحد الذى مضى ، وهو للعباس أيضاً ، فى قوله :

---

(١) أى ابن الأحنف . (٢) لبشار بن برد .

٤١٨ - نعمة كالشمس لما طلعت　　بثت الإشراق في كل بلد(١)

فكما أن هذا لم يضع كلامه لجعل النعمة كالشمس فى الضياء والإشراق ولكنها عمت كما تعم الشمس بإشراقها ، كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم على أن يجعلوا المرأة كالشمس والبدر فى الحسن ونور الوجه بل أموا نحو المعنى الآخر ، ثم حصل هذا لهم من غير أن احتاجوا فيه إلى تجشم ، وإذا كان الأمر كذلك فلم يقل إن النعمة إنما عمت لأنها شمس ولكن أراك لعمومها وشمولها قياساً ، وتحرى أن يكون ذلك القياس من شيء شريف له بالنعمة شبه من جهة أوصافه الخاصة فاختار الشمس .

وكذلك لم يرد ابن أبي عيينة أن يقول إنها إنما دنت ونأت لأنها شمس أو لأنها الشمس بل قاس أمرها فى ذلك كما عرفتك : وأما العباس(٢) فإنه قال : إنها إنما كانت بحيث لا تنال ووجب اليأس من الوصول إليها لأجل أنها الشمس ، فاعرفه فرقاً واضحاً .

ومما هو على طريقة بيت العباس فى الاحتجاج وإن خالفه فيما أذكر لك قول الصابي فى بعض الوزراء يهنئه بالتخلص من الاستتار(٣) :

٤١٩ — صح أن الوزير بدر منير　　إذ توارى كما توارى البدور
غاب لا غاب ثم عاد كما كا　　ن على الأفق طالعا يستنير
لا تسلني عن الوزير فقد بيـ　　ـنت بالوصف أنه سابور(٤)

---

(١) هو العباس بن الأحنف (٢٠٢ الوساطة) .

(٢) أى ابن الأحنف .　　(٣) أى الاختفاء بعد العزل من الوزارة .

(٤) هو سابور بن أردشير بن بابك وزير أبي نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه الديلمى ، وكان قد عزل من الوزارة ثم عاد لها ، وتوفى عام ٤١٦هـ .

لا خلا منه صدر دست إذا ما قر فيه تقر منه الصدور

فهو كما تراه يحتج أن لا مجاز في البين وأن ذكر البدر وتسمية الممدوح به حقيقة واحتجاجه صريح لقوله صح أنه كذلك ، وأما احتجاج العباس وصاحبه(١) في قوله :

٤٢٠ و ٤١٢ و ٤١٠ قد زر أزراره على القمر

فعلى طريق الفحوى . فهذا وجه الموافقة ، وأما وجه المخالفة فهو أنهما ادعيا الشمس والقمر بأنفسهما وادعى الصابي بدراً لا البدر على الإطلاق ، ومن ادعاء الشمس على الإطلاق قول بشار :

٤٢١ — بعثت بذكرها شعري وقدمت الهوى شركا
فلما شاقها قولي وشب الحب فاحتنكا(٢)
أتتني الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلكا
وجدت العيش في سعدى وكان العيش قد هلكا

فقوله : « ولم تك تبرح الفلكا » يريك أنه ادعى الشمس نفسها .

وقال أشجع (السلمى(٣)) يرثى الرشيد فبدأ بالتعريف ، ثم نكر فخلط إحدى الطريقتين بالأخرى ، وذلك قوله :

٤٢٢ — غربت بالمشرق الشمس فقل للعين تدمع
ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع(٤)

---

(١) هو ابن طباطبا .
(٢) معناه : استولى عليه .
(٣) توفى عام ١٩٣هـ فى العام الذى توفى فيه الرشيد .
(٤) نسبهما الطبرى إلى أبي الشيص محمد بن سليمان بن رزين الخزاعى .

فقوله : « غربت بالمشرق الشمس » على حد قول بشار :

٤٢٣ و ٤٢١ — « أتتنى الشمس زائرة »

فى أنه خيل إليك شمس السماء . وقوله بعد : « ما رأينا قط شمساً » يفتر أمر هذا التخييل ويميل بك إلى أن تكون الشمس فى قوله : « غربت بالمشرق الشمس » غير شمس السماء أعنى غير مدعى أنها هى ، وذلك مما يضطرب عليه المعنى ويقلق، لأنه إذا لم يدع الشمس نفسها لم يجب أن تكون جهة خراسان مشرقا لها وإذا لم يجب ذلك لم يحصل ما أراده من الغرابة فى غروبها من حيث تطلع . وأظن الوجه فيه أن يتأول تنكيره للشمس فى الثانى على قولهم : خرجنا فى شمس حارة . يريدون فى يوم كان للشمس فيه حرارة وفضل توقد ، فيصير كأنه قال : ما عهدنا يوماً غربت فيه الشمس من حيث تطلع ، وهوت فى جانب المشرق ، وكثيراً ما يتفق فى كلام الناس ما يوهم ضربا من التنكير فى الشمس كقولهم : « شمس صيفية » وكقوله :

٤٢٤ — « والله لا طلعت شمس ولا غربت(١) »

ولا فرق بين هذا وبين قول المتنبى(٢) :

٤٢٥ — لم ير قرن الشمس فى شرقه فشكت الأنفس فى غربه(٣)

ويجىء التنكير فى القمر والهلال على هذا الحد ، فنه قول بشار :

---

(١) قال عليه السلام لأبى الدرداء « والله ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على رجل أفضل من أبى بكر » .

(٢) يعزى أبا شجاع عضد الدولة بعمته .

(٣) المعنى لم ير الشروق مقروناً بالشك فى الغروب ، بل من رأى الشمس شارقة أيقن بغروبها .

٤٢٦ — أملي لا تأت في قمر بحديث واتق الدرعا(١)
وتوق الطيب ليلتنا إنه واش إذا سطعا

فهذا بمعنى : لا تأت في وقت قد طلع فيه القمر .

وهكذا قول عمر بن أبي ربيعة :

٤٢٧ — وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
وروح رعيان ونوم سمر(٢)

ظاهره يوهم أنه كقولك : جاءني رجل ، وليس كذلك في الحقيقة لأن الإسم لا يكون نكرة حتى يعم شيئين أو أكثر وليس هنا شيئان يعمهما إسم القمر .

وهكذا قول أبي العتاهية :

٤٢٨ — تسر إذا نظرت إلى هلال ونقصك إذ نظرت إلى الهلال

ليس المنكر غير المعرف ، على أن للهلال في هذا التنكير فضل تمكن ليس للقمر ، ألا تراه قد جمع في قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة(٣)) ولم يجمع القمر على هذا الحد .

ومن لطيف هذا التنكير قول البحتري :

---

(١) أملي : أي يا أملي ؛ الدرع كعمل هي ثلاث ليال تلي البيض ، سميت بذلك لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها . ويقال : ليلة درعاء : أي يطلع قمرها عند الصبح .

(٢) روح الرعيان : ردوا إبلهم إلى المراح . السمر : جمع سامر وهو المحادث ليلا . وقمير تصغير قمر .

(٣) جمع هلال ، جمع لأنهم سألوا عن الأوضاع المختلفة للهلال .

٤٢٩ ـ وبدرين أنضيناهما بعد ثالث   أكلناه(١) بالإيجاف حتى تمحقا

ومما أتى مستكرها نابياً يتظلم منه المعنى ويشكره قول أبي تمام :

٤٣٠ ـ قريب الندى نائي المحل كأنه   هلال قريب النور ناء منازله

سبب الاستكراه وأن المعنى ينبو عنه أنه يوهم بظاهره أن ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم أعنى أنه يتناءى مكانه ويدنو نوره وذلك محال ،فالذى يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفاً على حده فى بيت البحترى :

٤٣١ و ٩٠ ـ كالبدر أفرط فى العلو وضوءه
للعصبة السارين جد قريب

فإن قلت : أقطع وأستأنف فأقول « كأنه هلال » ، وأسكت ، ثم أبتدى وآخذ فى الحديث عن شأن الهلال بقولى « قريب النور ناء منازله » أمكنك،ولكنك تعلم ما يشكوه إليه المعنى من نبو اللفظ وسوء ملاءمة العبارة . واستقصاء هذا الموضع يقطع عن الغرض وحقه أن يفرد له فصل :

وأعود إلى حديث المجاز وإخفائه ودعوى الحقيقة وحمل النفس على تخيلها . فما يدخل فى هذا الفن ويجب أن يوازن بينه وبين ما مضى قول سعيد بن حميد :

٤٣٢ ـ وعد البدر بالزيارة ليلا   فإذا ما وفى قضيت نذورى
قلت سيدى ولم تؤثر الليل على بهجة النهار المنير ؟

---

(١) عبر بالأكل لأن الشهر الأول شهر ذهاب ومن شأن أيام الذهاب أن تمضى بسرعة .

قال لى لا أحب تغيير رسمى هكذا الرسم فى طلوع البدور

وقالوا : وله(١) فى ضده :

٤٣٣ - قلت زورى فأرسلت أنا آتيك سحره(٢)
قلت فالليل كان أخـ ـفى وأدنى مسره
فأجابت بحجة زادت القلب حسره
أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغى أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتا للزيارة فى تلك والليل فى هذه فأما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق وخصوصا من حيث ينظر الآن فمثل وشبيه : وليس بضد ولا نقيض .

ثم اعلم أنا إن وازنا بين هاتين القطعتين وبين ما تقدم من بيت العباس « هى الشمس مسكنها فى السماء » وما هو فى صورته(٣) وجدناهما أمرا بين أمرين — بين ادعاء البدر والشمس أنفسهما ، وبين إثبات بدر ثان وشمس ثانية ، ورأينا الشاعر قد شاب فى ذلك الإنكار بالاعتراف ، وصادفت صورة المجاز تعرض عنك مرة وتعرض لك أخرى . فقوله « البدر » بالتعريف مع قوله « لا أحب تغيير رسمى » وتركه أن يقول (رسم مثلى) يخيل إليك البدر نفسه ، وقوله « فى طلوع البدور » بالجمع دون أن يفرد فيقول « هكذا الرسم فى طلوع البدر » يلتفت بك إلى بدر ثان ويعطيك الاعتراف بالمجاز على وجه . وهكذا القول فى القطعة الثانية لأن قولك « أنا شمس » بالتنكير اعتراف بشمس ثانية أو كالاعتراف .

---

(١) أى لسعيد بن حميد . (٢) هى السحر الأعلى .
(٣) أى التعريف .

وبما يدل دلالة واضحة على دعوى الحقيقة ولا يستقيم إلا عليها قول المتنبي :

٤٣٤ — واستقبلت قمر السماء بوجهها
فأرتني القمرين في وقت معاً

أراد فأرتني الشمس والقمر ثم غلب اسم القمر كقول الفرزدق :

٤٣٥ — أخــــذنا بآفاق السماء عليكم
لنـا قمراها والنجوم الطوالع

لولا أنه تخيل الشمس نفسها لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف واللام معنى ، وكذلك لولا ضبطه نفسه حتى لا يجرى المجاز والتشبيه في وهمه لكان قوله « في وقت معاً » لغواً من القول فليس بعجيب أن يتراءى لك وجه غادة حسناء في وقت طلوع القمر وتوسطه السماء ، وهذا أظهر من أن يخفى . وأما تشبيه أبي الفتح[1] لهذا البيت بقول القائل[2] :

٤٣٦ — وإذا الغزالة في السماء ترفعت وبدا النهار لوقته يترجل
أبدت لوجه الشمس وجهاً مثله تلقى السماء بمثل ما تستقبل

فتشبيه على الجملة ومن حيث أصل المعنى وصورته في المعقول ، فأما الصورة الخاصة التي تحدث له بالصنعة فلم يعرض لها .

وبما له طبقة عالية في هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة وعلو المآخذ قول الفرزدق :

---

(١) أي ابن جني شارح ديوان المتنبي .
(٢) أبي نواس .

٤٣٧ — أبى أحمد الغيثين(١) صعصعة الذى
متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر
على الموت تعلم أنه غير مخفر

أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ومن لا يخطر بباله أنه مجاز فيه ومتناول له من طريق التشبيه وحتى كأن الأمر فى هذه الشهرة بحيث يقال : أى الغيثين أجود ؟ فيقال : صعصعة ، وحتى بلغ تمكن ذلك فى العرف إلى أن يتوقف السامع عند إطلاق الاسم ، فإذا قيل أتاك الغيث لم يعلم أيراد صعصعة أم المطر ؟ .

وإن أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة فى هذا التخييل وأن مصدره مصدر الشىء المتعارف الذى لا حاجة به إلى مقدمة يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقول : أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ، ثم تقول : وهو خير الغيثين لأنه لا يخلف إذا أخلفت الأنواء ، فانظر إلى موقع الاسم فإنك تراه واقعاً موقعاً لا سبيل لك فيه إلى حل عقد التثنية وتفريق المذكورين بالاسم ، وذلك أن « أفعل » لا تصح إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر فلا يقال جاءنى أفضل زيد وعمرو ، ولا أتى أعلم بكر وخالد عندى . بل ليس إلا أن تضيف إلى اسم مثنى أو مجموع فى نفسه نحو أفضل الرجلين وأفضل الرجال وذلك أن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه

---

(١) تثنية غيث وهو المطر . والمخفر مزيل الخفارة من خفره إذ حماه ومنعه ، وكان جده مشهورا فى الجاهلية بشراء البنات اللاتى يراد وأدهن لتخليصهن من الموت .

أبداً حقه أن يضاف إلى اسم يحويه وغيره ، وإذا كان الأمر كذلك علمت أن اللفظ بالتشبيه والخروج عن صريح جعل اللفظ للحقيقة متعذر عليك إذ لا يمكنك أن تقول : أي أحد الغيث والثاني له والشبيه به ، ولا شيئاً من هذا النحو ، لأنك تقع بذلك في إضافة أفعل إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر .

وإذ قد عرفت هذا فانظر إلى قول الآخر(١) :

٤٣٨ — قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنا اتفقا فرحبا بالأمير والمطر

فإنك تراه لا يبلغ هذه المنزلة وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثاً ولا يدعي فيه عرفا جارياً وأمر مشهوراً متعارفاً يعلم كل واحد منه ما يعلمه وليس يتعذر أن تقول : غيث وثان للغيث اتفقا . أو تقول : الأمير ثاني الغيث والغيث اتفقا ... فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت في مكانه وكان موضعه من الكلام أضن به وأشد محاماة عليه وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى ، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم .

وأعلم أن قول البحتري :

٣٤٩ — غيثان إن جدب تتابع أقبلا
وهما ربيع مؤمـل وخريفه

لا يكون مما نحن بصدده في شيء لأن كل واحد من الغيثين في هذا

---

(١) هو العكوك بن دعبل الخزاعي .

البيت مجاز لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث : والذى نحن بصدده هو أن يضم المجاز إلى الحقيقة فى عقد التثنية ولكن إن ضممت إليه قوله(١) :

٤٤٠ — فلم أر ضرغامين أصــــدق منكما
عراكا إذا الهيابة النكس كذبا(٢)

كان لك ذلك لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز .

فإن قلت : فهمنا شىء يردك إلى ما أبيته من بقاء حكم التشبيه فى جعله إياه الغيث وذلك أن تقدير الحقيقة فى المجاز إنما يتصور فى نحو بيت البحترى : « فلم أر ضرغامين » من حيث عمد إلى واحد من الأسود ثم جعل الممدوح أسداً على الحقيقة قد قارنه وضامه ولا سبيل للفرزدق إلى ذلك لأن الذى يقرنه إلى أبيه هو الغيث على الإطلاق . وإذا كان الغيث على الإطلاق لم يبق شىء يستحق هذا الاسم إلا ويدخل تحته وإذا كان كذلك حصل منه ألا يكون أبو الفرزدق غيثاً على الحقيقة .

فالجواب : أن مذهب ذلك ليس على ما تتوهمه ولكن على أصل فى التشبيه وهو أن يقصد إلى المعنى الذى من أجله يشبه الفرع بالأصل كالشجاعة فى الأسد والمضاء فى السيف وينحى سائر الأوصاف جانبا وذلك المعنى فى الغيث هو النفع العام . وإذا قدر هذا التقدير صار جنس الغيث كأنه عين واحدة وشىء واحد وإذا عاد بك الأمر إلى أن تتصوره

---

(١) أى البحترى أيضا .
(٢) الهيابة : كثير الخوف . النكس : الضعيف . كذب : جبن .

تصور العين الواحدة دون الجنس كان ضم أبي الفرزدق إليه بمنزلة ضمك إلى الشمس رجلا أو امرأة تريد أن تبالغ في وصفهما بأوصاف الشمس وتنزيلهما منزلتها ، كما تجده في نحو قوله :

٤٤١ — فليت طالعة الشمسين غائبة
وليت غائبة الشمسين لم تغب(١)

(١) هو من شعر المتنبي يرثي أخت سيف الدولة .

فصـــل

(فى الفرق بين التشبيه والاستعارة)

اعلم أن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على ما مضى من الوجهين :

أحدهما : أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته وذلك أن تقول « عنت(١) لنا ظبية » وأنت تريد امرأة « ووردنا بحراً » وأنت تريد الممدوح ، فأنت فى هذا النحو من الكلام إنما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له فى أصل اللغة بدليل الحال أو إفصاح المقال بعد السؤال أو بفحوى الكلام(٢) ، وما يتلوه من الأوصاف ، مثال ذلك أنك إذا سمعت قوله :

٤٤٢ — ترنح الشرب واغتالت حلومهم
شمس ترجَّلُ فيهم ثم ترتحل

استدللت بذكر الشرب واغتيال الحلوم والارتحال أنه أراد قينة(٣) ، ولو قال ترجلت شمس ولم يذكر شيئاً غيره من أحوال الآدميين لم يعقل قط أنه أراد امرأة إلا بإخبار مستأنف أو شاهد آخر من الشواهد .

ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روى أن عدى ابن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط فى قوله تعالى (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) وحمله على ظاهره فقد روى أنه قال : لما نزلت

---

(١) أى ظهرت .
(٢) أى بقرينة مقالية .
(٣) أى مغنية .

هذه الآية أخذت عقالا أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتى فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك النبي ﷺ فقال : « إن وسادك لطويل عريض إنما هو الليل والنهار » .

وثانيهما : أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول : زيد أسد وهند بدر ، وهذا الرجل الذى تراه سيف صارم على أعدائك : وقد كنت ذكرت فيما تقدم أن فى إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثانى بعض الشبهة(١) ، ووعدتك بكلام يجىء فى ذلك وهذا موضعه .

اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضى(٢) فى الوساطة ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد وهند بدر » ولكن تقول هو تشبيه(٣) فإذا قال : هو أسد ، لم تقل استعار له اسم الأسد ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول فى الأول إنه استعارة لا تتوقف فيه ولا تتحاشى ألبتة ، وإن قلت فى القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً ، من حيث تخبر عما فى نفس المتكلم وعن أصل الغرض ، وإن أردت تمام البيان قلت : أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة .

---

(١) راجع ما مضى فى هذا الكتاب ، ١٠٥ — ١٠٨ دلائل الاعجاز (خفاجى) .

(٢) الجرجانى المتوفى عام ٣٩٢ هـ .

(٣) يقول صاحب الوساطة : وقد تقرب العرب التشبيه بأن تجعل أحد الشيئين هو الآخر فتقول : زيد الأسد عاديا ، والسيف مسلولا (٣٣٤ و ٣٣٥ الوساطة) وقال فى صفحة ٤٣ : الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها .

فإن قلت : فكذلك فقل فى قولك « زيد أسد » إنه أراد تشبيهه بالأسد فأجرى اسمه عليه ألا ترى أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت : زيد أسد ، كما تقول زيد واحد من الأسود ، فما الفرق بين الحالين وقد جرى الاسم فى كل واحد منهما على المشبه ؟

فالجواب أن الفرق بيّن ، وهو أنك عزلت فى القسم الأول الاسم الأصلى عنه واطرحته وجعلته كأن ليس باسم له وجعلت الثانى هو الواقع عليه والمتناول له فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً فى نفسك مكنوناً فى ضميرك ، وصار فى ظاهر الحال وصورة الكلام وقضيته كأنه الشىء الذى وضع له الاسم فى اللغة وتصور إن تعلقه الوهم كذلك ، وليس كذلك القسم الثانى لأنك قد صرحت فيه بالمشبه وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به . وإذا سمع السامع قولك « زيد أسد » وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء استحال أن يظن — وقد صرحت له بذكر زيد — أنك قصدت أسداً وسيفاً ، وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيله فى هذا أن يقع فى نفسه من قولك : زيد أسد ، حال الأسد فى جراءته وإقدامه وبطشه ، فأما أن يقع فى وهمه أنه رجل وأسد معاً بالصورة والشخص فمحال .

ولما كان كذلك كان قصد التشبيه من هذا النحو بيناً لائحاً وكائناً من مقتضى الكلام وواجبا من حيث موضوعه حتى إن لم يحمل عليه كان محالا فالشىء الواحد لا يكون رجلا وأسداً وإنما يكون رجلا وبصفة الأسد فيما يرجع إلى غرائز النفوس والأخلاق أو خصوص فى الهيئة كالكراهة فى الوجه ، وليس كذلك الأول لأنه يحتمل الحمل على الظاهر على الصحة ، فلست بممنوع من أن تقول : عنت لنا ظبية وأنت تريد الحيوان ، وطلعت شمس وأنت تريد الشمس ، كقولك طلعت اليوم شمس حارة ،

وكذلك تقول هززت على الأعداء سيفاً ، وأنت تريد السيف ، كما تقوله وأنت تريد رجلا باسلا استعنت به ، أو رأياً ماضياً وفقت فيه ، وأصبت به من العدو فأرهبته وأثرت فيه .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين ، فيسمى الأول استعارة على الإطلاق ويقال فى الثانى إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيها فغير ممنوع ولا غريب إلا أنه على أنك تخبر عن الغرض وتنبىء عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحا فلا .

فإن قلت : فكذلك قولك « هو أسد » ليس فى ظاهره تشبيه لأن التشبيه يحصل بذكر الكاف أو « مثل » أو نحوهما .

فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن موضوعه من حيث الصورة يوجب قصدك التشبيه لاستحالة أن يكون له معنى وهو على ظاهره ، ولهمثال من طريق العادة وهو أن مثل الاسم مثل الهيئة التى يستدل بها على الأجناس كزى الملوك وزى السوقة ، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوقة ، ونفيت عنه كل شىء يختص بالسوقة ، وألبسته زى الملوك ، فأبديته للناس فى صورة الملوك ، حتى يتوهموه ملكا ، وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار أو اختبار واستدلال من غير الظاهر ، كنت قد أعرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعانى التى تدل على كونه سوقة لم تكن قد أعرته بالحقيقة هيئة الملك لأن المقصود من هيئة الملك أن يحصل بها المهابة فى النفس وأن يتوهم العظمة ، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقة .

افرض هذه الموازنة فى الشىء الواحد كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً ، وإنما أعتبر الهيئة وهى تحصل بمجموع أشياء وذلك أن الهيئة هى التى يشبه حالها حال الاسم لأن الهيئة تخص جنساً كما أن الاسم كذلك ، والثوب على الإطلاق لا يفعل ذلك إلا بخصائص تقترن به وتراعى معه ، فإذا كان السامع قولك «زيد أسد» لا يتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة لم يكن الاسم قد لحقه ولم تكن قد أعرته إياه إعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة المالك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك .

هذا — وإذا تأملنا حقيقة الاستعارة فى اللغة والعادة كان فى ذلك أيضاً بيان لصحة هذه الطريقة ووجوب الفرق بين القسمين ، وذلك أن من شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافعه على الحد الذى يحصل لذلك ؛ فإن كان ثوبا لبسه ، وإن كان أداة استعملها فى الشىء تصلح له ، حتى إن الرائى إذا رآه معه لم تنفصل حاله عنده من حال ما هو ملك يد ليس بعارية وإنما يفضله المالك فى أن له أن يتلف الشىء جملة أو يدخل التلف على بعض أجزائه قصداً وليس للمستعير ذلك ، ومعلوم أن ما هو كالمنفعة من الاسم أن يوجب ذكره القصد إلى الشىء فى نفسه : فإذا قلت : « زيد » ، علم أنك أردت أن تخبر عن الشخص المعلوم ، وإذا قلت : « لقيت أسداً » ، علم أنك علقت اللقاء بواحد من هذا الجنس ، وإذا كان الأمر كذلك ثم وجدنا الاسم فى قولك : « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ولا يعلم أنك قصدت امرأة ، فقد وقع من المرأة فى هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحة ، فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكه فيلبسه لبسه ، ويتجمل به تجمله ، ويكون مكانه عنده مكان الشىء المملوك حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له .

ولما وجدنا الاسم فى قولك « زيد أسد » لا يقع من زيد ذلك الموقع

من حيث إن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقا عليه ومتناولا له على حد تناوله ماوضع له ، وزان ذلك : وزان أن يضع الرجل عند الرجل ثوبا ويمنعه أن يلبسه أو بمنزلة أن تطرح عليه طرف ثوب كان عليه فلا يكون ذلك عارية صحيحة لأنك لم تدخله فى جملته ، ولم تعطه صورة ما يختص به ويصير إليه ويخفى كونه لك دونه ، فاعرفه(١) .

وههنا فصل آخر من طريق موضوع الكلام يبين وجوب الفرق بين القسمين ، وهو أن الحالة التى يختلف فى الاسم إذا وقع فيها : أيسمى استعارة أم لا يسمى؟ — هى الحالة التى يكون الاسم فيها خبر مبتدأ أو منزلا منزلته أعنى أن يكون خبر كان أو مفعولا ثانيا لباب علمت ، لأن هذه الأبواب كلها أصلها مبتدأ وخبر ، أو يكون حالا لأن الحال عندهم زيادة فى الخبر فحكمها حكم الخبر فيما قصدته ههنا ، خصوصا ، والاسم إذا وقع فى هذه المواضع فأنت واضع كلامك لإثبات معناه وإن أدخلت النفى على كلامك تعلق النفى بمعناه .

تفسير هذه الجملة : أنك إذا قلت « زيد منطلق » فقد وضعت كلامك لإثبات الانطلاق لزيد ، ولو نفيت فقلت « ما زيد منطلقا » كنت نفيت الانطلاق عن زيد ، وكذلك « كان منطلقا » ، وعلمت زيداً منطلقا ، ورأيت زيداً منطلقا » أنت فى ذلك كله واضع كلامك ومزجيه لتثبيت الانطلاق لزيد ، ولو خولفت فيه انصرف الخلاف إلى ثبوته ، وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت : زيد أسد : ورأيت أسداً ، فقد جعلت اسم المشبه به خبراً عن المشبه ، والاسم إذا كان خبراً عن الشىء كان خبراً عنه إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشىء كالانطلاق فى قولك « زيد منطلق » أو إثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل ، فإذا امتنع فى قولنا « زيد أسد » أن

---

(١) هذا فرق غير واضح ولا مسلم .

تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة(١) كان لإثبات شبه من الجنس له ، وإذا كنا انما تثبت شبه الجنس فقداجتلبنا الإسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله فى حيز الحصول والثبوت ، وإذا كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها إذ كان انما جاء ليفيده ويوجبه .

وأما الحالة الأخرى التى قلنا أن الإسم فيهما يكون استعارة من غير خلاف فهى حالة إذا وقع الاسم فيها لم يكن الاسم مجتلبا لإثبات معناه للشىء ولا الكلام موضوعا لذلك لأن هذا حكم لا يكون إلا إذا كان الإسم فى منزلة الخبر من المبتدأ ، فأما إذا لم يكن وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فأنت واضع كلامك لإثبات أمر آخر غير ما هو معنى الإسم .

بيان ذلك أنك إذا قلت : جاءنى أسد ورأيت أسداً ومررت بأسد ، فقد وضعت الكلام لإثبات المجىء واقعا من الأسد ، والرؤية والمرور واقعين منك عليه ، وكذلك إن قلت : الأسد مقبل ، فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد ، لا لإثبات معنى الأسد .

وإذا كان الأمر كذلك ثم قلت : عنت لنا ظبية وهززت سيفا صارما على الأعداء — وأنت تعنى بالظبية امرأة وبالسيف رجلا ، لم يكن ذكرك للإسمين فى كلامك هذا لإثبات الشبه المقصود الآن ، وكيف يتصور أن يقصد إلى إثبات الشبه منهما لشىء وأنت لم تذكر قبلهما شيئاً ينصرف إثبات الشبه إليه ، وإنما يثبت اليه من طريق الرجوع إلى الحال والبحث عن شىء فى نفس المتكلم . وإذا كان كذلك بان أن الإسم فى قولك : زيد أسد — مقصود به إيقاع التشبيه فى الحال وإيجابه .

وأما فى قولك : عنت لنا ظبية ، وسللت سيفا على العدو ، فوضع

(١) أى أنه لا على الحقيقة والتشبيه ، بل على المبالغة والتخييل .

الإسم هكذا انتهازاً واقتضاباً على المقصود وادعاء أنه من الجنس الذى وضع له الاسم فى أصل اللغة ، وإذا افترقا هذا الافتراق وجب أن يفرق بينهما فى الاصطلاح والعبارة ، كما أنا نفصل بين الخبر والصفة فى العبارة لاختلاف الحكم فيهما بأن الخبر إثبات فى الوقت للمعنى ، والصفة تبيين وتوضيح وتخصيص بأمر قد ثبت واستقر وعرف ، فكما لم نرض لاتفاق الغرض فى الخبر والصفة على الجملة واشتراكهما إذا قلت « زيد ظريف وجاءنى زيد الظريف » فى التباس زيد فى الظرف واكتسابه له أن نجعلهما فى الوضع الاصطلاحى شيئاً واحداً ولا نفرق بتسميتنا هذا خبر وذاك صفة ، كذلك ينبغى ألا يدعونا اتفاق قولنا(١) : جاءنى أسد : وهززت سيفاً صارماً ، وقولنا : زيد أسد وسيف صارم — فى مطلق التشبيه — إلى التسوية بينهما وترك الفرق من طريق العبارة ، بل وجب أن نفرق فنسمى ذاك استعارة وهذا تشبيهاً(٢) .

فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم(٣) الثانى ، فينبغى أن يعلم أن إطلاقها لا يجوز فى كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة(٤) ، وذلك نحو قولك : هو الأسد وهو شمس النهار ، وهو البدر

---

(١) فى « دلائل الإعجاز ٣٩٢ و ٣٩٣ تحقيق خفاجى » ، يشير إلى ذلك أيضاً .

(٢) راجع ص ١١٠ من الدلائل فى هذا أيضاً (تحقيق خفاجى) .

(٣) وهو مثل زيد أسد .

(٤) راجع فى هذا « المثل السائر » لابن الأثير ص ١٣٩ ، حيث فرق بين الاستعارة والتشبيه والمضمر الأداة ، بأن التشبيه يحسن فيه تقدير أداة التشبيه والاستعارة لا يحسن .

حسناً وبهجة ، والقضيب(١) عطفاً ، وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف .

فإن قلت « هو بحر وهو ليث ووجدته بحراً ، وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذر(٢) وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبثاً بطرف من الصواب ، وذلك أن الإسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت : هو كأسد وهو كبحر ، كان كلاما نازلا غير مقبول كما يكون قولك هو كالأسد ، إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه الكاف فإنه يحسن فيه « كأن » كقولك : كأنه أسد ، أو ما يجرى مجرى « كأن » في نحو « تحسبه أسداً وتخاله سيفا » فإن غمض مكان الكاف وكأن بأن يوصف الإسم الذى فيه التشبيه بصفة لا تكون في ذلك الجنس وأمر خاص غريب ، فقيل : هو بحر من البلاغة ، وهو بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب ، وكقوله(٣) :

٤٤٣ — شمس تألق والفراق غروبها عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن نسميه استعارة لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام وتبدل صورته فتقول : هو كالشمس المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف .

وقد يكون في الصفات التي تجيء في هذا النحو والصلات التي توصل بها

(١) أى الغصن . عطفاً : أى تثنيا .
(٢) راجع ما مضى من هذا الكتاب .
(٣) البيت للبحترى .

مايختل به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه ، وذلك مثل قوله(١) :

٤٤٤ ـ أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريص الموت منه(٢) ترعد

لا سبيل لك إلى أن تقول هو كالأسد وهو كالموت لما يكون فى ذلك من التناقض لأنك إذا قلت هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع المعروف ، ومحال أن تجعله محمولا فى الشبه على هذا الجنس أولا ثم تجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه دليل على أنه دونه . وقولك بعد « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل على أنه فوقها . وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ثم تجعله يخافه ، وترتعد منه أكتافه .

وكذا قوله :(٣)

٤٤٥ ـ سحاب عدانى سيله وهو مسبل وبحر عدانى فيضه وهو مفعم
وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلى منه أسود مظلم

إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت هو كالبدر ثم جئت تقول : أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلى مظلم لم يضىء به ، كنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك وذلك محال ، وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بدراً مفرداً له هذه الخاصة العجيبة التى لم تعرف للبدر ، وهذا إنما يأتى بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال هل سمعت بأن البدر يطلع فى أفق ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التى

---

(٢) أى المتنبى فى مدح شجاع بن محمد الطائى المنبجى .

(٢) الفريص : جمع فريصة وهى لحمة بين الثدى والكتف ترعد عند الفزع .

(٣) أى البحترى فى مدح الفتح بن خاقان ، ونسبه أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » ص ٢٩١ إلى أبى تمام .

هي معرضة له وكائنة في مقابلته حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوؤه ؟ ومعلوم بعد هذا من طريقة البيت فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد في جنس البدر واحدا له حكم وخاصة لم تعرف .

وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعا لا لإثبات الشبه بينه وبين البدر ولكن لإثبات الصفة في واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك : زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت . فلا يكون قصدك إثبات الصفة التي ذكرتها له فإذا خرج الإسم الذي يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالإثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذي تقدم من كون الاسم لاثبات الشبه . فالبحتري في قوله : « وبدر أضاء الأرض » قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بدراً أمر قد استقر وثبت وإنما يعمل في إثبات الصفة الغريبة والحالة التي هي موضع التعجب .

وكما يمتنع دخول الكاف في هذا النحو كذلك يمتنع دخول « كأن وتحسب وتخال » فلو قلت : كأنه بدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلي منه مظلم « كان خلفاً(١) من القول » وكذلك إن قلت « تحسبه بدراً أضاء الأرض ورحلي منه مظلم » كان كالأول في الضعف . ووجه بعده من القبول بين ، وهو أن « كأن وحسبت وخلت وظننت » تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثاني أمراً معقولا ثابتا في الجملة إلا أنه في كونه متعلقاً بما هو اسم كان أو المفعول الأول من حسبت مشكوك فيه كقولنا « كأن زيداً منطلق » أو مجاز(٢) يقصد به خلاف ظاهره نحو « كأن زيداً أسد » فالأول

---

(١) أي باطلا ، والخلف : الردىء .

(٢) هل يرى عبد القاهر أن التشبيه مجاز ؟ قد يتوهم ذلك ولكن ينفيه أن التجوز في « زيد أسد » فقد بدخول « كأن » .

على الجملة ثابت معروف والغريب هو كون زيد إياه ومن جنسه ، والنكرة في نحو هذه الأبيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شيء لا يعرف ولا يتصور . وإذا كان كذلك كان إدخال «كأن وحسبت» عليه كالقياس على المجهول :

وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانياً(١) إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً ، لأن موضوع الاستعارة كيف دارت القضية على التشبيه ، وإذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس — إذا فليت عن سره ، ونقرت عن خبيئه — فحصوله أنك تدعى حدوث شيء هو من الجنس المذكور ، إلا أنه اختص بصفة غريبة ، وخاصية ، بعيدة ، لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس ، كأنك تقول : ما كنا نعلم أن ههنا بدراً هذه صفته ، كان تقدير التشبيه فيه نقصاً لهذا الغرض لأنه لا معنى لقولك : أشبهه ببدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف .

وهذا موضع لطيف جداً لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه ، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبار لدقة مسلكه ، ويتصل به أن في الاستعارة الصحيحة مالا يحسن دخول كلم التشبيه عليه وذلك إذا قوى الشبه بين الأصل والفرع حتى يتمكن الفرع في النفس بمداخلة ذلك الأصل والاتحاد به وكونه إياه وذلك في نحو النور إذا استعير للعلم والإيمان ، والظلمة للكفر والجهل .

فهذا النحو لتمكنه وقوة شبهه ومتانة سببه قد صار كأنه حقيقة ولا يحسن لذلك أن تقول في العلم : كأنه نور ، وفي الجهل كأنه ظلمة ، ولا تكاد تقول

---

(١) أي كما ضعف إطلاق التشبيه عليه كما سبق أولا فكذلك يضعف إطلاق الاستعارة عليه .

للرجل فى هذا الجنس «كأنك قد أوقعتنى فى ظلمة» بل تقول: أوقعتنى فى ظلمة، وكذلك الأكثر على الألسن والأسبق إلى القلوب أن تقول: فهمت المسئلة فانشرح صدرى وحصل فى قلبى نور، ولا تقول: كأن نوراً حصل فى قلبى، ولكن إذا تجاوزت هذا النوع إلى نحو قولك: سللت منه سيفاً على الأعداء(١)، وجدت «كأن» حسنة هناك كثيرة كقولك. بعثته إلى العدو فكأنى سللت سيفاً، وكذلك فى نحو: زيد أسد «كأن زيداً أسد»، وهكذا يتدرج الحكم فيه حتى كلما كان مكان الشبه بين الشيئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر فى الاستعمال.

ومما يجب أن تجعله على ذكر منك أبداً وفيه البيان الشافى أن بين القسمين تبايناً شديداً أعنى بين قولك: زيد أسد، وقولك: رأيت أسداً. وهو ماقدمته لك من أنك قد تجد الشىء يصلح فى نحو: زيد أسد، حيث يذكر المشبه باسمه أولا ثم يجرى اسم المشبه به عليه ولا يصلح فى القسم الآخر الذى لا يذكر فيه المشبه أصلا وتطرحه.

ومن الأمثلة البينة فى ذلك قول أبى تمام:

٤٤٦ — وكان المطل فى بدء وعود دخاناً للصنيعة وهى نار(٢)

قد شبه المطل بالدخان والصنيعة بالنار ولكنه صرح بذكر المشبه وأوقع المشبه به خبراً عنه وهو كلام مستقيم، ولو سلكت به طريقة مايسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا: «أقبستنى ناراً لها دخان» كان ساقطاً. ولو قلت «أقبستنى نوراً أضاء أفقى به» تريد علما، كان حسناً حسنه إذا قلت: «علمك

---

(١) هذا من أساليب التجريد، ويعتبره عبد القاهر هنا استعارة.
(٢) الدخان يمنع النار من الصفاء ويبعد الناس عنها لما فيه من الإيذاء.

نور فى أفق ، والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على اسم المشبه به وتنزيله منزلته وإعطاءه الخلافة على المقصود ، إنما يصح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له وتستنيبه فى الدلالة ، وقد تقرر فى العرف الشبه بين النور والعلم وظهر واشتهر ، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية ، وبينها وبين الشمس ، ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنيعة والنار ، وإنما هو شىء يضعه الآن أبو تمام ، ويتحمله ، ويعمل فى تصويره ، فلابد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعاً حتى يعقل عنه مايريده ، وبين الغرض الذى يقصده ، وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم مثلا ، فيقول له « عندى زيد » ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول عندى رجل مثل زيد أو غيره من المعانى وذلك تكليف علم الغيب : فاعرف هذا الأصل وتبينه ، فإنك تزداد به بصيرة فى وجوب الفرق بين الضربين وذلك أنهما لو كانا يجريان مجرى واحداً فى حقيقة الاستعارة لوجب أن يستويا فى القضية حتى إذا استقام وضع الاسم فى أحدهما استقام وضعه فى الآخر فاعرفه .

فإن قلت : فما تقول فى نحو قولهم لقيت به أسدا ، ورأيت به ليثاً ؟

فإنه(١) لا وجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا : لئن لقيت فلاناً ليلقينك منه الأسد ، فأتوا به معرفة على حده إذا قالوا : احذر الأسد .

وقد جاء على هذه الطريقة ما لا يتصور فيه التشبيه ، فيظن(٢) ، أنه استعارة ، وهو قوله عز وجل (لهم فيها دار الخلد) ، والمعنى والله أعلم : أن النار هى دار الخلد ، وأنت تعلم أن لا معنى ههنا لأن يقال : إن النار

(١) هذا هو الجواب لقوله « فإن قلت » .
(٢) هذا تفريع على المنفى .

شبهت بدار الخلد ، إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشيء يسمى دار الخلد كما تقول فى زيد : إنه مثل الأسد ، ثم تقول : هو الأسد وإنما هو كقولك : النار منزلهم ومسكنهم ، نعوذ بالله منها.

وكذا قوله(١) :

٤٤٧ — يأبى الظلامة منه النوفل الزفر(٢)

المعنى على أنه النوفل الزفر ، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد فيقال إنه شبه الممدوح ، به وإنمـــا هو صفة كقولك هو الشجاع وهو السيد وهو النهاض بأعباء السيادة .

وكذا قوله(٣) :

٤٤٨ — ياخير من يركب المطى ولا   يشرب كأساً بكف من بخلا

---

(١) لأعشى باهلة من قصيدة يرثى بها أخاه المنتشر (راجع ١ : ٣٠ الكامل للمبرد) .

(٢) البيت كله نصه هو :

أخو رغائب يعطيها ويسألها   يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

والزفر: الجمل ويضرب مثلا للرجل فيقال : إنه لزفر : أى حمال للأثقال والنوفل من قولهم : إنه لذو فضل ونوافل ، وفى اللسان : الزفر السيد وأنشد البيت ثم قال : لأنه يزفر بالأموال فى الحالات مطيقا لها . وقوله « منه » مؤكدة للكلام ، والمعنى يأبى الظلامة لأنه النوفل والزفر ، ومن معانى النوفل الشجاع ، ومن معانى الزفر الأسد ، وقال المبرد : إنما يريده بعينه كقولك : لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد (١ : ٣٠ الكامل) .

(٣) هو أعشى قيس يمدح سلامة ذا فائش .

لا يتصور فيه التشبيه وإنما المعنى أنه ليس ببخيل(١) :

هذا وإنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على ما يدعى أنه مستعار له ، والاسم — فى قولك : لقيت به أسداً ، ولقينى منه الأسد — لا يتصور جريه على المذكور بوجه لأنه ليس بخبر عنه ولا صفة له ولا حال ، وإنما هو بنفسه مفعول لقيت وفاعل لقينى ، ولو جاز أن يجرى الاسم هاهنا مجرى الاستعارة المتناولة المستعار له لوجب أن تقول فى قوله :

٤٤٩ — حتى إذا جن الظلام واختلط
جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط(٢)

، إنه استعار اسم الذئب للمذق ، وذلك بين الفساد . وكذا نحو قوله(٣):

٤٥٠ — نبئت أن أبا قابوس أوعدنى
ولا قرار على زأر من الأسد

---

(١) يقول : إن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل وهو معنى لطيف (١١ الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة المحمودية القاهرة) .

(٢) لأحد الرجاز ولعله العجاج . المذق : من مذق اللبن والشراب : أى مزجه . ومثل قوله : هل رأيت الذئب يسمى الإيماء إلى التشبيه .

(٣) هو النابغة الذبيانى فى اعتذارياته للنعمان .

وزأر الأسد : من بابى فتح وضرب ، وقد شبه وعيده بزئير الأسد . والتشبيه هنا ضمنى .

لا يكون استعارة وإن كنت تجد من يفهم البيت قد يقول : أراد بالأسد النعمان أو شبهه بالأسد . لأن ذلك بيان للغرض ، فأما القضية الصحيحة وما يقع فى نفس العارف ، ويوحيه نقد الصيرف ، فإن الأسد واقع على حقيقته ، حتى كأنه قال : ولا قرار على زأر هذا الأسد ، وأشار إلى الأسد خارجا من عرينه ، مهدداً موعداً يزئيره .

وأى وجه للشك فى ذلك وهو يؤدى إلى أن يكون الكلام على حد قولك : ولا قرار على زأر من هو كالأسد ؟ وفيه من العى والفجاجة شىء غير قليل .

هذا — ومن حق غالط غلط فى نحو ماذكرت على قلة عذره ألا يغلط فى قول الفرزدق :

٤٥١ — قياما ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا(١)

ولا يتوهم أن «هلالا» استعارة لسعيد لأن الحكم على الاسم بالاستعارة مع وجود التشبيه الصريح محال جار مجرى أن يكون كل اسم دخل عليه كاف التشبيه مستعاراً . وإذا لم يغلط فى هذا فالباقى بمنزلته فاعرفه(٢) .

---

(١) يمدح الشاعر سعيد بن العاص والى المدينة .

(٢) كلام عبد القاهر فى الدلائل ص ١٠٧ فحواه أن التجريد تشبيه .. وكلامه هنا فى الأسرار ضعيف ، قابل للنقد الكثير .

فصـــل

في الاتفاق في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة(١)

اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون في الغرض على الجملة والعموم أو في وجه الدلالة على الغرض ... والاشتراك في الغرض على العموم أن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء، أو حسن الوجه والبهاء، أو وصف فرسه بالسرعة أو ماجرى هذا المجرى. وأما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر ما يستدل به على إثباته له الشجاعة والسخاء مثلا، وذلك ينقسم أقساما :

منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ والغاية البعيدة كالتشبيه بالأسد وبالبحر في البأس والجود وبالبدر والشمس في الحسن والبهاء والإنارة والإشراق.

ومنها ذكر هيئات تدل على الصفة من حيث كانت لا تكون إلا فيمن له الصفة كوصف الرجل في حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح وقلة الفكر كقوله :

٤٥٢ — كأن دنانيراً على قسماتهم وإن كان قد شف الوجوه لقاء(٢)

وكذلك الجواد يوصف بالتهلل عند ورود العفاة والارتياح لرؤية

---

(١) راجع في هذا أيضاً ٤٣١ وما بعدها من « دلائل الإعجاز » — تحقيق خفاجي.

(٢) لمحرز بن المكعبر الضبي الشاعر الجاهلي، وقيل هي لأبيه المكعبر والقسمات : الوجوه، يريد أنها تشرق عند الحرب، وشفه الهم والمرض : أوهنه. والبيت في الحماسة.

المجتدين(١) والبخيل بالعبوس والقطوب وقلة البشر مع سعة ذات اليد(٢)
ومساعدة الدهر .

* * *

فأما الاتفاق فى عموم الغرض فيما لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، لا ترى من به حس يدعى ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل فى باب الأخذ ، وإنما يقع الغلط من بعض من لا يحس التحصيل، ولا ينعم التأمل فيما يؤدى إلى ذلك حتى يدّعى عليه فى المحاجة أنه بما قاله قد دخل فى حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وأن الجهل مما يذم به ، فأما أن يقوله صريحاً ويرتكبه قصداً فلا .

* * *

وأما الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فيه: فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقراً فى العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصا فى المعنى حكم العموم الذى تقدم ذكره :

من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وبالبدر فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلاء ، ونفى الالتباس عنه والخفاء .

---

(١) أى العفاة وطلاب الخير .

(٢) ذات اليد : المال والثروة لأن المال فى اليد وصاحب اليد يقبضها ويبسطها كما يشاء .

وكذلك قياس الواحد فى خصلة من الخصال على المذكور بذلك(١) ، والمشهور به والمشار إليه . سواء كان ذلك عن حضرك فى زمانك أو كان عن سبق فى الأزمنة الماضية والقرون الخـــالية ، لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم . ولا يحتاج فى العلم به إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، وإنما هو فى حكم الغرائز المركوزة فى النفوس ، والقضايا التى وضع العلم بها فى القلوب .

وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، وبناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالأول فى حضوره إياه وكونه فى حكم مايقابله ، الذى لامعاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والاستثارة ، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كم(٢) يفتقر إلى شقه بالتفكر ، وكان دراً فى قعر بحر لابد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعاً فى شاهق لا ينال إلا بتجشم الصعود إليه ، وكامناً كالنار فى الزند لا يظهر حتى يقتدحه ، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التى لا تبدى صفحتها بالهوينى بل تنال بالحفر عنها ، وبعرق الجبين فى طلب التمكن منها :

نعم إذا كان هذا شأنه ، وههنا مكانه ، وبهذا الشرط ، يكون إمكانه ، فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ، ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر ، وأن الثانى زاد على

---

(١) كالقياس على الأحنف فى الحلم وإياس فى الذكاء مثلا .

(٢) هو ـ بكسر أوله ـ الغلاف الذى يحيط بالثمر والزهر .

الأول ونقص عنه، وترق إلى غاية أبعد، من غايته، أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته.

واعلم أن ذلك الأول — وهو المشترك العامى، والظاهر الجلى، والذى قلت: إن التفاضل لا يدخله، والتفاوت لا يصح فيه، إنما يكون كذلك إذا ما كان صريحاً ظاهراً لم تلحقه صنعة، وساذجا لم يعمل فيه نقش، فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض، والرمز والتلويح، فقد صار بما غير من طريقته، واستؤنف من صورته، واستجد له من المعرض(١)، وكسى من دل التعرض، داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل، وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه «سلبن الظباء العيون» كقول بعض العرب(٢):

٤٥٣ - سلبن ظباءَ ذى نفر طلاها ونُجْلَ الأعينِ البقرَ الصوارا(٣)

وكقوله:

٤٥٤ - ان السحاب لتستحى إذا نظرت
إلى نداك فقاسته بما فيها(٤)

---

(١) المعرض كمنبر ثوب تجلى به العروس.

(٢) هو عبيد الراعى.

(٣) الطلا بالضم جمع طلية وهى الأعناق. نجل الأعين، من إضافة الصفة إلى الموصوف، والصوار بالضم والكسر: القطيع من بقر الوحش. ذى نفر: موضع بالحجاز.

(٤) هو لأبى نواس من قصيدة يمدح بها العباس بن الفضل بن الربيع.

وكقوله(١) :

٤٥٥ — لم تلق هذا الوجه شمس نهارها
إلا بوجـــه ليس فيـــه حياء

وكقوله(٢) :

٤٥٦ — واهتز فى ورق الندى فتحيرت
حركات غصن البانة المتأود

وكقوله(٣) :

٤٥٧ — فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة
أقابل بـــدر الأفق حـــين أقابله

إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما
لديه لأمسى حـــاتم وهـو عاذله

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ولكن كنى لك عنه وخودعت فيه وأتيت به من طريق الخلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل ، فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب ، لا يدين لكل أحد ، وأبىّ العطف لا يدين به إلا للمروى المجتهد .

وإذا حققت النظر : فالخصوص الذى تراه ، والحالة التى تراها ، تنفى الاشتراك وتأباه ، إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف ، بل هو فى حد لحن القول(٤) »

(١) هو المتنبى ويروى : نهارنا .

(٢) البحترى يمدح يوسف بن محمد الثغرى .

(٣) هو البحترى من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان ، وفى كل من البيتين شاهد .

(٤) مصدر لحن له يلحن لحنا : إذا قال قولا لا يفهم عنه ويخفى على غيره ، لأنه يحيله بالتورية عن المفهوم .

والتعمية ، اللذين يتعمد فيهما إلى إخفاء المقصود ، حتى يصير المعلوم اضطراراً يعرف امتحانا واختبارا ، كقوله :

٤٥٨ — مررب بباب هند فكل(١) متنى
فــلا والله ما نطقت بحــرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام . وأن الميم موصولة باللام كذلك المشبه إذا قال : « سرقن الظباء العيون » فقد أوهم أن ثم سرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر .

وكذلك يوهمك بقوله « إن السحاب لتستحى » أن السحاب حى يعرف ويعقل ، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزى ويخجل ، فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلا شبيها بما يقع فى نفس الناظر إلى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر . فكما أن تلك تعجب وتخلب ، وتروق وتونق ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شأنه . فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه لأصحابها من الافتتان بها والإعظام لها .

كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ، ويوقعه فى النفوس من المعانى التى يتوهم بها الجامد الصامت ، فى صورة الحى الناطق ، والموات الأخرس ، فى قضية الفصيح المعرب ، والمبين المميز ؛ والمعدوم المفقود فى حكم الموجود المشاهد ، كما قدمت القول عليه فى باب التمثيل حتى يكسب الدنى رفعة ، والغامض القدر نباهة .

(١) كل : ضعف .. والمتن : الظهر .

وعلى العكس يغض من شرف الشريف ، ويطامن(١) قدر ذى العزة المنيف(٢) ، ويظلم الفضل ويتهضمه ، ويخدش وجه الجمال ويتخونه(٣) ويعطى الشبهة سلطان الحجة ، ويرد الحجة إلى صيغة الشبهة ، ويصنع من المادة الخسيسة بدعا تغلو فى القيمة وتعلو ، ويفعل من قلب الجواهر وتبديل الطبائع ، ما ترى به الكيمياء ، وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وضحت ، إلا أنها روحانية تتلبس بالأوهام والأفهام ، دون الأجسام والأجرام ، ولذلك قال :

٤٥٩ — يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة
ويقضى بما يقضى به وهو ظالم(٤)

وقال :

٤٦٠ — عليم بإبدال الحروف وقامع
لكل خطيب يقمع الحق باطله(٥)

وقال ابن سكرة فأحسن :

٤٦١ — والشعر نار بلادخان ... وللقوافى رقى لطيفة
لو هجى المسك وهو أهل ... لكل مدح لصار جيفه
كم من ثقيل المحل سام ... هوت به أحرف خفيفة

(١) أى يهبط وينزل .
(٢) المرتفع .
(٣) ينتقصه .
(٤) هو لأبى تمام من قصيدة فى مدح ابن أبى دؤاد .
(٥) هو لأبى الطروق الضبى وهو شاعر من المعتزلة يمدح واصل بن عطاء بإطالته الخطب وإجادته فيها (راجع ١ : ٣١ البيان للجاحظ) .

وقد عرفت ما كان من أمر القبيلة(١) الذين كانوا يعيرون بأنف الناقة حين قال الحطيئة(٢) :

٤٦٢ — قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟

فنفى العار ، وصحح الافتخار ، وجعل ما كان نقصاً وشينا ، فضلا وزينا ، وما كان لقباً ونبزاً يسوء السمع شرفا وعزا يرفع الطرف ، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ، ولطف القريحة الصناع . والذهن الناقد فى دقائق الإحسان والإبداع ، كما كساهم الجمال من حيث كانوا عروا منه ، وأثبتهم فى نصاب الفضل من حيث نفروا عنه ، فلرب أنف سليم قد وضع الشعر عليه حده فجدعه ، واسم رفيع قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعه ، كما قال (٣) :

٤٦٣ — يا حاجب الوزراء إنك عندهم
سعد ولكن أنت سعد الذابح(٤)

ومن العجيب فى ذلك قول القائل فى كثير بن أحمد(٥) :

٤٦٤ — لو علـــم الله فيه خيراً ما قال ، لاخير فى كثير ،

---

(١) هم بنو قريع بن جعفر .

(٢) من قصيدة يمدح بها بغيض بن عامر .

(٣) هو ابن الرومى أو جحظة أو ابن بسام فى سعد النوشرى الحاجب.

(٤) سعد الذابح كوكبان متقاربان غير نيرين بينهما فى رأى العين قيد ذراع سمى أحدهما ذابحا لأن معه كوكبا صغيراً غامضاً يكاد يلصق به وكأنه مكب عليه يذبحه ، والعرب تزعم أن هذا الكوكب الصغير هو شاته التى يذبحها ، وهو من منازل القمر .

(٥) من وزراء آل بويه ومن قضاتهم وعلمائهم .

فانظر من أى مدخل دخل عليه ، وكيف بالهوينى أهدى البلاء إليه ، وكثير هذا هو الذى يقول فيه الصاحب(١) :

٤٦٥ — ومثل كثير فى الزمان قليل

فقد صار الاسم الواحد إلى الهدم والبناء والمدح والهجاء ، وذريعة إلى التزيين والتهجين .

ومن عجيب ما اتفق فى هذا الباب قول ابن المعتز فى ذم القمر ، واجتراؤه بقدرة البيان على تقبيحه وهو الأصل والمثل ، وعليه الاعتماد والمعول فى تحسين كل حسن ، وتزيين كل مزين ، وأول ما يقع فى النفوس ، إذا أريد المبالغة فى الوصف بالجمال ، والبلوغ فيه غاية الكمال ، فيقال وجه كأنه القمر وكأنه فلقة قمر(٢) . ذلك لثقته بأن هذا القول إذا شاء سحر ، وقلب الصور ، وأنه لا يهاب أن يخرق الاجماع ، ويسحر العقول ويقتسر الطباع ، وهو (٣) :

٤٦٦ — يا سارق الأنوار من شمس الضحى

يا مثكلى طيب الكرى(٤) ومنغصى

أما ضياء الشمس فيك فناقص ... وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل ... متسلخ بهقا كلون الأبرص

---

(١) ابن عباد الوزير ، يقوله فى رثاء كثير :

يقولون لى أودى كثير بن أحمد ... وذلك رزء فى الأنام جليل

فقلت دعونى والعلا نبكه معا ... ومثل كثير فى الزمان قليل

(٢) الفلقة بالفتح نصف الشىء المفلوق كالنواة ، وبالكسر القطعة من الشىء . (٣) راجعها فى ديوان ابن المعتز طبع بيروت ٢ : ٢١٣ .

(٤) النوم فى القمر مؤرق وباعث على الاسترخاء .

وقد علم أنه ليس فى الدنيا مثلة أخزى وأشنع ، ونكال أبلغ وأفظع ، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكاراً ، ويزعج القلوب استفظاعا له واستنكاراً ، ويغرى الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، من أن يصلب المقتول ويشبح فى الجذع(١) ثم قد ترى مرثية أبى الحسن الانبارى(٢) لابن بقية(٣) حين صلب ، وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها ، وتأول فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى(٤) منه العجب :

٤٦٧ — علو فى الحياة وفى الممات ... بحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات(٥)
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات(٦)
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة

---

(١) أى يثبت عليه ممدود اليدين .
(٢) محمد بن عمران الأنبارى أحد العدول ببغداد ومن الشعراء المقلين .
(٣) هو أبو الطاهر محمد بن بقية الملقب نصير الدولة وزير عز الدولة ابن معز الدولة بن بويه المقتول سنة ٣٦٧ هـ فى عهد عضد الدولة .
(٤) أى لا يبقى بعده عجب .
(٥) العطاء . (٦) الريح الملتوية غباراً .

ركبت مطية من قبل زيد(١) علاها فى السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس تباعد عنك تعيير العداة
أسأت إلى الحوادث فاستثارت فأنت قتيل ثأر النائبات
ولو أنى قدرت على قيامى بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلال النائحات
ولكنى أصبر عنك نفسى مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

ومما هو من هذا الباب إلا أنه مع ذلك احتجاج عقلى صحيح قول المتنبى :

٤٦٨ — وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

فحق هذا أن يكون عنوان هذا الجنس وفى صدر صحيفته ، وطرازاً لديباجته ، لأنه دفع للنقص وإبطال له ، من حيث يشهد العقل للحجة التى نطق بها بالصحة ، وذلك أن الصفات الشريفة شريفة بأنفسها وليس شرفها من حيث الموصوف ، وكيف والأوصاف سبب التفاضل بين الموصوفات ، فكان الموصوف شريفاً أو غير شريف من حيث الصفة ولم تكن الصفة شريفة أو خسيسة من حيث الموصوف .

وإذا كان الأمر كذلك وجب ألا يعترض على الصفات الشريفة بشىء إن كان نقصاً فهو فى خارج منها ، وفيما لا يرجع إليها أنفسها ولا حقيقتها ،

(١) زيد بن على زين العابدين — قتله الأمويون .

وذلك الخارج ههنا هو كون الشخص على صورة دون صورة ، وإذا كان كذلك كان الأمر مقدار ضرر التأنيث إذا وجد فى الخلقة على الأوصاف الشريفة مقداره إذا وجد فى الاسم الموضوع للشىء الشريف ، لأنه فى أن لا تأثير له من طريق العقل فى تلك الأوصاف فى الحالين على صورة واحدة ؛ لأن الفضائل التى بها فضل الرجل على المرأة لم تكن فضائل لأنها قارنت صورة التذكير وخلقته ولا أوجبت ما أوجبت من التعظيم لاقترانها بهذه الخلقة دون تلك ، بل وإنما أوجبته لأنفسها ومن حث هى ، كما أن الشىء لم يكن شريفاً أو غير شريف من حيث أنث اسمه أو ذكر ، بل يثبت الشرف وغير الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها ، لا من حيث أسمائها ، لاستحالة أن يتعدى من لفظ هو صوت مسموع نقص أو فضل إلى ما جعل علامة له فاعرفه .

واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير هذا البيت والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لا أن يقال : إن المعنى أن المرأة إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت فى الظاهر امرأة ، لأجل أنه يفسد من وجهين :

أحدهما أنه قال « ولا التذكير فخر للهلال » ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهلال وإن ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك .

ولأجل أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المرأة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيرا ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال ؟ هذا بين التناقض .

فصـــل

(فى حد الحقيقة والمجاز)

واعلم أن حد كل واحد من وصفى المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به المفرد غير حده إذا كان موصوفا به الجملة(١) وأنا أبدأ بحدهما فى المفرد:

(١) المجاز عقلى ولغوى ، واللغوى استعارة ومرسل ، والاستعارة ضروب : تحقيقية ومكنية وتخييلية وإفرادية وتمثيلية . هذا هو تحديد البيانيين لأنواع المجاز وشتى ألوانه ، ولكن لن تقنع بذلك التحديد ففيه القصور ، وهو بعيد عن يشبع حاجة البحث والذوق .

والاستعارة يدخل فيها عندى التشبيه البليغ ، والحقيقة إما قياس أو غير قياس ، والقياس تشبيه وتمثيل على غير حد المبالغة . والتمثيل ألوان عدة ، وهو عندى ينتظم ما كان مثل يد الشمال مما يجعلونه استعارة مكنية . وما كان مثل أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وأخذ القوس باريها ، مما يسمونه استعارة تمثيلية ، وما وضحت فيه صورة التمثيل مثل : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً » ، وغير القياس يشمل الأمثلة المتنوعة والألوان المتعددة لأساليب الحقيقة ، كما يشمل الكناية بشتى ألوانها مما يذكر فيها التابع والرادف ويراد منه المتبوع والمردوف . ثم الكلام إما تحقيق وسم بميسم العقل والحق ، وإما تخييل ألبسه الوهم والخيال صوراً لا يؤيدها الواقع المحسوس ولا المعقول . والاستعارة التخييلية إنما هى تخييل وإيهام لا استعارة ومجاز ، والتخييل لا يستلزم المجاز ولا الاستعارة ، فلدينا من صور المجاز الأساليب الآتية :

أسلوب المجاز العقلى — أسلوب المجاز المرسل — أسلوب الاستعارة المفردة ومنها التشبيه البليغ . . وهذه الأنواع هى التى يشملها بحثنا . =

= ونريد أن نعرف : هل جاءت ألوان المجاز هذه فى كلام العرب على المبالغة أو على تقدير محذوف ؟ فأمثال هذه الأساليب : نام ليلى ، وشاعت يدك النبيلة فى الآفاق ، وجاء الأسد ظافراً من ميدان الحرب ، أهى على تقدير محذوف حتى كأن تقدير الكلام : نمت فى ليلى ، وشاعت آثار يدك النبيلة ، وجاء شبيه الأسد ، أم هى لا تجرى هذا المجرى ولا تسير على ذلك النهج ، بل جىء بها على حد المبالغة ، ليريك المتكلم الليل نائماً ، واليد تفيض بالنعم ، والأسد مقبلا ظافراً .

لا نشك ولا يشك معنا كل ذى ذوق سليم أن ليس إلى تقدير محذوف فى شتى ألوان المجاز من سبيل ، وأى بليغ وأية بلاغة أراد وتريد من نام ليلى نمت فى ليلى ، ومن « أسلوب ذاعت يدك النبيلة » ذاعت نعمة يدك ؟ ومن أسلوب : جاء الأسد ظافراً جاء شبيه الأسد ، ثم أى فرق حينئذ بين بلاغة أساليب المجاز هذه وأساليب الحقيقة المجددة ، وأى فضل لأسلوبه على أسلوبها؟ ومبنى المجاز وشتى ألوانه على المبالغة فى التصوير أو التشبيه ، وأى مبالغة تبقى حينذاك إذا ما ذهبنا هذا المذهب السطحى فى فهم بلاغة أساليب المجاز ؟..
لا يمكننا على أى حال أن نسير فى هذا النهج ولا أن نذهب هذا المذهب ، فإنما المجاز مبالغة والمبالغة لا تعرف طريق هذا التأويل ، فإنما نريد ويريد كل بليغ إذا قال : نام ليلى ، أن يصور لك الليل نائماً لتحس من وراء ذلك ما يريد ذوقه من مثل هذا الأسلوب ، وإذا قال : برت بعهد الإنسانية الكريمة يده النبيلة فإنما أراد أن يصور اليد نفسها وقد فاضت بالجود وكريم السخاء فى صورة رائعة تشير إلى أنهـا هى نفسها الجود وأنهـا مطبوعة عليه وأن آثارها لابد أن تنطلق منهـا انطلاق الخير من الغريزة الكريمة والفطرة الطاهرة الطيبة ، كما تشير إلى اليد وقد امتدت بالخير وتصورها فى صورتها الصادقة حين خرجت إلى ميدان الفعل والتنفيذ وكأنها مفكر يعمل وإنسان

. . . .

= يريد ، وإذا قال قائل : جاء الأسد الظافر فقد أراد أن يدعى لهذا القائد في شجاعته معاني الأسد في قوته . وكل ذلك محال أن يكون على سبيل تقدير محذوف .

لكن من أين أخذ العقل والفكر أصول هذه الأساليب المجازية ، ومن أين استمدها : أمن طريق الحقيقة أم من طريق التمثيل والادعاء ؟ فالاسد الظافر حضر : كيف تناول عقل أجدادنا العرب هذا الأسلوب المجازى ، أذهبوا إلى الدعوى والمبالغة فجعلوا القائد الظافر أسداً ، وصار اسم الاسد ، وهو العلم في الشجاعة ، أولى به من هذا الحيوان المفترس ، وكأن خيالهم حلق في آفاق الوهم فتخيلوه أسداً ، أم أنهم ذهبوا إلى معنى المشابهة والحقيقة والقياس والتقدير ، فقالوا : زيد شجاع كالأسد ثم قالوا جاء الاسد ، وقالوا : زيد أسد ، ثم قالوا : جاء الاسد ، وهم في صعودهم في سلم التدرج البيانى في الأداء يلاحظون معنى الحقيقة ويجعلون الأصل الأول — وهو زيد شجاع شبيه بالأسد في شجاعته — أمامهم ونصب أعينهم في كل تدرج بيانى تدرجت إليه أساليبهم في الاداء ؟

أما أنا فأذهب إلى أن العقل الأدبى والعربى والبيانى الأول وإنما استعمل هذه الأساليب الجديدة على سبيل التخييل والوهم والادعاء ، لا على طريق الحقيقة الأولى المجردة ، ونحن في استعمالنا لهذه الأساليب نسير معهم في هذه السبيل ، ورأيى أن ذلك أسلم من التكلف الذى تعثر فيه بعض البيانيين ، كما أنه آلف للذوق وأكثر ملاءمة لمشاعر الإنسان الاولى التى تنزع إلى التخييلات قبل الحقائق ، وتجد في تحليق الخيال في الآفاق سبيلا إلى التعبير عما يجيش في صدرها من عواطف يصعب على الحقيقة كثيراً أو أحيانا التعبير عنها .

أما جمهور البيانيين من أصحاب الذوق البلاغى فيرون عكس ذلك ، =

. . . .

= ويحملون الكلام على أنه فرع أصله الحقيقة ، وبناء أسه الواقع ، وأن جميع أساليب المجاز إنما هي على تقدير محذوف .. ووقف عبد القاهر موقفا وسطا ، فذهب إلى أن المجاز من أسلوب التحقيق لا التخييل ، وإلى أن المجاز على تقدير المبالغة لا على تقدير محذوف ، فإن تقدير المحذوف في رأيه أصل تنوسي ، وصار شريعة منسوخة لا ينظر إليها الذوق ، ولا يعتبرها بليغ ، وأول كلام من ذهب إلى أن الكلام على تقدير محذوف بأنهم أرادوا أنه كذلك في أصله الأول وفي شريعته المنسوخة ، أما الآن وما نفهمه من هذا السحر وذلك البيان فلا .

وعبد القاهر في إنكاره لهذا الرأي الساذج ساحر متذوق لسحر الكلام وبلاغة الأساليب ، صاعد في ذلك إلى الذروة العليا ، ولكنه في تكلفه رد تأويل من أول أسلوب المجاز على تقدير محذوف إلى أصل سليم لا يجافي الذوق ولا يعرضهم للنقد متكلف ، محاول لما يجب أن لا نسلك فيه سبيله ، ولم لا نذهب إلى خطأ رأي أمثال هؤلاء اللغويين الذين حاولوا أن يقيسوا اللغة وأساليبها بحدود الأوضاع لا بمقاييس الذوق والفطرة ؟ ولم لا نسلك سبيل البيانيين الناقدين المتذوقين لسحر الكلام وبلاغة الأساليب كالجاحظ وقد رأيناه حين مر بالبيت :

وطفقت سحـــابة تغشاها   تبكي على عراصها عيناها

حلله وأشار إلى ما أملاه ذوقه عليه ، فقال : « جعل المطر بكاء من السماء على سبيل الاستعارة » ، أو نجعل المطر بكاء من السماء إلا ونحن قد نهجنا منهج التخييل ، وصدفنا عن سبيل الحقيقة والتقدير المتكلف ؟ هذا رأيي في هذه الناحية الخطيرة في البيان وحقيقة نشأة أساليبه المجازية . =

. . . .

= ولكن ما هو نص رأى عبد القاهر الذى يحدد فكرته ، ويوضح مذهبه فى ذلك ؟

أقول إن كلام عبد القاهر فى ذلك هو غاية الغايات فى الدقة والذوق والبيان ، وهو صريح لا لبس فيه ولا التواء ، ويغنينا كل الغنى عن أن نتجشم جمع آراء البيانيين سواه من أولى الذوق اللغوى للرد عليها ونقدها .

١ — قال عبد القاهر عن المجاز العقلى ونفى أن يكون على تقدير مضاف محذوف وتعرض للاستعارة ، ما نصه :

« اعلم أن ليس الوجه أن يعد هذا على الإطلاق مما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، مثل قوله : واسأل القرية ، ومثل قول النابغة :

وكيف تواصل من أصبحت　　　خلالته كأبى مرحب

وقول الأعرابى :

حسبت بغام راحلتى عناقا　　　فما هو ويب غيرك بالعناق

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه فى تقدير : « فإنما هى ذات إقبال وإدبار » ذاك لأن المضاف المحذوف من الآية والبيتين فى سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد من المعنى ، كمثل أن يحذف الخبر أو المبتدأ إذا دل الدليل عليه ، إلى سائر ما إذا حذف كان فى حكم المنطوق به ، وليس الأمر كذلك فى بيت الخنساء ، لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا : « فإنما هى ذات إقبال وإدبار » أفسدنا الشعر ، وخرجنا إلى شىء مغسول ، وإلى شىء مغسول ، وإلى كلام عامى مرذول ، وكان سبيله سبيل من يزعم مثلا فى بيت المتنبى : « بدت قمرا ومالت خوط بان » ، أنه فى تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : بدت مثل قمر ومثل خوط بان ، فى أنا نخرج إلى الغثاثة ، وإلى شىء

. . . .

يعزل البلاغة عن سلطانها ، ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها علينا ، فالوجه أن يكون تقدير المضاف فى هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جىء به على ظاهره ، ولم يقصد إلى الذى ذكرنا من المبالغة والاتساع وأن تجعل الناقة كأنها صارت بجملتها إقبالا وإدبارا حتى كأنها تجسمت منهما ، لكان حقه حينئذ أن يجاء فيه بلفظ الذات فيقال : « إنما هى ذات إقبال وإدبار » ، فأما أن يكون الشعر الآن موضوعا على إرادة ذلك وعلى تنزيله منزلة المنطوق به ، حتى يكون الحال فيه كالحال فى « حسبت بغام راحلتى عناقا » ، فما لا مساغ له عند من كان صحيح الذوق ، صحيح المعرفة ، نسابة للمعانى (دلائل الإعجاز ص ٣٩٢) .

٢ — وقال عن المجاز المرسل ونفى أن يكون على تقدير محذوف ما نصه :

ويشبه هذا فى أن عبر عن أثر اليد والأصبع باسمهما وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم : عليه خاتم الملك ، وعليه طابع من الكرم ، والمحصول أثر الخاتم وأثر الطابع : قال : « وتترك أموال عليها الخواتم » وكذا قال الآخر : « إذا فضت خواتمها وفكت » . وأما تقدير الشيخ أبى على فى هذين البيتين حذف المضاف وتأويله على معنى : وتترك أموال عليها نقش الخواتم ، وإذا فض ختم خواتمها ، فبيان لما يقتضيه الكلام فى أصله ، دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرته من جعل أثر الخاتم خاتما ، وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصة به ، وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه ، لم تشك فى أن الأمر على ما أشرت لك إليه ، ويدل على أن المضاف وقع فى المنسأة وصار كالشريعة المنسوخة تأنيث الفعل فى قوله : وفضت خواتمها ، ولو كان حكمه باقيا لذكرت الفعل كما تذكره مع الإظهار وينظر إلى هذا قولهم ضربته سوطا ، عبروا عن الضربة الواقعة بالسوط =

. . . .

= باسمه وجعلوا أثر السوط سوطا ، وتفسيرهم له بقوله إن المعنى ضربته ضربة سوط بيان لما كان عليه الكلام فى أصله وأن ذلك قد نسى ونسخ وجعل كأن لم يكن .

٣ — وقال أيضاً عن التشبيه البليغ : إذا قلت : زيد الأسد ، فالقصد أن تبالغ فى التشبيه . فتجعل المذكور كأنه الأسد ، وتشير إلى ما يحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبه أصلا فقلت : رأيت أسداً ، فأما نحو « فإنك كالليل الذى هو مدركى » فلايجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ، ولكنك تنوى أنك أردت أن تقول إنه مثل الليل ، ثم حذفت المضاف من اللفظ ، وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف .

وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً : إن الأصل زيد مثل الأسد ، ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد ، بل على أنه جعل كأنه لم يكن ليقصد المبالغة ، ألا تراهم يقولون جعله الأسد ولا تجد أن تقول جعله الليل .

هذا هو رأى عبد القاهر فى وضوحه وقوته ودقته ، ولا يلتبس علينا بعد ذلك فهم رأى عبد القاهر فى رد الاستعارة إلى التشبيه ، فإنما يعنى بذلك الرد أن أصل الاستعارة التشبيه ، ولكن هذا الأصل نسى وصار شريعة منسوخة كما قال سابقا ، ولا بأس أن ننقل أهم فقرة لعبد القاهر فى رد الاستعارة إلى التشبيه ، لترى أن ماذكرناه فى تأويلها وفهمها صحيح لا يتعارض معه نص ، لأنه هو الذى صرح به عبد القاهر سابقاً . . قال : أما المجاز فالاسم والشهرة فيه لشيئين : الاستعارة ، والتمثيل على حد الاستعارة ، فالاستعارة أن تريد تشبيه الشىء بالشىء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجىء إلى اسم المشبه به فتستعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول رأيت رجلا

كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع ـ وإن شئت قلت : فى مواضعة ـ وقوعا لا تستند فيه إلى غيره فهى حقيقة ، وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث فى قبيلة من العرب أو فى جميع العرب أو فى جميع الناس مثلا أو تحدث اليوم ، ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمر أو مرتجلة كغطفان . وكل كلمة استؤنف بها على الجملة مواضعة أو ادعى الاستئناف فيها .

وإنما اشترطت هذا كله لأن وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم

= هو كالأسد فى شجاعته وقوة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً (دلائل الإعجاز ص ١٠٦) .

وكذلك إنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، الأصل فيه أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم رجلا ويؤخرها على الحقيقة ، كما كان الأصل فى قولك رأيت أسداً رأيت رجلا كالأسد ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة .

فالخلاصة فى ذلك : أن المجاز كله مبنى على المبالغة والادعاء لا على تقدير محذوف ، لا الآن كما يسلم به عبد القاهر ، ولا فى الأصل كما يذهب إليه اللغويون من البيانيين ، وأن أساليب المجاز تحلق فى أفق التخييل بجناح من الوهم ، وليس سيرها إلى المبالغة فى طريق الحقيقة المعبدة ، فذلك ما لم يلاحظه ذوق أجدادنا العرب ولا ذوق من ينطق بهذه الأساليب المجازية الآن ، وأن تقدير اعتماد الاستعارة على التشبيه إنما هو تقدير من عبد القاهر لأصلها الأول المنسوخ ، وإن كنا لا نوافقه فى هذه الدعوى ، ولا نسلم له ابتناء الاستعارة على التشبيه لا الآن ولا فى الأصل الأول المنسى المتروك .

فيها من حيث إن لها دلالة على الجملة لا من حيث هى عربية أو فارسية

أو سابقة فى الوضع أو محدثة مولدة ، فمن حق الحد أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالة . ونظير هذا نظير أن تضع حدا للاسم والصفة فى أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير العرب وجدته يجرى فيها جريانه العربية ، لأنك تحد من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة . ألا ترى أن حدك الخبر بأنه « ما احتمل الصدق والكذب » ، مما لا يخص لساناً دون لسان . ونظائر ذلك كثيرة ، وهو أحد ما غفل عنه الناس ودخل عليهم اللبس فيه ، حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم(١) ، قوانين عقلية ، وأن مسائله كلها مشبهة باللغة فى كونها اصطلاحا يتوهم عليها النقل(٢) ، والتبديل ، ولقد فحش غلطهم فيه ، وليس هذا موضع القول فى ذلك .

وإن أردت أن تمتحن هذا الحد فانظر إلى قولك «الاسد» تريد به السبع، فإنك تراه يؤدى جميع شرائطه لأنك قد أردت به ما تعلم أنه وقع له فى وضع واضع اللغة ، وكذلك تعلم أنه غير مستند فى هذا الوقوع إلى شيء غير السبع أى لا يحتاج أن يتصور له أصل أداه إلى السبع من أجل التباس بينهما وملاحظة . وهذا الحكم إذا كانت الكلمة حادثة ولو وضعت اليوم متى كان وضعها كذلك . وكذلك الأعلام . وذلك أنى قلت : « ما وقعت له فى وضع واضع أو مواضعة ، على التنكير ولم أقل فى وضع الواضع الذى ابتدأ اللغة أو فى المواضعة اللغوية، فيتوهم أن الاعلام أو غيرها(٣)، مما تأخر وضعه عن أصل اللغة يخرج عنه ، ومعلوم أن الرجل يواضع قومه فى أسم ابنه، فإذا سماه زيداً فالحالة الآن فيه كحال واضع اللغة حين جعله مصدراً لزاد يزيد ، وسبق واضع اللغة له فى وضعه للمصدر المعلوم لا يقدح فى اعتبارنا .

---

(١) أى البلاغة والبيان . (٢) أى الاختلاف فى الأمم .

(٣) كالحقائق الاصطلاحية :

لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعا باتاً ولا تستند حاله هذه إلى السابق من حاله بوجه من الوجوه .

وأما المجاز(١) . فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة(٢) ، بين الثانى والأول ، فهى مجاز : وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ماوقعت له فى وضع الواضع إلى مالم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ماتجوزبها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز ، ومعنى الملاحظة هو أنها تستند فى الجملة إلى غير هذا الذى تريده بها الآن إلاأن هذا الإستناد يقوى ويضعف ، بيانه مامضى من أنك إذا قلت : رأيت أسداً ، تريد رجلاشبيها بالأسد ،لم يشتبه عليك الأمر فى حاجة الثانى إلى الأول إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذى أردته على التشبيه على حد المبالغة وإيهام أن معنى من الاسد حصل فيه إلا بعد أن تجعل كونه اسماً للسبع إزاء عينيك ، فهذا استناد تعلمه ضرورة ، ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالا ، فتى عقل فرع من غير أصل ، ومشبه من غير مشبه به ؟ وكل ما طريقه التشبيه فهذا سبيله ، أعنى كل اسم جرى على الشىء للاستعارة فالإسناد فيه قائم ضرورة .

وأما ماعدا ذلك فلايقوى استناده هذه القوة حتى لو حاول محاول أن ينكره أمكنه فى ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج إلى المحال ، وذلك كاليد للنعمة ، لو تكلف متكلف فزعم أنة وضع مستأنف أو فى حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه إلابرفق وباعتبارخفى وهو ما قدمت من أنا رأيناهم لايوقعون هذا اللفظ على ما ليس بينه وبين هذه الجارحة التباس واختصاص .

---

(١) راجع باب سنن العرب فى الحقيقة والمجاز فى « الصاحبى » صـ ١٦٧ وما بعدها .

(٢) أخرج هذا مثل الأعلام المنقولة والكذب والغلط .

ودليل آخر وهو أن اليد لا تكاد تقع للنعمة إلا وفى الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها ، ولا تصلح حيث تراد النعمة مجردة من إضافة لها إلى المنعم أو تلويح به .

بيان ذلك أنك تقول : اتسعت النعمة فى البلد ، ولاتقول اتسعت اليد فى البلد ، وتقول : اقتنى نعمة ، ولا تقول اقتنى يداً . وأمثال ذلك تكثر إذا تأملت ، وإنما يقال : جلت يده عندى ، وكثرت أياديه لدى ، فتعلم أن الأصل صنائع يده وفوائده الصادرة عن يده وآثار يده ، ومحال أن تكون اليد اسماً للنعمة هكذا على الإطلاق ثم لايقع موقع النعمة ، لوجاز ذلك لجاز أن يكون المترجم للنعمة باسم لها فى لغة أخرى واضعاً اسمها من تلك اللغة فى مواضع لا تقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال .

ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل : إن له عليها إصبعاً ، أى أثراً حسناً ، وأنشدوا(١) :

٤٦٩ — ضعيف العصا بادى العروق ترى له
عليها إذا ما أجدب الناس إصبعاً (٢)

وأنشد شيخنا(٣) رحمه الله مع هذا البيت قول الآخر :

٤٧٠ — صلب العصا بالضرب قد دماها(٤)

أى جعلها كالدمى فى الحسن .

---

(١) للراعى عبيد بن حصين بن معاوية النميرى ، وهو من أشهر شعراء بنى أمية .

(٢) كناية عن الخبرة بأماكن الرعى .

(٣) هو ابن أخت أبى على الفارسى .

(٤) فى اللسان : دمى الراعى الماشية جعلها كالدمى ، وأنشد لأبى العلاء =

وكان قوله «صلب العصا» وإن كان ضد قول الآخر «ضعيف العصا»، فإنهما يرجعان إلى غرض واحد وهو حسن الرعية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها، فأراد الأول بجعله ضعيف العصا أنه رفيق بها مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة، فهو يتخير مالان من العصى، وأراد الثاني أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها في الرعى، يزجرها عن المراعى التى لا تحمد، ويتوخى بها ما تسمن عليه ويتضمن أيضاً أنه يمنعها عن التشرد والتبدد، وأنها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزيمته تنساق وتستوثق فى الجهة التى يريدها من غير أن يجدد لها فى كل حال ضربا.

وقال آخر(١) :

٤٧١ — صلب العصا جافٍ عن التغزل

فهذا لم يبين ما بينه الآخر.

وأعود إلى الغرض :

فأنت الآن لا تشك أن الإصبع مشار بها إلى إصبع اليد وأن وقوعها بمعنى الأثر الحسن ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين، ألا تراهم لا يقولون : رأيت أصابع الدار بمعنى آثار الدار، وله إصبع حسنة وإصبع

= ابن سليمان فى الإبل من رجز أوله :

صلبُ العصا برعيه دماها يود أن الله قد أفناها

إذا أرادت رشداً أغواها

وبالضرب قد دماها : تورية لطيفة وقوله «بالضرب» أى بالسير فى الأرض. وصلب العصا كناية عن صلابة الرجل وجفائه وإن لم يكن ثم عصا..

(١) هو أبو النجم الراجز.

قبيحة . على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك . وإنما أرادوا أن يقولوا: له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالإصبع لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع وما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع واللطف فى رفعها ووضعها كما يعلم فى الخط والنقش وكل عمل دقيق. وعلى ذلك قالوا فى تفسير قوله عز وجل : «بلى قادرين على أن نسوى بنانه» ، أى نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة . فكما علمت ملاحظة الإصبع لأصلها وامتناع أن تكون مستأنفة بأنك رأيتها لا يصح استعمالها حيث يراد الأثر على الاطلاق ولا يقصد الإشارة إلى حذق فى الصنعة وأن يجعل أثر الإصبع إصبعاً ، كذلك ينبغى أن تعلم ذلك فى اليد لقيام هذه العلة فيها ، أعنى إن لم تجعل أثر اليد يداً لم تقع للنعمة مجردة من هذه الإشارات وحيث لا يتصور ذلك كقولنا : اقتنى نعمة .. فاعرفه .

ويشبه هذا فى أن عبر عن أثر اليد والإصبع باسمهما وضعهم الخاتم موضع الختم كقولهم : عليه خاتم الملك وعليه طابع من الكرم، والمحصول أثر الخاتم والطابع ، قال :

٤٧٢ — وقلن حرام قد أحل بربنا
وتترك أموال عليها الخواتم

وكذا قول الآخر(١) :

٤٩٣ — إذا فضت خواتمها وفكت
يقال لها دم الودج الذبيح

وأما تقدير الشيخ أبى(٢) على فى هذين البيتين حذف المضاف وتأويله على

---

(١) أى فى وصف الخمر . والودج عرق فى الحلقوم تتوقف عليه الحياة .
(٢) أى الفارسى .

معنى : « وتترك أموال عليها نقش الخواتم » ، وإذا فض ختم خواتمها ، فبيان لما يقتضيه الكلام في أصله ، دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرت من جعل أثر الخاتم خاتماً .

وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصة به وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه لم تشك في أن الأمر على ما أشرت لك إليه ويدل على أن المضاف قد وقع في المنسأة وصار كالشريعة المنسوخة تأنيث الفعل في قوله « إذا فضت خواتمها » ، ولو كان حكمه باقياً لذكرت الفعل كما تذكره مع الإظهار ، ولاستقصاء هذا موضع آخر .

وينظر إلى هذا المكان قولهم « ضربته سوطا » ، لأنهم عبروا عن الضربة التي هي واقعة بالسوط باسمه وجعلوا أثر السوط سوطاً ، وتعلم على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم : إن المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام في أصله ، وأن ذلك قد نسي ونسخ وجعل كأن لم يكن فاعرفه .

وأما إذا أريد باليد القدرة فهي إذن أحن إلى موضعها الذي بدئت منه وأضبث بأصلها لأنك لا تكاد تجدها تراد معها القدرة إلا والكلام مثل صريح ، ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها ، أو هناك تلويح بالمثل ، فمن الصريح(١) ، قولهم : فلان طويل اليد يراد فضل القدرة(٢) ، فأنت لو وضعت القدرة ههنا في موضع اليد أحلت كما أنك لو حاولت في قول النبي ﷺ — وقد قالت له نساؤه ﷺ : أيتنا أسرع لحاقا بك يا رسول الله؟ فقال : « أطولكن يداً » — يريد السخاء والجود وبسط اليد بالبذل — أن تضع موضع اليد شيئاً مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول ، وذلك

---

(١) هذا صريح في التمثيل لأنه يمتنع فيه جعل اليد على حقيقتها ولأنك لو وضعت القدرة هنا في موضع اليد أحلت . (٢) أي عظمها .

أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك إلى هذه . فطلبه من اليد وحدها طلب الشيء على غير وجهه .

ومن الظاهر في كون الشبه مأخوذاً مما بين اليد وغيرها قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) المعنى على أنهم أمروا باتباع الأمر ، فلما كان المتقدم بين يدى الرجل خارجا عن صفة المتابع له ضرب جملة هذا الكلام مثلا للاتباع في الامر ، فصار النهى عن التقدم متعلقاً باليد نهياً عن ترك الاتباع ، فهذا مما لا يخفى على ذى عقل أنه لا تكون فيه اليد بانفرادها عبارة عن شيء كما يتوهم أنها عبارة عن النعمة ومتناولة لها كالوضع المستأنف حتى كأن لو لم تكن قط اسم جارحة ، وهكذا قول النبى ﷺ « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » المعنى وإن كان على قولك وهم عون على من سواهم . فلاتقول إن اليد بمعنى العون حقيقة ، بل المعنى : إن مثلهم مع كثرتهم في وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة في التصرف كذلك سبيل المؤمنين في تعاضدهم على المشركين ، لان كلمة التوحيد جامعة لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة ، فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه بأن اليد على انفرادها لاتقع على شيء ، فيتوهم لها نقل من معنى إلى معنى على حد وضع الاسم واستئنافه .

فأما ماتكون اليدفيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح(١)، حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين ، فكقوله تعالى « والسموات مطويات بيمينه» تراهم يطلقون

(١) هذا تلويح بالتمثيل لان اليمين واليد وضعتا هنا في موضع ليس فيه قرينة ظاهرة الوضوح مانعة من حملها على معناها الحقيقي .

باليمين بمعنى القدرة ويصلون إليه قول الشماخ(١) .

٤٧٤ — إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاهـــا عرابة باليمـــين

كما فعل أبو العباس فى « الكامل » فإنه أنشد البيت ثم قال : قال أصحاب المعانى معناه بالقوة ، وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالى « والسموات مطويات بيمينه » وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقصد إلى نفى الجارحة بسرعة ، خوفا على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه ، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين : ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التى منها يحصل على القدرة والقوة . وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل .

وكما أنا نعلم فى صدر هذه الآية وهو قوله عز وجل « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » أن محصول المعنى على القدرة ثم لا نستجيز أن نجعل القبضة اسماً للقدرة بل نصير إلى القدرة من طريق التأويل والمثل ، فنقول إن المعنى والله أعلم : أن مثل الأرض فى تصرفها تحت أمر الله وقدرته وأنه لا يشذ شىء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشىء يكون فى قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه .

كذلك حقنا أن نسلك بقوله « مطويات بيمينه » هذا المسلك ، فكأن المعنى والله أعلم أنه عز وجل يخلق فيها صفة الطى حتى ترى كالكتاب المطوى بيمين الواحد منكم ، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم للمثل(٢) وإذا كنت تقول « الأمر كله لله(٣) » فتعلم أنه على سبيل أن لا سلطان لأحد دونه ولا استبداد ، وكذلك إذا قلت للمخلوق « الأمر بيدك » أردت المثل وأن الأمر كالشىء يحصل فى يده من حيث لا يمتنع عليه — فما معنى التوقف فى

---

(١) شاعر أموى مشهور .

(٢) فى الكشاف : ولأن عادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه .

(٣) الأصح : بيد الله .

أن اليمين مثل وليست باسم القدرة ، وكاللغة المستأنفة؟ ومن أين يتصور ذلك وأنت لا تراها تصلح حيث لا وجه للمثل والتشبيه ؟ فلا يقال : هو عظيم اليمين بمعنى عظيم القدرة ، وقد عرفت يمينك على هذا ، كما تقول عرفت قدرتك ، وهكذا شأن البيت ، إذا أحسنت النظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل ولم تأخذ المعنى من مجموع التلقي واليمين على حد قولهم « تلقيته بكلتا اليدين » وكقوله(١) :

٤٧٥ — ولكن تلقت باليدين ضمانتي
وحـــل بفلج والقنافذ عودي (٢)

وقبل هذا البيت :

٤٧٦ — لعمرك ماملت ثواء ثويها حليمة إذ ألقى مراسي مقعد (٣)

وهو يشكوك إلى طبع الشعر ورأيت المعنى يتألم ويتظلم ، وإن أردت أن تختبر ذلك فقل :

٤٧٧ و ٤٦٢ — إذا ما راية رفعت لمجد
تناولهـــا (٤) عرابة باليمـــين

---

(١) هو أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المشهور .

(٢) الضمانة كالزمانة : المرض . وفلج والقنافذ : موضعان .

(٣) الثواء الإقامة والثوى (زنة فعيل) الضيف ، والمراسي : جمع مرساة وهو (هلب) السفينة ، وألقى مراسيه أقام ، والمقعد بالضم من يصاب بداء القعاد يقعد من يصاب به .

(٤) التناول أخذ يحتاج إلى قوة ، والبيت للشماخ وراجعه في ١٠٩ الشعر والشعراء و ١ : ٦٢ و ٦٣ الكامل للمبرد .

ثم انظر هل تجد ما كنت تجد إن كنت ممن يعرف طبع الشعر ، ويفرق بين التفه الذى لا يكون له طعم ، وبين الحلو اللذيذ(١) ؟ ، ومما يبين ذلك من جهة العبارة : أن الشعر كما تعلم لمدح الرجل بالجود والسخاء لأنه سأل الشماخ عما أقدمه فقال : جئت لأمتار ، فأوقر رواحله تمراً وبراً وأتحفه بغير ذلك .

وإذا كان كذلك كان المجد الذى تطاول له ومد إليه يده من المجد الذى أراده أبو تمام بقوله :

٤٧٨ — توجع أن رأت جسمى نحيفا
كأن المجـــد يدرك بالصراع

ولو كان فى ذكر البأس والبطش وحيث تراد القوة والشدة لكان حمل اليمين على صريح القوة أشبه ، وبأن يقع منه فى القلب معنى يتماسك أجدر .

فإن قال : أراد تلقاها بجد وقوة رغبة .

قيل : فينبغى أن يضع اليمين فى مثل هـــذه المواضع ومن التزم ذلك فالسكوت عنه أحسن ، ومازال الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حثه على على الأمر وأن يأخذ فيه بالجد ، أخرج يدك اليمنى ، وذاك أنها أشرف اليدين وأقواهما والتى لاغناء للأخرى دونها ، فلا عنى إنسان بشىء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله ، ومتى ما قصدوا جعل الشىء فى جهة العناية جعلوه فى اليد اليمنى ، وعلى ذلك قول البحترى :

---

(١) لأن اليمين هنا جاءت على حقيقتها ، فليست فى بلاغتها والمراد بها المجاز ومعنى القوة .

٤٧٩ — وإن يدى وقد أسندت أمرى
إليـــه اليوم فى يدك اليمـــين

«إليه» يعنى إلى يونس بن بغا وكان حظيا عند الممدوح وهو المعتز بالله، ولو أن قائلا قال :

٤٨٠ — إذا ما راية رفعت لمجد ومكرمة مددت لها اليمينا

لم تره عادلا باليمين عن الموضع الذى وضعها الشماخ(١) فيه ، ولو أن هذا التأويل منهم كان فى قول سليمان بن قتة العدوى(٢) :

٤٨١ — بنى تيم بن مرة إن ربى كفانى أمركم وكفا كونى
تخبوا مابدا لكم فإنى شديد الفرس للضغن الحرون(٣)
يمانى فقدكم أسد مدل شديد الأسر يضبث باليمين(٤)

لكانوا أعذر فيه ، لأن المدح مدح بالقوة والشدة ، وعلى ذلك فإن اعتبار الأصل الذى قدمت ، وهو أنك لا ترى اليمين حيث لا معنى لليد ، يقف بنا على الظاهر كأنه قال : إذا ضبث ضبث باليمين .

---

(١) وهو معنى القوة على المجاز .

(٢) هو شاعر إسلامى من شعراء الشيعة فى عصر التابعين ومن بنى تيم ابن كعب .

(٣) من خبت الدابة إذا أمرعت والفرس مصدر فرس الأسد فريسته كضرب إذا دق عنقها ثم استعمل فى القتل مطلقا ، والضغن : الممتلىء ضغنا ، والفرس الذى لا يعطى ما عنده من الجرى . والحرون : الصعب الذى لا ينقاد

(٤) المدل المجترىء . والأسر شدة ربط أعضائه بالأعصاب . يضبث : يقبض بكفه بشدة .

ومما يبين موضع بيت الشماخ إذا اعتبرت به قول الخنساء :

٤٨٣ — إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليـــه يداً
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعداً

إذا رجعت إلى نفسك لم تجد فرقاً بين أن يمد إلى المجد يداً وبين أن يتلقى رايته باليمين ، وهذا إن أردت الحق أبين من أن تحتاج فيه إلى فضل قول ، إلا أن هـذا الضرب من الغلط كالداء الدوى حقه أن يستقصى فى الـكى عليه والعلاج منه ، لجنايته على معانى ما شرف من الـكلام عظيمة ، وهو مادة للمتـكلفين فى التأويلات البعيدة والأقوال الشنيعة .

ومثل من توقف(١) فى التفات هـذه الأسامى إلى معانيها الأول وظن أنها مقطوعة عنها قطعاً يرفع الصلة بينها وبين ما جازت إليه ، مثل من إذا نظر فى قوله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ، فرأى المعنى على الفهم والعقل، أخذه ساذجا وقبله غفلا ، « وقال : القلب ههنا : بمعنى العقل» وترك أن يأخذه من جهته ، ويدخل إلى المعنى من طريق المثل ، فيقول إنه حين لم ينتفع بقلبه ، ولم يفهم بعد أن كان القلب للفهم ، جعل كأنه قد عدم القلب جملة وخلع من صدره خلعاً ، كما جعل الذى لا يعى الحكمة ولا يعمل الفكر فيما تدركه عينه وتسمعه أذنه كأنه عادم للسمع والبصر ، وداخل فى العمى والصمم ، ويذهب عن أن الرجل إذا قال : قد غاب عنى قلبى ، وليس يحضرنى قلبى ، فإنه يريد أن يخيل إلى السامع أنه قد فقد قلبه دون أن يقول غاب عنى علمى وعزب عقلى ، وإن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك كما أنه إذا قال : لم أكن ههنا ، يريد شدة غفلته عن الشىء ، فهو يضع كلامه

(١) الظاهر أنه يعرض بالفراء فى تفسيره حيث قال : يطلق القلب ويراد به العقل وقد كرر ذلك فى (دلائل الإعجاز ص ٢٩٤ — خفاجى) .

على تخييل أنه كان غاب هكذا بجملته وبذاته ، دون أن يريد الرجل الإخبار بأن عليه(١) لم يكن هناك .

وغرضى بهذا أن أعلمك أن من عدل عن الطريقة فى الخفى ، أفضى به الأمر إلى أن ينكر الجلى ، وصار من دقيق الخطأ إلى الجليل ، ومن بعض الانحراف إلى ترك السبيل ، والذى جلب التخليط والخبط الذى تراه فى هذا الفن ، أن الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشىء وحده ، وبين أن يؤخذ مابين شيئين ، وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفتك فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل باب من القول تدخل فيه الشبهة على الإنسان من حيث لا يعلم . وهو من السهل الممتنع ، يريك أن قد انقاد وبه إباء ، ويوهمك أن قد أثرت فيه رياضتك وبه بقية شماس .

ومن خاصيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق والمخالف ، والمعترف به والمنكر له فإنك ترى الرجل يوافقك فى الشىء منه ويقر بأنه مثل ، حتى إذا صار إلى تظير له خلط إما فى أصل المعنى وإما فى العبارة .

فالتخليط فى المعنى كما مضى من تأول اليمين على القوة ، وكذكرهم أن القلب فى الآية بمعنى العقل ، ثم عدم ذلك وجها ثانيا .

والتخليط فى العبارة كنحو ما ذكره بعضهم فى قوله(٢) :

---

(١) أى عقله .

(٢) هو الأعور الشنى كان مع على بن أبى طالب يوم الجمل ، وهو من الشعراء المحسنين وله مدائح فى صعصعة بن صوحان العبدى ، وفى العمدة لابن رشيق ، نسبه إلى عمر بن الخطاب ، وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم معرفة له .

٤٨٣ — هون عليك فإن الأمو ... ر بكف الإله مقاديرها

فإنه استشهد به فى تأويل خبر جاء فى عظم الثواب على الزكاة إذا كانت من الطيب ثم قال : الكف ههنا بمعنى السلطان والملك والقدرة ، قال : وقيل : الكف ههنا بمعنى النعمة ، والخبر هو ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ : « إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، جعل الله ذلك فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه(١) حتى يبلغ بالتمرة مثل أحد » ما يظن بمن نظر فى العربية يوما أن يتوهم أن الكف تكون على هذا الإطلاق وعلى الانفراد بمعنى السلطان والقدرة والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة ! إلا أن من سوء العبارة ما أثر التقصير فيه أظهر ، وضرره على الكلام أبين .

فاستقصاء هذا الباب لا يتم حتى يفرد بكلام ، والوجه الرجوع إلى الغرض ، ويجب أن يعلم قبل ذلك أن خلاف من خالف فى اليد واليمين وسائر ما هو مجاز لا من طريق التشبيه الصريح أو التمثيل لا يقدح فيما قدمت من حد الحقيقة والمجاز ، لأنه لا يخرج فى خلافه عن واحد من الاعتبارين ، فمتى جعل اليمين على انفرادها تفيد القوة فقد جعلها حقيقة ، وأغناها عن أن تستند فى دلالتها إلى شىء ، وإن اعترف بضرب من الحاجة إلى الجارحة والنظر إليها فقد وافق فى أنها مجاز ؟ وكذا القياس فى الباب كله فاعرفه .

---

(١) الفلو : بالفتح وتشديد الواو كعدو وبالكسر : المهر إذا فصل عن أمه ، وجمعه أفلاء كأعداء ، ومعنى بلوغ التمرة مثل أحد : ثوابها يكون فى عظمه كعظم أحد .

فصـــــل

(فى المجاز العقلى والمجاز اللغوى والفرق بينهما)

والذى ينبغى أن يذكر الآن حد الكلمة فى الحقيقة والمجاز ، إلا أنك تحتاج أن تعرف فى صدر القول عليها ومقدمته أصلا ، وهو المعنى الذى من أجله اختصت الفائدة بالجملة ، ولم تجز حصولها بالكلمة الواحدة ، كالاسم الواحد ، والفعل من غير اسم يضم إليه .

والعلة فى ذلك أن مدار الفائدة فى الحقيقة على الإثبات والنفى ، ألا ترى أن الخبر أول معانى الكلام وأقدمها والذى تستند سائر المعانى إليه وتترتب عليه ، وهو ينقسم إلى هذين الحكمين ، وإذا ثبت ذلك فإن الإثبات يقتضى مثبتاً ومثبتاً له نحو أنك إذا قلت : ضرب زيد أو زيد ضارب فقد أثبت الضرب فعلا أو وصفاً ، وكذلك النفى يقتضى منفيا ومنفيا عنه ، فإذا قلت : ما ضرب زيد ، وما زيد ضارب ، فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلا له ، فلما كان الأمر كذلك احتيج إلى شيئين يتعلق الإثبات والنفى بهما ، فيكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له ، وكذلك يكون أحدهما منفيا والآخر منفيا عنه ، فكان ذلك الشيئان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل. وقيل للمثبت والمنفى مسند وحديث وللمثبت له والمنفى عنه مسند إليه ومحدث عنه ، وإذا رمت الفائدة أن تحصل لك من الاسم الواحد أو الفعل وحده صرت كأنك تطلب أن يكون الشىء الواحد مثبتاً ومثبتاً له ومنفيا عنه وذلك محال(١) .

---

(١) يقول عبد القاهر فى أسرار البلاغة ، :

إن الجملة هى التى اختصت بها الفائدة ، فلم يجز حصولها بالكلمة الواحدة : كالاسم الواحد ، والفعل من غير اسم يضم إليه ، والعلة فى ذلك أن مدار

. . . .

= الفائدة فى الحقيقة على الإثبات والنفى ، ألا ترى أن الخبر أول معانى الكلام وأقدمها ، وهو ينقسم إلى هذين الحكمين ، وإذا ثبت ذلك فإن الإثبات يقتضى مثبتاً ومثبتاً له وكذلك النفى يقتضى منفياً ومنفياً عنه ، فلما كان الأمر كذلك احتيج إلى شيئين يتعلق بهما الإثبات النفى ، فكان ذانك الشيئان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل . وقيل للمثبت والمنفى مسند وحديث ، والمثبت له والمنفى عنه مسند إليه ومحدث عنه .

فكل واحد من حكمى الإثبات والنفى فى حاجة إلى تقييده مرتين : فضرب زيد . فيه إثبات الضرب لزيد ، فقولنا إثبات الضرب تقييد أول للإثبات بإضافته إلى الضرب ، وقولنا إثبات الضرب لزيد تقييد ثان وفى حكم إضافة ثانيه ، فليس ههنا إثبات مطلق غير مقيد بقيد : من مثبت ولا مثبت له ، وكذلك لا يتصور ههنا إثبات مقيد بقيد واحد ، وكذلك أمر النفى .

ثم تارة تثبت الشىء للشىء من جهة كونه فعلا له ، كضرب زيد ، أثبتنا الضرب لزيد من جهة كونه فعلا له ، وتارة تثبته من جهة كونه وصفاً له ، كمرض زيد ، أثبتنا المرض وصفاً له ، وهكذا سائر ما كان من أفعال الغرائز والطباع ، مما لا يوصف الإنسان بالقدرة عليه ، ككرم وظرف وحسن وطال وقصر ، وتارة تثبت الشىء من الجهتين جميعاً ، وذلك فى كل فعل دل على معنى يفعله الإنسان فى نفسه نحو قام وقعد ، فنى قام زيد إثبات للقيام من جهة كونه فعلا له ومن جهة كونه وصفاً له أيضاً .

وإذا ثبت كل ذلك فههنا أصل آخر : هو أن الأفعال على ضربين : متعد وغير متعد ، والمتعدى على ضربين : ضرب يتعدى إلى شىء هو مفعول به كضربت زيداً ، وضرب يتعدى إلى شىء هو مفعول على الإطلاق ، وهو كفعل وكل ما كان مثله فى كونه عاما غير مشتق من معنى خاص كصنع =

. . . .

= وعمل وأوجد وأنشأ ، لا سواه مما اشتق من معنى خاص ، كضرب المشتق من الضرب وأعلم المأخوذ من العلم ؛ وهذا الضرب الثانى إذا أسند إلى شىء كان المنصوب له مفعولا لذلك الشىء على الإطلاق وليس بمفعول به مثل فعل زيد القيام وخلق الله الأناسى وأنشأ العالم .. والإثبات فى هذا الضرب الثانى — الذى منصوبه مفعول وليس مفعولا به — يتعلق بنفس المفعول ، فخلق الله العالم أثبت العالم فعلا (أى خلقا) لله ، ولا يصح فى شىء من هذا الضرب أن تثبت المفعول وصفا ، أما الضرب الأول — الذى منصوبه مفعول به — فإنك تثبت فيه المعنى الذى اشتق منه فعل فعلا للشىء : كإثبات الضرب لنفسك فى ضربت زيدا ، ولا يتصور أن يلحق بالإثبات مفعوله ، لأنه إذا كان مفعولا به ولم يكن فعلا لك استحال أن تثبته فعلا وإثباته وصفاً أبعد فى الإحالة ، ففى أحيا الله زيدا أثبت الحياة فعلا لله فى زيد ، فأما ذات زيد فلم تثبتها فعلا لله بهذا الكلام وإنما ذلك بكلام آخر كخلق الله زيدا وما شاكله .

وإذا تقررت هذه المسائل فاعلم أنك إذا أردت أن تحكم على الجملة بمجاز أو حقيقة لابد لك أن تنظر إليها من جهتين :

إحداهما أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات : هل هو فى موضعه أم قد زال عن الموضع الذى يجب أن يكون فيه ؟

والثانية أن تنظر إلى المعنى المثبت — ما وقع عليه الإثبات — أهو ثابت على الحقيقة أم قد عدل به عنها ؟ كالحياة فى أحيا الله زيدا ، والشيب فى أشاب الله رأسى .

وإذا مثل لك دخول المجاز فى الجملة من الطريقين عرفت إثباتها على الحقيقة منهما .

. . . .

= فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت : وشيب أيام الفراق مفارق — البيت ، وكإثبات الشيب فعلا للأيام فهو مزال عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه ، لأن من حق هذا الإثبات — أعنى إثبات الشيب فعلا — أن لا يثبت إلا لله فلا وجود للشيب فعلا لغير الله سبحانه ، ولكنه وجه إلى الأيام ، وذلك ما لا يثبت له فعل ما ، وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى ، فالمجاز فى الإثبات دون المثبت.

ومثال ما دخل المجاز فى مثبته دون إثباته قوله تعالى « أو من كان ميتاً فأحييناه » فالمجاز فى المثبت وهو الحياة : أما الإثبات فوقع على حقيقته .

وقد يدخل المجاز على الجملة من الطريقين — وذلك بأن يشبه معنى بمعنى وصفة بصفة فيستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلا لما لا يصح الفعل منه أو فعل تلك الصفة ، مثل : أحيتنى رؤيتك ، وقول المتنبى :

وتحيى له المال الصوارم والقنا
ويقتل ما تحيى التبسم والجـــدا

ومثل الحديث : أهلك الناس الدرهم والدينار .

ثم يثبت عبد القاهر أن المجاز عقلى فى الإثبات ولغوى فى المثبت ، فيقول : وإذا تقرر ذلك فاعلم أن المجاز الواقع فى الإثبات متلق من العقل ، وفى المثبت متلق من اللغة ، فالأول عقلى والثانى لغوى ، وذلك أن الاثبات إذا كان من شرطه أن يقيد مرتين ، ولزم من ذلك ألا يحصل إلا بالجملة التى هى تأليف بين حديث ومحدث عنه (أو مسند ومسند إليه) علمت أن مأخذه العقل وأنه القاضى فيه دون اللغة ، لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم =

. . . .

= أو لتثبت وتنفى ، فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس فعلا له ، وأن المرض صفة له أو ليس بصفة ، شىء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة فى ذلك بسبيل ، ولا منها فى قليل ولا كثير ، فالوصف الذى يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز وصدق وكذب ، المرجع فيه إلى العقل لا إلى اللغة ، وهو فى جميع اللغات لأن قضايا العقل هى الأصول التى يرد إليها ما سواها .

أما إذا كان المجاز فى المثبت مثل « فأحيينا به الأرض » فأخذه اللغة ، لأجل أن طريقة المجاز بأن أجرى اسم على ما ليس بحاة تشبيها وتمثيلا ثم اشتق منها ـ وهى فى هذا التقدير ـ الفعل الذى أحيا . واللغة التى اقتضت أن تكون الحياة اسما للصفة التى هى ضد الموت ، فالتجوز فى الإسم ، بإجرائه على غيرها ؛ حديث مع اللغة لا مع العقل . ويفيض عبد القاهر إضافة باللغة فى إثبات رأيه الذى بسطناه .

فالمجاز عنده على ضربين : لغوى ـ مجاز عن طريق اللغة ـ وعقلى ـ أى من جهة العقل والمعنى ـ فالمجاز إذا وصفت به الكلمة المفردة : كاليد فى النعمة والأسد فى الشجاع فذلك حكم أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة ، لأن المتكلم جاز باللفظة أصلها اللغوى وأوقعها على غيره ، تشبيها أو لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه ، أما إذا وصف به الجملة فذلك مجاز من طريق العقل لا اللغة ، لأن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هى جمل لا يصح ردها إلى اللغة ، ولا وجه لنسبتها إلى واضع اللغة ، لأن التأليف ـ وهو إسناد فعل أو اسم إلى اسم ـ شىء يحصل بقصد المتكلم فليس ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له ، وليس ليضرب زيد ، =

. . . .

= أمراً لزيد باللغة ، ولا : «اضرب» أمراً للذى تخاطبه دون سواه باللغة ، بل بك أيها المتكلم ، فالذى يعود إلى اللغة أن «ضرب» لإثبات الضرب ، وأنه لإثباته فى الماضى ، فأما تعين من يثبت له فيتعلق بالمتكلم ، فمثلا قولك : «خط أحسن مما وشاه الربيع» ، فيه دعوى فى ظاهر اللفظ للربيع فعلا ، وأنه شارك الحى القادر فى صحة الفعل منه ، وذلك تجوز به من حيث المعقول لا من حيث اللغة ، وإلا لصرنا كأنا نقول : إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وأنها لو حكمت بصحة الفعل من الجماد لكان ما هو مجاز الآن حقيقة ، وذلك محال ، وإنما يتصور هذا فى الكلم المفردة كاليد النعمة ، إذ يصح أن يقال : إن واضع اللغه لو كان قد وضع اليد أولا للنعمة ثم عداها إلى الجارحة لكان حقيقة فيما هو الآن مجاز ، ومجازاً فيما هو حقيقة ، فلم يكن بواجب من حيث المعقول أن يكون «اليد» اسما للجارحة دون النعمة ولا فى العقل أن شيئاً بلفظ أن يكون دليلا عليه أولى منه بلفظ آخر ، ووزان ذلك وزان أشكال الخط التى جعلت أمارة على أجراس الحروف المسموعة ، فى أنه لا يتصور أن يكون العقل هو الذى اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لإصطلاح سابق ، ولو كان كذلك لم تختلف المواضعات فى الألفاظ والخطوط ، ولكانت اللغات واحدة ، كما وجب فى عقل كل عاقل أن لا يثبت الفعل على الحقيقة إلا للحى القادر .

أما معنى المجاز فيفيض عبد القاهر فى تحديده ، ويقسمه إلى لغوى فى المفرد (استعارة ، ومجاز مرسل) ، وإلى مجاز فى الجملة أو فى الإثبات وهو المجاز العقلى ، تحديداً واضحاً وتقسيما لا لبس فيه .

ويفيض فى شرح القرينة وأقسامها ، ويرد على من يصف المجاز بغير الصدق رداً مقنعاً .

=

. . . .

= ويسهب فى الفرق بين المجاز فى الكلمة والمجاز فى الإثبات .

وهو لا ينسى أن يتكلم على بلاغة المجاز العقلى فى فهم أدبى سليم وذوق عربى مطبوع ، وفهم لأسرار بلاغة العرب فيما تعاطوه من أسلوب المجاز العقلى .

ويشرح رأيه فى أنه ليس بواجب فى المجاز العقلى أن يكون للفعل فاعل فى التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة ، شرحا واسعاً بليغاً .

كما يؤكد نظريته من أن المجاز العقلى ليس على حذف مضاف تأكيداً جازماً قوياً .

وبعد فإن جملة ما ذكره عبد القاهر فى المجاز العقلى هو :

١ — إثبات وجود المجاز العقلى وبيان سر الفرق بينه وبين المجاز فى الكلمة .

٢ — بيان أن المجاز فى الإثبات عقلى وفى الكلمة المثبتة لغوى .

٣ — بيان حد هذين النوعين فى المجاز (المجاز الحكمى والمجاز فى المفرد) .

٤ — بيان القرينة على التجوز فى المجاز العقلى ، والفرق بينه وبين الأحاديث الكاذبة .

٥ — الكلام على بلاغة المجاز العقلى ودرجاته فى البلاغة من العامية والخاصية ، وأن تقدير الحقيقة فى الإسناد المجازى قد لا يتأتى فى الأسلوب ، =

فقد حصل من هذا أن لكل واحد من حكمى الإثبات والنفى حاجة إلى تقييده مرتين ، وتعلقه بشيئين ، تفسير ذلك أنك إذا قلت : ضرب زيد ، فقد قصدت إثبات الضرب لزيد فقولك « إثبات الضرب » تقييد للإثبات بإضافته إلى الضرب ثم لا يكفيك هذا التقييد حتى تقيده مرة أخرى فتقول إثبات الضرب لزيد . فقولك « لزيد » تقييد ثان وفى حكم إضافة ثانية . وكما لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مطلق غير مقيد بوجه ، أعنى أن يكون إثبات ولا مثبت له ولا شىء يقصد بذلك الإثبات إليه لا صفة ولا حكم ولا موهوم بوجه من الوجوه ، كذلك لا يتصور أن يكون ههنا إثبات مقيد تقيداً واحداً نحو إثبات شىء فقط دون أن تقول : إثبات شىء لشىء : كما مضى من إثبات الضرب لزيد ، والنفى بهذه المنزلة فلا يتصور نفى مطلق ولا نفى شىء فقط ، بل يحتاج إلى قيدين كقولك نفى شىء عن شىء .

فهذه هى القضية المبرمة الثابتة التى تزول الراسيات ولا تزول(١) .

= وتوضيح سر دقة الأساليب الخاصية فى المجاز العقلى ، وتأويل نظرية علماء النحو التى يذهبون فيها إلى أن أسلوب المجاز الحكمى على تقدير مضاف . والدفاع عن بلاغة المجاز الحكمى ، التى يهتضمها مثل هذا التقدير والتأويل البعيد .

ويلاحظ أن عبد القاهر ليس هو أول من تكلم على أسلوب المجاز العقلى بل تقدمه كثير من علماء العربية ، كسيبويه والمبرد والآمدى وابن فارس ، فليس صحيحاً ما ذكره الدكتور طه حسين من أن المجاز العقلى هو من ابتدع عبد القاهر وحده ، وبلاغة المجاز العقلى كما فهمها عبد القاهر سبق إلى بيانها باختصار وفى خفية المبرد والآمدى .

(١) تحقيق ذلك أن النسبة بين المنسوب والمنسوب إليه لها تعلق بهما معاً ، فلها بسبب كل واحد منهما تقييد على حدة .

ولا تنظر إلى قولهم : فلان يثبت كذا أى يدعى أنه موجود وينفى كذا أى يقضى بعدمه كقولنا : أبو الحسن(١) يثبت مثال جخدب(٢) (بفتح الدال) ، وصاحب الكتاب(٣) ينفيه . لأن الذى قصدته هو الإثبات والنفى فى الكلام .

ثم اعلم أن فى الإثبات والنفى بعد هذين التقييدين حكما آخر هو كتقييد ثالث وذلك أن للاثبات جهة وكذلك النفى ، ومعنى ذلك أنك تثبت الشىء للشىء مرة من جهة وأخرى من جهة غير تلك الأولى ، وتفسيره أنك تقول ضرب زيد فتثبت الضرب فعلا لزيد ، وتقول مرض زيد فتثبت المرض وصفاً له ، وهكذا سائر ما كان من أفعال الغرائز والطباع ، وذلك فى الجملة على ما لا يوصف الإنسان بالقدرة عليه نحو كرم وظرف وحسن وقبح وطال وقصر . وقد يتصور فى الشىء الواحد أن تثبته من الجهتين جميعاً وذلك فى كل فعل دل على معنى يفعله الإنسان فى نفسه نحو قام وقعد ، إذا قلت قام زيد ، فقد أثبت القيام فعلا له من حيث تقول فعل القيام وأمرته بأن يفعل القيام ، وأثبته أيضاً وصفاً له من حيث إن تلك الهيئة موجودة فيه وهو فى اكتسابه لها كالشخص المنتصب والشجرة القائمة على ساقها التى توصف بالقيام لا من حيث كانت فاعلة له بل من حيث كان وصفا موجوداً فيها .

وإذ قد عرفت هذا الأصل فهنا أصل آخر يدخل فى غرضنا وهو أن الأفعال على ضربين : متعد وغير متعد ، فالمتعدى على ضربين ضرب يتعدى إلى شىء هو مفعول به كقولك : ضربت زيداً ، « زيداً » مفعول به لأنك

---

(١) هو أبو الحسن الأخفش الصغير غلام المبرد .
(٢) هو الأسد .
(٣) وهو سيبويه . والمختار أنه فرع من مضموم الأول والثالث لأنه لم يسمع فى شىء إلا وسمع فيه الضم .

فعلت به الضرب ولم يفعله بنفسه(١)، و« ضرب » يتعدى إلى شيء وهو مفعول على الإطلاق وهو فى الحقيقة كفعل وكل ما كان مثله فى كونه عاما غير مشتق من معنى خاص كصنع وعمل وأوجد وأنشأ ، ومعنى قولى « من معنى خاص » أنه ليس كضرب الذى هو مشتق من الضرب أو أعلم الذى هو مأخوذ من العلم . وهكذا كل ما كان له مصدر ذلك المصدر فى حكم جنس من المعانى .

فهذا الضرب(٢) إذا أسند إلى شيء كان المنصوب له مفعولا لذلك الشيء على الاطلاق كقولك فعل زيد القيام . فالقيام مفعول فى نفسه وليس بمفعول به ، وأحق من ذلك أن تقول : خلق الله الأناسى ، وأنشأ العالم ، وخلق الموت والحياة . المنصوب فى هذا كله مفعول مطلق لاتقييد فيه إذ من المحال أن يكون معنى « خلق العالم » فعل الخلق به كما تقول فى « ضربت زيداً » فعلت الضرب بزيد ، لأن الخلق من خلق كالفعل من فعل ، فلو جاز أن يكون المخلوق كالمضروب لجاز أن يكون المفعول نفسه كذلك حتى يكون معنى فعل القيام فعل شيئاً بالقيام وذلك من شنيع المحال(٣) .

وإذا قد عرفت هذا فاعلم أن الاثبات فى جميع هذا الضرب أعنى فيما منصوبه مفعول وليس مفعولا به يتعلق بنفس المفعول ، فإذا قلت : فعل زيد الضرب ، كنت أثبت الضرب فعلا لزيد ، وكذلك تثبت العالم فى قولك « خلق الله العالم » خلقا لله تعالى ، ولا يصح فى شيء من هذا الباب أن تثبت المفعول وصفا ألبتة وتوهم ذلك خطأ عظيم وجهل نعوذ بالله منه .

وأما الضرب الآخر وهو الذى منصوبه مفعول به فإنك تثبت فيه المعنى الذى اشتق منه فعل فعلا للشيء كإثباتك الضرب لنفسك فى قولك : ضربت

---

(١) أى فى نفس زيد .
(٢) وهو نحو فعل وصنع .
(٣) لما يلزم عليه من التناقض .

زيداً ، فلا يتصور أن يلحق الإثبات مفعوله لأنه إذا كان مفعولا به ولم يكن فعلا لك استحال أن تثبته فعلا وإثباته وصفاً أبعد فى الإحالة ، فأما قولنا فى نحو : ضربت زيداً ، أثبت زيداً مضروباً فإن ذلك يرجع إلى أنك تثبت الضرب واقعاً به منك ، فأما أن تثبت ذات زيد لك فلا يتصور ، لأن الإثبات معنى لابد له من جهة ولا جهة ههنا . وهكذا إذا قلت أحيا الله زيداً كنت فى هذا الكلام مثبتاً الحياة فعلا لله تعالى فى زيد . فأما ذات زيد فلم تثبتها فعلا لله بهذا الكلام وإنما يتأتى لك ذلك بكلام آخر نحو أن تقول : خلق الله زيداً وأوجده وما شاكله مما لا يشتق من معنى خاص كالحياة والموت ونحوهما من المعانى .

وإذ قد تقررت هذه المسائل فينبغى أن تعلم أن من حقك إذا أردت أن تقضى فى الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين :

إحداهما : أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو فى حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟

ثانيتهما : أن تنظر إلى المعنى المثبت أعنى ما وقع عليه الإثبات كالحياة فى قولك أحيا الله زيداً ، والشيب فى قولك أشاب الله رأسى ، أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنها ، وإذا مثل لك دخول المجاز على الجملة من الطريقين عرفت إثباتها على الحقيقة منها .

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت قوله(١) :

٤٨٤ — وشيب أيام الفراق مفارق
وأنشزن نفسى فوق حيث تكون(٢)

---

(١) البيت لجميل بن معمر العذرى الشاعر الأموى المشهور المتوفى عام ٨٠ هـ . . وهو فى الحماسة ٢ : ١٢٣ .

(٢) أى رفعن نفسى فوق مكان تكون فيه عند الاحتضار وحيث هنا =

وقوله(١) :

٤٨٥ — أشاب الصغير وأفنى الكبير
كر الغداة ومر العشى

المجاز واقع فى إثبات الشيب للأيام ولكر الليالى وهو الذى أزيل عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه لأن من حق هذا الإثبات أعنى إثبات الشيب فعلا ألا يكون إلا مع أسماء الله تعالى فليس يصح وجود الشيب فعلا لغير القديم سبحانه ، وقد وجه فى البيتين كما ترى إلى الأيام والليالى ، وذلك مالا يثبت له فعل بوجه لا الشيب ولا غير الشيب ، وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى ، وهكذا إذا قلت : سرنى الخبر وسرنى لقاؤك ، فالمجاز فى الإثبات دون المثبت لأن المثبت هو السرور وهو حاصل على حقيقته .

ومثال ما دخل المجاز فى مثبته دون إثباته قوله عز وجل : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » وذلك أن المعنى — والله أعلم — على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب على حد قوله : وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » ، فالمجاز فى المثبت وهو الحياة ، فأما الإثبات فواقع على حقيقته لأنه ينصرف إلى أن الهدى والعلم والحكمة فضل من الله وكائن من عنده : ومن الواضح فى ذلك قوله عز وجل : « فأحيينا به الأرض بعد موتها » وقوله : « إن الذى أحياها لمحيي الموتى » ، جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها فكان ذلك مجازاً فى المثبت

= اسم بمعنى مكان وقد خرجت عن الظرفية وخروجها نادر .

(١) هو الصلتان لعبدى وفى الحيوان للجاحظ : السعدى الشاعر الأموى ، والبيت فى الحماسة (٢ : ٥١) وفى معجم الشعراء ٢٣٠ .

من حيث جعل ما ليس بحياة على التشبيه : فأما نفس الإثبات فحض الحقيقة لأنه إثبات لما ضرب الحياة مثلا له فعلا لله تعالى ولا حقيقة أحق من ذلك .

وقد يتصور أن يدخل المجاز الجملة من الطريقين جميعاً وذلك أن يشبه معنى بمعنى وصفة بصفة فيستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلا لما لا يصح(١) الفعل منه(٢) أو فعل تلك الصفة(٣) فيكون أيضاً فى كل واحد من الإثبات والمثبت مجاز كقول الرجل لصاحبه : أحيتنى رؤيتك يريد آنستنى وسرتنى ونحوه ، فقد جعل الأنس والمسرة الحاصلة بالرؤية حياة أولا ثم جعل الرؤية فاعلة لتلك الحياة . وشبيه به قول المتنبى :

٤٨٦ — وتحيي له المال الصوارم والقنا
ويقتـــل ما تحيي التبسم والجدا

جعل الزيادة والوفور حياة فى المـال وتفريقه فى العطاء قتلا ثم أثبت الحياة فعلا للصوارم والقتل فعلا للتبسم مع العلم بأن الفعل لا يصح منهما .
ونوع منه «أهلك الناس الدينار والدرهم» جعل الفتنة هلاكا على المجاز ثم أثبت الهلاك فعلا للدينار والدرهم وإنما هما يفعلان فاعرفه .

وإذ قد تبين لك المنهاج فى الفرق بين دخول المجاز فى الإثبات وبين دخوله فى المثبت وبين أن ينتظمهما وعرفت الصورة فى الجميع، فاعلم أنه إذا

---

(١) وذلك أن الفاعل قد يصح له فعل كل شىء وقد يصح له بعض دون بعض .
(٢) أى مطلقا .
(٣) أى على الخصوص .

وقع فى الإثبات فهو متلقى من العقل فإذا عرض فى المثبت فهو متلقى من اللغة ، فإن طلبت الحجة على صحة هذه الدعوى ، فإن فيما قدمت من القول ما يبينها لك ويختصر لك الطريق إلى معرفتها ، وذلك أن الإثبات إذا كان من شرطه أن يقيد مرتين كقولك إثبات شىء لشىء ، ولزم من ذلك ألا يحصل إلا بالجملة التى هى تأليف بين حديث ومحدث عنه ومسند ومسند إليه ، علمت أن مأخذه العقل وأنه القاضى فيه دون اللغة لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفى وتنقض وتبرم ، فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وأن المرض صفة له أو ليس بصفة له شىء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب واعتراف أو إنكار وتصحيح أو إفساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة فى ذلك بسبيل ولا منه فى قليل ولا كثير .

وإذا كان كذلك كان كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة ، فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض ، وليس للغة فيه حظ ، فلا تحلى ولا تمر ، والعربى فيه كالعجمى والعجمى كالتركى ، لأن قضايا العقول هى القواعد والأسس التى يبنى غيرها عليها ، والأصول التى يرد ما سواها إليها .

فأما إذا كان المجاز فى المثبت كنحو قوله تعالى : (فأحيينا به الأرض) فإنما كان مأخذه اللغة ، لأجل أن طريقه المجاز بأن أجرى اسم الحياة على ماليس بحياة تشبيهاً وتمثيلا ثم اشتق منها وهى فى هذا التقدير الفعل الذى هو « أحيا » ، واللغة هى التى اقتضت أن تكون الحياة اسماً للصفة التى هى ضد الموت ، فإذا تجوز فى الاسم فأجرى على غيرها فالحديث مع اللغة فاعرفه .

إن قال قائل ـ فى أصل الكلام الذى وضعته على أن المجاز يقع تارة فى الإثبات وتارة فى المثبت وأنه إذا وقع فى الإثبات فهو طالع عليك من جهة العقل ، وباد لك من أفقه ، وإذا عرض فى المثبت فهو آتيك من ناحية

اللغة — : ما قولكم إن سويت بين المسئلتين وادعيت أن المجاز بينهما جميعاً في المثبت وأنزل هكذا فأقول(١) : الفعل الذى هو مصدر فعل قد وضع فى اللغة للتأثير فى وجود الحادث كما أن الحياة موضوعة للصفة المعلومة، فإذا قيل فعل الربيع النور ، جعل تعلق النور فى الوجود بالربيع من طريق السبب والعادة فعلا ، كما تجعل خضرة الأرض وبهجتها حياة والعلم فى قلب المؤمن نوراً وحياة ، وإذا كان كذلك كان المجاز فى أن جعل ما ليس بفعل فعلا وأطلق اسم الفعل على غير ماوضع له فى اللغة كما جعل ما ليس بحياة حياة وأجرى اسمها عليه ، فإذا كان ذلك مجازاً لغويا فينبغى أن يكون هذا كذلك .

فالجواب : أن الذى يدفع هذه الشبهة أن تنظر إلى مدخل المجاز فى المسئلتين ، فإذا كان يدخلهما من جانب واحد فالأمر كما ظننت وإن لم يكن كذلك استبان لك الخطأ فى ظنك والذى يبين اختلاف دخوله فيهما أنك تحصل على المجاز فى مسألة الفعل بالإضافة لا بنفس الاسم فلو قلت أثبت النور فعلا لم تقع فى مجاز لأنه فعل لله تعالى وإنما تصير إلى المجاز إذا قلت أثبت النور فعلا للربيع ، وأما فى مسألة الحياة فإنك تحصل على المجاز بإطلاق الاسم فحسب من غير إضافة وذلك قولك : أثبت بهجة الأرض حياة أو جعلها حياة ، أفلا ترى المجاز قد ظهر لك فى الحياة من غير أن أضفتها إلى شىء ، أى من غير أن قلت لكذا ، وهكذا إذا عبرت بالنفى تقول فى مسألة الفعل جعل ما ليس بفعل للربيع فعلا له ، وتقول فى هذه : جعل ما ليس بحياة حياة وتسكت ، ولا تحتاج أن تقول : جعلت ما ليس بحياة للأرض حياة للأرض ، بل لا معنى لهذا الكلام لأنه يقتضى أنك أضفت حياة حقيقة إلى الأرض وجعلتها مثلا تحيا بحياة غيرها وذلك بين الإحالة .

ومن حق المسائل الدقيقة أن تتأمل فيها العبارات التى تجرى بين السائل

---

(١) عطف على « سويت » .

والمجيب وتحقق ، فإن ذلك يكشف عن الغرض ويبين جهة الغلط ، وقولك « جعل ما ليس بفعل فعلا » ـــاحتذاء لقولنا : جعل ماليس بحياة حياة — لايصح لأن معنى هذه العبارة أن يراد بالاسم غير معناه لشبه يدعى أوشىء كالشبه ، لا أن يعطل الاسم من الفائدة فيراد بها ما ليس بمعقول فنحن إذا تجوزنا فى الحياة فأردنا بها العلم فقد أودعنا الاسم معنى وأردنا به صفة معقولة كالحياة نفسها ولا يمكنك أن تشير فى قولك « فعل الربيع النور » إلى معنى تزعم أن لفظ الفعل ينقل عن معناه إليه فيراد به حتى يكون ذلك المعنى معقولا منه كما عقل التأثير فى الوجود وحتى تقول : لم أرد به التأثير فى الوجود ولكن أردت المعنى الفلانى الذى هو شبيه به أو كالشبيه أوليس بشبيه مثلا ، إلا أنه معنى خاف معنى آخر على الاسم إذ ليس وجود النور بعقب المطر أو فى زمان دون زمان ، مما يعطيك معنى فى المطر أو فى الزمان فتؤديه بلفظ الفعل ، فليس إلا أن تقول : لما كان النور لا يوجد إلا بوجود الربيع توهم للربيع تأثير فى وجوده فأثبت له ذلك . وإثبات الحكم أو الوصف لما ليس له قضية عقلية لاتعلق لها فى صحة وفساد باللغة فاعرفه .

ومما يجب ضبطه فى هذا الباب أن كل حكم يجب فى العقل وجوباً حتى لا يجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللغة وجعله مشروطا فيها محال ، لأن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات ، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشىء ماجعلت العلامة دليلا عليه وخلافه . فإنما كانت « ما » مثلا علما للنفى لأن ههنا نقيضاً له وهو الإثبات ، وهكذا إنما كانت « من » لمن يعقل لأن ههنا ما لا يعقل ، فمن ذهب يدعى أن فى قولنا « فعل وصنع » ونحوه دلالة من جهة اللغة على القادر فقد أساء من حيث قصد الإحسان لأنه والعياذ بالله يقتضى جواز أن يكون ههنا تأثير فى وجود الحادث لغير القادر حتى يحتاج إلى تضمين اللفظ الدلالة على اختصاصه بالقادر ، وذلك خطأ عظيم » .

فالواجب أن يقال : الفعل موضوع للتأثير في وجوب الحادث في اللغة، والعقل قد قضى وبت الحكم بأن لا حظ في هذا التأثير لغير القادر . وما يقوله أهل النظر - من أن من لم يعلم الحادث موجوداً من جهة القادر عليه فهو لم يعلمه فعلا - لا يخالف هذه الجملة بل لا يصح حق صحته إلا مع اعتبارها ، وذلك أن الفعل إذا كان موضوعا للتأثير في وجود الحادث وكان العقل قد بين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة استحالة أن يكون لغير القادر تأثير في وجود الحادث وأن يقع شيء مما ليس له صفة القادر ، فمن ظن الشيء واقعاً من غير القادر فهو لم يعلمه فعلا لأنه لا يكون مستحقاً هذا الاسم حتى يكون واقعاً من غيره ، ومن نسب وقوعه إلى ما لا يصح وقوعه منه ولا يتصور أن يكون له تأثير في وجوده وخروجه من العدم فلم يعلمه واقعاً من شيء ألبتة ، وإذا لم يعلمه واقعاً من شيء لم يعلمه فعلا كما أنه إذا لم يعلمه كائناً بعد أن لم يكن لم يعلمه واقعاً ولا حادثاً فاعرفه .

واعلم أنك إن أردت أن ترى المجاز وقد وقع في نفس الفعل والخلق ، ولحقهما من حيث هما ، لا إثباتهما وإضافتهما ، فالمثال في ذلك قولهم في الرجل يشفي على هلكة ثم يتخلص منها : هو إنما خلق الآن ، وإنما أنشىء اليوم ، وقد عدم ثم أنشىء نشأة ثانية ، وذلك أنك تثبت ههنا خلقاً وإنشاء من غير أن يعقل ثابتاً على الحقيقة بل على تأويل وتنزيل وهو أن جعلت حالة إشفائه على الهلكة عدما وفناء وخروجا من الوجود حتى أنتج هذا التقدير أن يكون خلاصه منها ابتداء وجود وخلقاً وإنشاء ، أفيمكنك أن تقول في نحو « فعل الربيع النور » بمثل هذا التأويل ، فتزعم أنك أثبت فعلا وقع على النور من غير أن كان ثم فعل ومن غير أن يكون النور مفعولا ؟ أو هو مما يتفوه بالقائل منه[1] .. وتقول : الفعل واقع على النور حقيقة وهو مفعول مجهول

(١) لأنه يؤدي إلى أن يكون النور قد حدث بنفسه ، وذلك يؤدي إلى عدم الصانع .

على الصحة إلا أن حق الفعل فيه أن يثبت لله تعالى وقد تجوز بإثباته للربيع ؟ أفليس قد بان أن التجوز ههنا فى إثبات الفعل للربيع لا فى الفعل نفسه فإن التجوز فى مسألة المتخلص من الحلكة حيث قلت إنه خلق مرة ثانية ، فى الفعل نفسه لا فى إثباته ، فلك كيف نظرت فرق بين المجاز فى الإثبات وبينه فى المثبت .. وينبغى أن تعلم أن قولى فى المثبت مجاز ليس مرادى أن فيه مجازاً من حيث هو مثبت ولكن المعنى أن المجاز فى نفس الشيء الذى تناوله الإثبات نحو أنك أثبت الحياة صفة للأرض فى قوله تعالى (يحيى الأرض بعد موتها) والمراد غيرها فكان المجاز فى نفس الحياة لا فى إثباتها .. هذا وإذا كان لا يتصور إثبات شيء لا لشيء استحال أن يوصف المثبت من حيث هو مثبت بأنه مجاز أو حقيقة .

* * *

ومما ينتهى فى البيان إلى الغاية أن يقال للسائل : هبك تغالطنا بأن مصدر فعل نقل أولا عن موضوعه(١) فى اللغة ثم اشتق منه ، فقل لنا : ما تصنع بالأفعال المشتقة من معان خاصة كنسج وصاغ ووشى ونقش؟ أتقول — إذا قيل نسج الربيع وصاغ الربيع ووشى — إن المجاز فى مصادر هذه الأفعال التى هى النسيج والوشى والصوغ أم تعرف أنه فى إثباتها فعلا للربيع ؟ وكيف تقول إن فى أنفسها مجازاً وهى موجودة بحقيقتها ؟ بل ماذا يغنى عنك دعوى المجاز فيها لو أمكنك ولا يمكنك أن تقتصر عليها فى كون الكلام مجازاً ، أعنى لا تملك أن تقول إن الكلام مجاز من حيث لم يكن ائتلاف تلك الأنوار نسجا ووشيا وتدع حديث نسبتها إلى الربيع جانباً .. هذا وها هنا ما لا وجه لك لدعوى المجاز فى مصدر الفعل منه كقولك « سرنى الخبر » فإن

---

(١) أى الذى زعمت أنه يدل على القادر المختار .

السرور بحقيقته موجود والكلام مع ذلك مجاز ، وإذا كان كذلك علمنا ضرورة أن ليس المجاز إلا فى إثبات السرور فعلا للخبر وإيهام أنه أثر فى حدوثه وحصوله ويعلم كل عاقل أن المجاز لوكان من طريق اللغة لجعل ما ليس بالسرور سروراً . فأما الحكم بأنه فعل للخبر فلا يجرى فى وهم أنه يكون من اللغة بسبيل فاعرفه .

فإن قال : النسج فعل معنى وهو المضامة بين أشياء وكذلك الصوغ فعل الصورة فى الفضة ونحوها ، وإذ كان كذلك قدرت أن لفظ الصوغ مجاز من حيث دل على الفعل والتأثير فى الوجود ، حقيقة من حيث دل على الصورة كما قدرت أنت فى « أحيا الله الأرض » أن أحيا من حيث دل على معنى فعل حقيقة ، ومن حيث دل على الحياة مجاز .

قيل : ليس لك أن تجىء إلى لفظ ذى أمرين فتفرق دلالته وتجعله منقولا عن أصله فى أحدهما دون الآخر . لو جاز هذا لجاز أن تقول فى اللطم الذى هو ضرب باليد أن يجعل مجازا من حيث هو ضرب ، وحقيقة من حيث هو باليد ، وذلك محال لأن كون الضرب باليد لا ينفصل عن الضرب فكذلك كون الفعل فعلا للصورة لا ينفصل عن الصورة ، وليس الأمر كذلك فى قولنا : أحيا الله الأرض ، لأن معنا هناك لفظين أحدهما مشتق وهو « أحيا » والآخر مشتق منه وهو « الحياة » فنحن نقدر فى المشتق منه أنه نقل عن معناه الأصلى فى اللغة إلى معنى آخر ثم اشتق منه « أحيا » بعد هذا التقدير ومعه ، وهو مثل لفظ اليد ينقل إلى النعمة ثم يشتق منه « يديت »(١) ، فاعرفه .

---

(١) أى أنعمت ، وهذا يدل على أن هناك مجازاً مرسلا تبعياً .

ومما يجب أن يعلم فى هذا الباب أن الإضافة فى الاسم كالإسناد فى الفعل فكل حكم يجب فى إضافة المصدر من حقيقة أو مجاز فهو واجب فى إسناد الفعل . فانظر الآن إلى قولك : أعجبنى وشى الربيع الرياض وصوغه تبرها وحوكه ديباجها . هل تعلم لك سبيلا فى هذه الإضافات إلى التعلق باللغة وأخذ الحكم عليها منها ؟ أم تعلم امتناع ذلك عليك ؟ وكيف والإضافة لا تكون حتى تستقر اللغة ويستحيل أن يكون للغة حكم فى الإضافة ورسم حتى يعلم بها أن حق الاسم أن يضاف إلى هذا دون ذلك .

وإذا عرفت ذلك فى هذه المصادر التى هى الصوغ والوشى والحوك فضع مصدر فعل — الذى هو عمدتك فى سؤالك وأصل شبهتك — موضعها ، وقل : أما ترى(١) إلى فعل الربيع لهذه المحاسن ؟ ثم تأمل هل تجد فصلا بين إضافته وإضافة تلك ؟ وإذا لم تجد الفصل ألبتة ، فاعلم صحة قضيتنا وانفض يدك بمسئلتك ودع النزاع عنك ، وإلى الله تعالى الرغبة فى التوفيق .

---

(١) فى الأصل بدون استفهام ، فتكون ما استفهامية هنا .

فصـــل

قال أبو القاسم الآمدي في قول البحتري :

٤٨٧ — فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق
وحاك ما حاك من وشي وديبـاج(١)

صوغ الغيث وحوك النبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ، ولذلك لا يقال : هو صائغ(٢) ولا كأنه صائغ ، وكذلك لا يقال : حائك . وكأنه حائك ، على أن لفظة حائك خاصة في غاية الركاكة إذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام(٣) في قوله :

٤٨٨ — إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه
خلت حقب حرس له وهو حائك(٤)

وهذا قبيح جداً ، والذي قاله البحتري « وحاك ما حاك » حسن مستعمل ، فانظر ما بين الكلامين لتعلم ما بين الرجلين(٥) .

---

(١) لأبي حمة المجنون كما في العقد الفريد (٤ : ٢١٠) :
حاك الربيع لهـا ثيابا وشيت بيد الندى وأنامل الأدواح
(٢) أي هو كصائغ ، والمنفي هو التشبيه ، لا صيغة اسم فاعل .
(٣) وهو التشبيه .
(٤) الحرس جمع حرساء أي قديمة وهي التي أتى عليها الحرس وهو الدهر ، وله متعلق بحائك والحقب جمع حقبة وهي المدة من الزمن والضمير في نسجه يعود إلى الروض ، وغاداه : باكره .
(٥) ذكر عبد القاهر ذلك أيضاً في الدلائل ص ٤٨٢ وخطأ الآمدي في استقباحه لبيت أبي تمام .

قد كتبت هذا الفصل على وجهه ، والمقصود منه منعه أن تطلق الاستعارة على الصوغ والحوك — وقد جعلا فعلا للربيع — واستدلاله على ذلك بامتناع أن يقال : وكأنه صائغ وكأنه حائك .

اعلم أن هذا الاستدلال كأحسن ما يكون إلا أن الفائدة تتم بأن نبين جهته ومن أين كان كذلك .

والقول فيه : أن التشبيه كما لا يخفى يقتضى شيئين مشبها ومشبها به ، ثم ينقسم إلى الصريح وغير الصريح . فالصريح أن تقول «كأن زيداً الأسد» ، فتذكر كل واحد من المشبه والمشبه به باسمه ، وغير الصريح أن تسقط المشبه من الذكر وتجرى اسم المشبه به على المشبه كقولك : رأيت أسداً ، تريد رجلا شبيها بالأسد إلا أنك تعير اسمه مبالغة وإيهاما أن لا فصل بينه وبين الأسد وأنه قد استحال إلى الأسدية . فإذا كان الأمر كذلك وأنت تشبه شخصا بشخص فإنك إذا شبهت فعلا بفعل كان هذا حكمه فأنت تقول مرة : كأن تزيينه لكلامه نظم در فتصرح بالمشبه والمشبه به وتقول أخرى : انما ينظم دراً ، تجعله كأنه ناظم درا على الحقيقة . وتقول فى وصف الفرس : كأن سيره سباحة وكأن جريه طيران طائر ، هذا إذا صرحت ، وإذا أخفيت واستعرت قلت : يسبح براكبه ، ويطير بفارسه ، فتجعل حركته سباحة وطيرانا .

ومن لطيف ذلك ما كان كقول أبى دلامة يصف بغلته :

٤٨٩ — أرى الشهباء تعجن اذ غدونا
برجليهـــا وتخـــبز باليـــدين

شبه حركة رجليها حين لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه وهوتا ذاهبتين نحو يديها بحركة يدى العاجن فإنه لا يثبت اليد فى موضع بل يزلها إلى قدام وتزول من عند نفسها لرخاوة العجين ، وشبه حركة يديها بحركة يد الخابز

من حيث كان الخابز يثنى يده نحو بطنه ويحدث فيها ضربا من التقويس، كما تجد فى يد الدابة إذا اضطربت فى سيرها ولم تقف على ضبط يديها، وأن ترمى بها إلى قدام، وأن تشد اعتمادها حتى تثبت فى الموضع الذى تقع عليه فلا تزول عنه ولا تنثنى، وأعود إلى المقصود.

فإذا كان لا تشبيه حتى يكون معك شيئان، وكان معنى الاستعارة أن تعير لفظ المشبه به ولم يكن معنا فى «صاغ الربيع» أو «حاك الربيع» إلا شىء واحد وهو الصوغ أو الحوك كان تقدير الاستعارة فيه محالا جاريا مجرى أن يشبه الشىء بنفسه وتجعل اسمه عارية فيه وذلك بين الفساد(١).

فإن قلت: أليس الكلام على الجملة معقوداً على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصوغ والنسج به، فكيف لم يجز دخول «كأن» فى الكلام من هذه الجهة؟

فإن(٢) هذا التشبيه ليس هو التشبيه الذى يعقد فى الكلام ويفاد بكأن والكاف ونحوهما، وإنما هو عبارة عن الجهة التى راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر فى إسناد الفعل إليه(٣). ووزانه وزان قولنا إنهم يشبهون «ما» بليس فيرفعون بها المبتدأ وينصبون بها الخبر فيقولون: ما زيد منطلقاً، فنخبر عن تقدير قدروه فى نفوسهم وجهة راعوها فى إعطاء «ما» حكم «ليس» فى العمل، فكما لا يتصور أن يكون قولنا «ما زيد منطلقاً» تشبيها على حد «كأن زيداً الأسد»، كذلك لا يكون

---

(١) فالصياغة عند عبد القاهر والآمدى بمعناها الأعم لغة فلا تجوز فيها.

(٢) هذا هو جواب الشرط.

(٣) فالمبالغة فى التشبيه مقصودة بالإفادة بخلافه هنا فإنه تشبيه وحمل معنوى يترتب عليه المقصود بالإفادة وهو الإسناد.

« صاغ الربيع » من التشبيه(١) فكلامنا إذن فى تشبيه مقول منطوق به وأنت فى تشبيه معقول غير داخل فى النطق .. هذا — وإن يكن ههنا تشبيه فهو فى الربيع لا فى الفعل المسند إليه واختلافنا فى صاغ وحاك هل يكون تشبيها واستعارة أم لا فلا يلتقى التشبيهان أو يلتقى المشئم والمعرق.

وهذا هو القول على الجملة إذا كانت حقيقة أو مجازا وكيف وجه الحد فيها.

* * *

فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل(٢) وواقع موقعه فهى حقيقة ، ولن تكون كذلك حتى تعرى من التأول ، ولا فصل بين أن تكون مصيبا فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئا ، وصادقا أو غير صادق ، فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا : خلق الله تعالى الخلق وأنشأ العالم وأوجد كل موجود سواه ، فهذه من أحق الحقائق وأرسخها فى العقول ، وأقعدها نسبا فى المعقول ، والتى إن رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك . ومتى هممت بالتوقف فى ثبوتها استولى النفى على معقولك ، ووجدتك كالمرمى به من حالق إلى حيث لا مقر لقدم ، ولا مساغ لتأخر وتقدم ، كما قال أصدق القائلين جلت أسماؤه ، وعظمت كبرياؤه ، (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق).

وأما مثال أن توضع الجملة على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل وليس كذلك إلا أنه صادر عن اعتقاد فاسد وظن كاذب ، فمثل ما يجىء فى التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو « وما يهلكنا إلا الدهر » ، فهذا ونحوه

---

(١) الفرق بين الأمرين واضح .. فكلام عبد القاهر هنا عليه مؤاخذات وكأنه ينفى التشبيه فى أسلوب « أنبت الربيع النبات » .

(٢) أى عقل المتكلم .

من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه إطلاق من يضع الصفة فى موضعها، لا يوصف بالمجاز ولكن يقال: عند قائله إنه حقيقة، وهو كذب وباطل ، وإثبات لما ليس بثابت ، أو نفى لما ليس بمنتف ، وحكم لا يصححه العقل فى الجملة بل يرده ويدفعه ، إلا أن قائله جهل مكان الكذب والبطلان فيه أو جحد وباهت .

ولا يتخلص لك الفصل بين الباطل وبين المجاز حتى تعرف حد المجاز ، وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول فهى مجاز، ومثاله ما مضى من قولهم « فعل الربيع » ، وكما جاء فى الخبر « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم » قد أثبت الإثبات للربيع وذلك خارج عن موضعه من العقل لأن إثبات الفعل لغير القادر لا يصح فى قضايا العقول إلا أن ذلك على سبيل التأول وعلى العرف الجارى بين الناس أن يجعلوا الشىء إذا كان سبباً أو كالسبب فى وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل، فلما أجرى الله سبحانه العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار وتلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع صار يتوهم فى ظاهر الأمر ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع فأسند الفعل إليه على هذا التأويل والتنزيل .

وهذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن فمنه قوله تعالى : « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » ، وقوله عز اسمه : « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » وفى الأخرى « فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً » ، وقوله « وأخرجت الأرض أثقالها » ، وقوله عز وجل « حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت » أثبت الفعل فى جميع ذلك لما لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب، وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل ولا الآيات توجد العلم فى قلب السامع لها ، ولا الأرض تخرج الكامن

فى بطنها من الأثقال ، ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وأودع جوفها .

وإذا ثبت ذلك فالمبطل والكاذب لا يتأول فى إخراج الحكم عن موضعه وإعطائه غير المستحق ، ولا يشبه كون المقصود سببا بكون الفاعل فاعلا، بل يثبت القضية من غير أن ينظر فيها من شىء إلى شىء ، ويرد فرعا إلى أصل ، وتراه أعمى أكمه يظن مالا يصح صحيحا ، ومالا يثبت ثابتاً ، وماليس فى موضعه من الحكم موضوعا موضعه ، وهكذا المتعمد للكذب يدعى أن الأمر على ما وضعه تلبيساً وتمويها وليس هو من التأول(١) .

والنكتة أن المجاز لم يكن مجازاً لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه بل لأنه أثبت لما لا يستحق تشبيها ورداً له إلى ما يستحق ، وأنه ينظر من هذا إلى ذاك وإثباته ما أثبت للفرع الذى ليس بمستحق يتضمن الإثبات للأصل الذى هو المستحق ، فلا يتصور الجمع بين شيئين فى وصف أو حكم من طريق التشبيه والتأويل حتى يبدأ بالأصل فى إثبات ذلك الوصف والحكم له .

ألا تراك لا تقدر على أن تشبه الرجل بالأسد فى الشجاعة ما لم تجعل كونها من أخص أوصاف الأسد وأغلبها عليه نصب عينيك ، كذلك لا يتصور أن يثبت المثبت الفعل للشىء على أنه سبب ما لم تنظر إلى ما هو راسخ فى العقل من أن لا فعل على الحقيقة إلا للقادر ، لأنه لو كان نسب الفعل إلى هذا السبب نسبة مطلقة لا يرجع فيها إلى حكم القادر ، والجمع بينهما من حيث تعلق وجوده بهذا السبب من طريق العادة كما يتعلق بالقادر من طريق الوجوب لما اعترف بأنه سبب ولادعى أنه أصل بنفسه مؤثر فى وجود الحادث كالقادر وإن تجاهل متجاهل فقال بذلك على ظهور الفضيحة وإسراعها إلى مدعيه

---

(١) راجع كلام عبد القاهر على المجاز العقلى فى « دلائل الإعجاز » تحقيق خفاجى ص ٢٧٦ وما بعدها .

كان الكلام عنده حقيقة ولم يكن من مسئلتنا فى شىء ، وألحق بنحو قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر » ، وليس ذلك المقصود فى مسئلتنا لأن الغرض هٰهنا ما وضع فيه الحكم واضعه على طريق التأول فاعرفه .

ومن أوضح مايدل على أن إثبات الفعل للشىء لأنه سبب يتضمن إثباته من حيث لا يتصور دون تصوره أن تنظر إلى الأفعال المسندة إلى الأدوات والآلات كقولك : قطع السكين وقتل السيف ، فإنك تعلم أنه لا يقع فى النفس من هذا الإثبات صورة ما لم تنظر إلى إثبات الفعل للمعمل الأداة والفاعل بها ، فلو فرضت أن لا يكون هٰهنا قاطع بالسكين ومصرف لها أعناك أن تعقل من قولك « قطع السكين » معنى بوجه من الوجوه ، وهذا من الوضوح بحيث لايك عاقل فيه ، وهذه الأفعال المسندة إلى من تقع تلك الأفعال بأمره كقولك « ضرب الأمير الدراهم » بنى السور » لاتقوم فى نفسك صورة لإثبات الضرب والبناء فعلا للأمير بمعنى الأمر به حتى تنظر إلى ثبوتهما للمباشر لهما على الحقيقة ، والأمثلة فى هذا المعنى كثيرة تتلقاك من كل جهة وتجدها أنى شئت .

واعلم أنه لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين : فإما أن يكون الشىء الذى أثبت له الفعل مما لا يدعى أحد من المحقين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له وذلك نحو قول الرجل : محبتك جاءت بى إليك . وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها : هن مخرجاتى من الشام ، فهذا ما لا يشتبه على أحد أنه مجاز وإما أنه يكون قد علم من اعتقادات المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا للقادر ، وأنه ممن لا يعتقد الاعتقادات الفاسدة كنحو ما قاله المشركون وظنوه من ثبوت الهلاك فعلا للدهر فإذا سمعنا نحو قوله(١) :

(١) هو الصلتان العبدى الشاعر الأموى .

٤٩٠ — أشاب الصغير وأفنى الكبير   ر كر الغداة ومر العشى(١)

وقول أبى الأصبع :

٤٩١ — أهلكنا الليل والنهار معا   والدهر يغدو مصمما جذعا(٢)

كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد إما بمعرفة أحوالهم السابقة أو بأن تجد فى كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو ما يكشف عن قصد المجاز فيه كنحو ما صنع أبو النجم(٣) فإنه قال أولا :

٤٩٢ — قد أصبحت أم الخيار تدعى   على ذنبا كله لم أصنع

من أن رأت رأسى كرأس الأصلع

ميز عنه قنزعا عن قنزع(٤)

مر الليالى أبطئى أو أسرعى

فهذا على المجاز ، وجعل الفعل لليالى ومرورها إلا أنه خفى غير بادى الصفحة ، ثم فسر وكشف عن وجه التأول ، وأفاد أنه بنى أول كلامه على التخيل ، فقال :

٤٩٣ — أفناه قيل الله للشمس اطلعى   حتى إذا واراك أفق فارجعى(٥)

فبين أن الفعل لله وأنه المعيد والمبدىء والمنشىء والمفنى ، لأن المعنى فى قيل الله ، أمر الله ، وإذا جعل الفناء بأمره فقد صرح بالحقيقة ، وبين ما كان عليه من الطريقة .

---

(١) ومن المجاز فى الإسناد قول العباس بن الأحنف أو أبى نواس :

يزيدك وجهه حسنا   إذا ما زدته نظرا

(٢) مصمما : ماضيا . جذعا : فتيا .

(٣) هو من الرجاز المشهورين فى العصر الأموى .

(٤) القنزع : جمع قنزعة وهى الشعر حول الرأس .

(٥) هو لأبى النجم أيضاً .

واعلم أنه لا يصح أن يكون قول الكفار « وما يهلكنا إلا الدهر » من باب التأويل والمجاز وأن يكون الإنكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ وأن فيه إيهاما للخطأ . كيف وقد قال تعالى بعقب الحكاية عنهم : « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » ، والمتجوز أو المخطىء فى العبارة لا يوصف بالظن ، إنما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله وكما يوجبه ظاهر كلامه ، وكيف يجوز أن يكون الإنكار من طريق إطلاق اللفظ دون إثبات الدهر فاعلا للهلاك وأنت ترى فى نص القرآن ما جرى فيه اللفظ على إضافة فعل الهلاك إلى الريح مع استحالة أن تكون فاعلة ؟ وذلك قوله عز وجل « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » ، وأمثال ذلك كثير .

ومن قدح فى المجاز(١) ، وهم أن يصفه بغير الصدق ، فقد خبط خبطا عظيما واستهدف لما لا يخفى(٢) . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى تحصل ضروبه وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة ، لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة(٣) إليه من جهات يطول عدها ، وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفية يأتيهم منها فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويلقيهم فى الضلالة من حيث ظنوا أنهم يهتدون ؟ وقد اقتسمهم البلاء فيه من جانبى الإفراط والتفريط . فمن مغرور مغرى بنفيه دفعة ، والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن

(١) وهم الظاهرية .
(٢) من التجسيم مثلا وإنكار البلاغة .
(٣) أى مهمة .

اسمه، يرى أن لزوم الظواهر فرض لازم ، وضرب الخيام حولها حتم واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حده ويخبط ، فيعدل عن الظاهر والمعنى عليه ، ويسوم نفسه التعمق فى التأويل ولا سبب يدعو إليه :

أما التفريط فما تجد عليه قوما فى نحو قوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » وقوله « وجاء ربك » ، و « الرحمن على العرش استوى » ، وأشباه ذلك من النبو عن أقوال أهل التحقيق . فإذا قيل لهم إن الإتيان والمجىء انتقال من مكان إلى مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وإن الاستواء إن حمل على ظاهره لم يصح إلا فى جسم يشغل حيزاً ويأخذ مكانا ، والله عز وجل خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشىء كل ما تصح عليه الحركة والنقلة والتمكن والسكون ، والانفصال والاتصال ، والمماسة والمحاذاة ، وأن المعنى على : إلا أن يأتيهم أمر الله ، وجاء أمر ربك ، وأن حقه أن يعبر بقوله تعالى « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » ، وقول الرجل : آتيك من حيث لا تشعر – يريد أنزل بك المكروه ، وأفعل ما يكون جزاء لسوء صنيعك فى حال غفلة منك ، ومن حيث تأمن حلوله بك – وعلى ذلك قوله :

٤٩٤ – أتيناهم من أيمن الشق عندهم ويأتى الشقى الحين من حيث لا يدرى

نعم إذا قلت ذلك للواحد منهم ، رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه فبين جنبيه قلب يتردد فى الحيرة ويتقلب ، ونفس تفر من الصواب وتهرب ، وفكر واقف لا يجىء ولا يذهب ، يحضره الطبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد وجه الخلاص من عنائه ، ويأبى إلا نفاراً عن العقل ، ورجوعا إلى الجهل ، لا يحضره التوفيق بقدر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجرى فى قوله تعالى « واسئل القرية » على الظاهر لأجل علمه أن الجماد لا يسأل ، مع أنه لو تجاهل متجاهل فادعى أن الله تعالى خالق الحياة فى تلك القرية حتى عقلت السؤال وأجابت عنه ونطقت لم يكن قال قولا يكفر به ، ولم يزد على شىء

يعلم كذبه فيه ، فمن حقه أن لا يجثم هنا على الظاهر ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتى لا يعي ولا يراعي مع ما فيه إذا أخذ على ظاهره من التعرض للهلاك والوقوع فى الشرك .

فأما الإفراط فما يتعاطاه قوم يحبون الإغراب فى التأويل ، ويحرصون على تكثير الوجوه ، وينسون أن احتمال اللفظ شرط فى كل ما يعدل به عن الظاهر ، فهم يستكرهون الألفاظ على الأمثلة(١) من المعانى ، يدعون السليم من المعنى إلى السقيم ، ويرون الفائدة حاضرة وقد أبدت صفحتها وكشفت قناعها فيعرضون عنها حبا للتشوف(٢) ، وقصداً إلى التمويه وذهابا فى الضلالة .

وليس القصد هنا بيان ذلك فأذكر أمثلته ، على أن كثيراً من هذا الفن يرغب عن ذكره لسخفه ، وإنما غرضى بما ذكرت أن أريك عظم الآفة فى الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله ، وأن الخطأ فيه مورط صاحبه ، وفاضح له ، ومسقط قدره . وجاعله ضحكة(٣) يتفكه به ، وكاسيه عاراً يبقى على وجه الدهر وفى مثل هذا قال رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وليس حمله روايته وسرد ألفاظه ، بل العلم بمعانيه ومخارجه وطرقه ومناهجه والفرق بين الجائز والممتنع ، والمنقاد المصحف(٤) ، والناقى(٥) النافر .

---

(١) أى الأنواع المختلفة من المعانى .
(٢) التطلع وحب الظهور ، وتشوفت المرأة : تزينت .
(٣) أى يضحك عليه الناس .
(٤) اسم فاعل من أصحف له الرحل والدابة انقادا له وذلا .
(٥) أى البعيد المتجافى .

وأقل ما كان ينبغى أن تعرفه الطائفة الأولى وهم المنكرون للمجاز أن التنزيل : كما لم يقلب اللغة فى أوضاعها المفردة عن أصولها ، ولم يخرج الألفاظ عن دلالتها ، وأن شيئا من ذلك إن زيد إليه ، ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه أو ضمن ما لم يتضمنه ، أتبع ببيان من عند النبى ﷺ ، وذلك كبيانه للصلاة والحج والزكاة والصوم ؛ كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم ، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع ، وكذلك كان من حق الطائفة الأخرى أن تعلم أنه عز وجل لم يرض لنظم كتابه الذى سماه هدى وشفاء ونوراً وضياء ، وحياة تحيا بها القلوب ، وروحا تنشرح عنه الصدور ، ماهو عند القوم الذين خوطبوا به خلاف البيان ، وفى حد الإغلاق والبعد من التبيان ، وأنه تعالى لم يكن ليعجز بكتابه من طريق الإلباس والتعمية كما يتعاطاه الملغز من الشعراء ، والمحاجى من الناس ، كيف وقد وصفه بأنه « عربى مبين » .

هذا وليس التعسف الذى يرتكبه بعض من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أصحاب الألغاز والأحاجى ، بل هو شىء يخرج عن كل طريق ويباين كل مذهب ، وإنما هو سوء نظر منهم ووضع الشىء فى غير موضعه وإخلال بالشريطة ، وخروج عن القانون وتوهم أن المعنى إذا دار فى نفوسهم وعقل من تفسيرهم فقد فهم من لفظ المفسر ، وحتى كأن الألفاظ تنقلب عن سجيتها ، وتزول عن موضوعها ، فتحمل ما ليس من شأنها أن تحتمله ، وتؤدى مالا يوجب حكمها أن تؤديه .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كلام فى المجاز ، وفى بيان معناه وحقيقته

« وفيه بيان المنقول والمشترك والمجاز المرسل وعلاقاته »

المجاز(1) مفعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه . وإذ عدل باللفظ

---

(1) تكلم ابن رشيق فى « العمدة » على المجاز فقال : العرب كثيراً ما تستعمل المجاز ، وتعده من مفاخر كلامها ، فإنه دليل الفصاحة ورأس البلاغة . إلى أن قال : والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعاً فى القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضا فهو مجاز ، لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به ـ أعنى اسم المجاز ـ باباً بعينه ، وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب ، كما قال جرير بن عطية :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن يريد بالسماء السحاب ، لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال : سقط ، يريد سقط المطر الذى فيه ، وقال : رعيناه : والمطر لا يرعى ، ولكن أراد النبت الذى يكون عنه . فهذا كله مجاز ، وكذلك قول العتابى :

ياليلة لى بحوارين ساهرة حتى تكلم فى الصبح العصافير

فجعل الليلة ساهرة على المجاز ، وإنما يسهر فيها ، وجعل للعصافير كلاماً ـ

. . . .

= ولا كلام لها على الحقيقة ، ومثله قول الله عز وجل إخباراً عن سليمان عليه السلام : يأيها الناس علمنا منطق الطير — وإنما الحيوان الناطق الإنسان والجن والملائكة ، فأما الطير فلا ، لكنه مجاز مليح واتساع ، فالمجاز بهذا عند ابن رشيق يشمل ما سمى بعد المجـــاز المرسل والمجاز العقلى ، وقد يشمل الاستعارة أيضاً لولا أنه بعد أن جعلها منه عاد فجعله قسما خاصاً مقابلا له وللتشبيه .

ثم تكلم على الاستعارة فقال : الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها ، والناس مختلفون فيها : منهم من يستعير الشىء ما ليس منه ولا إليه ، كقول لبيد :

وغـداة ريح قـد كشفت وقـرة
إذ أصبحت بيـد الشمال زمامهـا

فاستعار للريح الشمال يدا ، وللغداة زماما ، وجعل زمام الغداة ليد الشمال إذ كانت الغالبة عليها ، وليست اليد من الشمال ، ولا الزمام من الغداة . ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه ، كما قال ذو الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى
وساق الثريا فى ملاءته الفجر

فاستعار للفجر ملاءة ، وأخرج لفظه مخرج التشبيه ، وكان أبو عمرو ابن العلاء لايرى أن لأحد مثل هذه العبارة ، ويقول : ألا ترى كيف صير له ملاءة ، ولا ملاءة له ، وإنما استعار له هذه اللفظة ، وبعض الكتاب يرى ما كان من نوع بيت ذى الرمة ناقص الاستعارة ، إذ كان محمولا على التشبيه ،

. . . .

= ويفضل عليه ما كان من نوع بيت لبيد ، وهذا عندي خطأ ، لأنهم إنما يستحسنون الاستعارة القريبة ، وعلى ذلك مضى جلة العلماء ، وبه أتت النصوص عنهم، وإذا استعير للشيء مايقرب منه ويليق به كان أولى مما ليس منه في شيء ، ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبي نواس :

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

فأي شيء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف حتى بح من الشكوى والصياح . وهذان القسمان اللذان ذكرهما ابن رشيق هما اللذان سميا بعد هذا بالاستعارة التحقيقية والمكنية ، والمعروف الآن أن كلا منهما مبني على التشبيه فالمكنية فيها مشبه ومشبه به أيضاً ، ولكن يثبت فيها للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الأمر .

ثم تكلم على التمثيل فقال : ومن ضروب الاستعارة التمثيل ، وهو المماثلة عند بعضهم ، وذلك أن تمثل شيئاً بشيء فيه إشارة ، نحو قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتقدحي بسهميك في أعشار قلب مقتل

فمثل عينيها بسهمي الميسر — يعني المعلى ، وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء — فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور ، فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل . وقال حريث بن زيد الخيل :

أبأنا بقتلانا من القوم عصبة كراماً ولم نأكل بهم حشف النخل =

عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلى أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولا .

ثم اعلم بعد أن فى إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل . ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذى تجعله حقيقة فيه ، نحو أن اليد تقع للنعمة وأصلها الجارحة لأجل أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم ، ومايقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجبلة ، ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها والموهوبة هى منه . وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة لأن القدرة أكثر مايظهر سلطانها فى اليد ، وبها يكون البطش والأخذ والدفع والمنع ، والجذب والضرب والقطع ، وغير ذلك من الأفاعيل(١) التى تخبر فضل إخبار عن وجوه القدرة وتنبىء عن مكانها . ولذلك تجدهم لايريدون باليد شيئاً لا ملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه .

ولوجوب اعتبار هذه النكتة فى وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجز استعماله

= فمثل خساس الناس بحشف النخل ، ويجوز أن يريد أخــذ الدية فيكون حينئذ حذفا أو إشارة .

وذكر أن معنى التمثيل اختصار قولك مثل كذا وكذا كذا وكذا ، وأن التمثيل والاستعارة من التشبيه إلا أنهما بغير آلته ، وعلى غير أسلوبه ، وأسلوب التشبيه عنده أن يكون مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها .

(١) جمع أفعال وهو جمع لفعل .

فى الألفاظ التى يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كبعض الأسماء المجموعة فى الملاحن(١) ، مثل أن الثور يكون اسما للقطعة الكبيرة من الأقط(٢) والنهار إسم لفرخ الحبارى(٣) والليل لولد الكروان(٤) كما قال :

٤٩٣ ـ أكلت النهار بنصف النهار
وليلا أكلت بليل بهيم

وذلك أن اسم الثور لم يقع على الأقط لأمر بينه وبين الحيوان المعلوم ، ولا النهار على الفرخ لأمر بينه وبين ضوء الشمس أداه إليه وساقه نحوه .

والغرض المقصود بهذه العبارة ـ أعنى قولنا المجاز ـ أن نبين أن للفظ أصلا مبدوءا به فى الوضع ومقصوداً ، وأن جريه على الثانى إنما هو على سبيل النقل إلى الشىء من غيره ، وكما يعبق الشىء برائحة ما يجاوره ، وينصبغ بلون ما يدانيه ، لذلك لم تزهم يطلقون المجاز فى الأعلام واطلاقهم لفظ النقل فيها ، حيث قالوا : العلم على ضربين منقول ومرتجل ، وأن المنقول منها يكون منقولا عن اسم جنس كأسد وثور وزيد وعمرو ، أو صفة كعاصم وحارث أو فعل كيزيد ويشكر ، أوصوت كببه ، فأثبتوا بهذا كله النقل من غير العلمية إلى العلمية ، ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلا إن « يشكر » حقيقة فى مضارع شكر ومجاز فى كونه إسم رجل ، وإن

(١) جمع لحن على غير قياس ، أو ملحن وهو القول الذى يورى به عن غيره .

(٢) أى الجبن المصنوع من اللبن الحامض .

(٣) طائر يضرب به المثل فى الحمق .

(٤) طائر طويل الرجلين أغبر وهو قريب من الحمامة وله صوت جميل .

حجراً حقيقة فى الجماد ومجاز فى اسم الرجل ، وذلك أن الحجر لم يقع اسماً للرجل ، لالتباس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة وبينها وبين القدرة ، ولا كما كان بين الظهر الحامل وبين المحمول فى نحو تسميتهم المزادة راوية(١) وهى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل ، وكتسميتهم البعير حفضاً وهو اسم لمتاع البيت الذى يحمل عليه ـ ولا كنحو ما بين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص كتسميتهم الرجل عيناً إذا كان ربيئة(٢) ، والناقة ناباً ـ ولا كما بين النبت والغيث وبين السماء والمطر حيث قالوا : رعينا الغيث ، يريدون النبت الذى الغيث سبب فى كونه ، وقالوا أصابنا السماء ، يريدون المطر ، وقال (٣) :

٤٩٦ — « تلفه الأرواح والسمى »

وذلك أن فى هذا كله تأولا وهو الذى أفضى بالاسم إلى ماليس بأصل فيه ، فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله ، إذ كان لولا هداها لايغنى شيئاً مع فقدها ، والغيث لما كان النبت يكون عنه صار كأنه هو ، والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها .

واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول والمنقول عنه تختلف فى القوة والضعف والظهور وخلافه ، فهذه الأسماء التى ذكرتها إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ماهى له وبين ماردت إليه وجدتها أقوى من نحو ماتراه

---

(١) من روى الماء : حمله مثل روى الحديث : حفظه .

(٢) من ربأ القوم : استطلع حركاتهم .

(٣) هو رؤبة وينسب للعجاج وتمامه « فى دفء أرطاة لها حنى » الأرطاة جمع أرطى شجر نوره كنور الخلاف ، وثمره كالعناب ، الحنى جمع حنو وحنى وهو : العود المعوج .

والسمى : جمع سماء بمعنى المطر . والأرواح : الرياح .

في تسميتهم الشاة التي تذبح عن الصبي إذا حلقت عقيقته(١) «عقيقة» وتجد حالها بعد أقوى من حال العقيرة في وقوعها للصوت في قولهم «رفع عقيرته» وذلك أنه شيء جرى اتفاقا ولا معنى يصل بين الصوت وبين الرجل المعقورة على أن القياس يقتضي أن لا يسمى مجازاً ، ولكن يجرى مجرى الشيء يحكم فيه بعد وقوعه ، كالمثل إذا حكى فيه كلام صدر عن قائله من غير قصد إلى قياس وتشبيه ، بل الإخبار عن أمر من قصده بالخطاب كقولهم : « في الصيف ضيعت اللبن »(٢) .

ولهذا الموضع تحقيق لا يتم إلا بأن يوضع له فصل مفرد . والمقصود الآن غير ذلك ، لأن قصدي في هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من الاستعارة ، وأن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة ، مجاز ، وليس كل مجاز استعارة ، وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن ، أعني علم الخطابة ونقد الشعر ، والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع ، يجرى على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة .

قال القاضي أبو الحسن(٣) في أثناء فصل ذكرها فيه : « وملاك الاستعارة تقريب الشبه ومناسبة المستعار للمستعار منه » .

وهكذا تراهم يعدونها في أقسام البديع ، حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر وغير ذلك ، من غير أن يشترطوا شرطاً . ويعقبوا ذكرها بتقييد ، فيقولوا : ومن البديع الاستعارة التي من شأنها كذا . فلولا أنها عندهم نقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعاً وإما تقريباً

---

(١) هي شعر كل مولود من الناس والبهائم حين الولادة .
(٢) يضرب لمن ضيع الشيء في وقته وعاد يطلبه بعد فواته .
(٣) هو القاضي الجرجاني صاحب كتاب الوساطة راجع ص ٤٣ الوساطة .

من المقطوع عليه لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة يبين ذلك أنها إن كانت تساوق المجاز وتجرى مجراه حتى تصلح لكل ما يصلح له، فذكرها في أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم، حتى يكون إجراء اليد على النعمة بديعاً وتسمية البعير حفضاً والناقة ناباً والربيئة عيناً والشاة عقيقة بديعاً كله، وذلك بين الفساد.

وأما ما تجده في كتب اللغة من إدخال ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة، كما صنع أبو بكر بن دريد في الجمهرة فإنه ابتدأ باباً فقال: « باب[1] الاستعارات » ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات في الحرب ثم كثرت وصار الحرب وغى، وأنشد:

٤٩٥ ـ إضمامة[2] من ذودها الثلاثين   لها وغى[3] مثل وغى الثمانين

يعنى اختلاط أصواتها. وذكر قولهم « رعينا الغيث والسماء » يعنى المطر، وذكر ما هو أبعد من ذلك فقال: الخرس، ما تطعمه النفساء: ثم صارت الدعوة للولادة خرساً: والإعذار الختان وسمى الطعام للختان إعذارا، وأن الظعينة أصلها المرأة في الهودج، ثم صار البعير والهودج ظعينة، والخطر، ضرب البعير بذنبه جانبي وركيه ثم صار ما لصق من البول بالوركين خطراً. وذكر أيضاً الراوية بمعنى المزادة والعقيقة، وذكر فيما بين ذكره لهذا الكلام أشياء هي استعارة على الحقيقة على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر، لأنه قال: الظمأ العطش وشهوة الماء، ثم كثر ذلك حتى قالوا « ظمئت إلى لقائك ». وقال: الوجور ما أوجره الإنسان من دواء أو غيره[4]، ثم قالوا أوجره الرمح إذا طعنه في فيه.

---

(١) راجع ٣ : ٤٩٠ الجمهرة لابن دريد.

(٢) الإضمامة: الجماعة من الرجال.   (٣) صوت وشدة جلبة.

(٤) هو ما يوجر أي يصب في الحلق.

فالوجه في هذا الذي رواه ـ من اطلاق الاستعارة على ماهو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر ، وعلى ما ليس من التشبيه في شيء ، ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسبب اختصاص وضرب من الملابسة بينهما وخلط أحدهما بالآخر : أنهم كانوا نظروا إلى ما يتعارفه الناس في معنى العارية ، وأنها شيء حول على مالكه ، ونقل عن مقره الذي هو أصل في استحقاقه ، إلى ما ليس بأصل ، ولم يراعوا عرف القوم(١) ، ووزانهم في ذلك وزان من يترك عرف النحويين في التمييز واختصاصهم له بما احتمل أجناساً مختلفة كالمقادير والأعداد وماشاركها في أن الإبهام الذي يراد كشفه منه هو احتماله الاجناس فيسمى الحال مثلا تمييزاً من حيث إنك إذا قلت « راكباً » ، فقد ميزت المقصود وبينته ، كما فعلت ذلك في قولك : عشرون درهما ومنوان سمناً وقفيزان براً ولي مثله رجلا ولله دره رجلا ، وليس هذا المذهب بالمذهب المرضى ، بل الصواب أن تقصر الاستعارة على مانقله نقل التشبيه للمبالغة ، لأن هذا نقل يطرد على حد واحد ، وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة ، فالتطفل به على غيره في الذكر وتركه مغموراً فيما بين أشياء ، ليس لها في نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ، ضعف من الرأي وتقصير في النظر .

وربما وقع في كلام العلماء بهذا الشأن الاستعارة على تلك الطريقة العامية ، إلا أنه لا يكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول . ومثاله أن أبا القاسم الآمدي(٢) ، قال في أثناء فصل يبحث عن شيء اعترض به على البحتري في قوله :

---

(١) وهم أهل العلم بالشعر البلاغة والخطابة .

(٢) صاحب كتاب « الموازنة » وقد توفي عام ٣٧١ هـ . أما الآمدي الأصولي فاسمه سيف الدولة أبو الحسن علي بن محمد وله كتاب الأحكام توفي عام ٦٣١ هـ .

٤٩٦ — فكأن مجلسه المحجب محفل
وكأن خلوته الخفية مشهد

إن المكان لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم ، ثم قال : « ألا ترى إلى قول المهلهل :

٤٩٧ — واستب بعدك يا كليب المجلس

على الاستعارة(١) :

فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمور وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على وجه وقوع الشيء على مايتصل به وتكثر ملابسته إياه ، وأى شبه يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لايعتد بمثل هذا فان ذلك قد يتفق حيث ترسل العبادة .

وقال الآمدى نفسه : « ثم قد يأتى في الشعر ثلاثة أنواع أخر يكتسى المعنى العام بها بهاء وحسنا حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصاً » ثم قال : « وهذه الأنواع هى التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس(٢) » ، فهذا نص فى موضع القوانين، على أن الاستعارة من أقسام البديع ولن يكون النقل بديعاً حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما يتبين لك . وإذا كان كذلك ثم جعل الاستعارة على الاطلاق بديعاً فقد أعلمك أنها اسم الضرب المخصوص من النقل دون كل نقل ما عرفه .

واعلم أنا إذا أمعنا النظر وجدنا المنقول من أصل التشبيه على المبالغة أحق بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى ، بيان ذلك أن مالك المعير

(١) ص ١٦٩ الموازنة ـ طبعة صبيح . (٢) ٦ الموازنة .

لايزول عن المستعار ، واستحقاقه إياه لايرتفع ، فالعارية إنما كانت عارية لأن يد المستعير يد عليها ما دامت يد المعير باقية وملكه غير زائل ، فلا يتصور أن يكون للمستعير تصرف لم يستفده من المالك الذى أعاره ولا أن تستقر يده مع زوال اليد المنقول عنها .

وهذه جملة لا تراها إلا فى المنقول نقل التشبيه لأنك لا تستطيع أن تتصور جرى الاسم على الفرع من غير أن تخرجه إلى الأصل : وكيف ولا يعقل تشبيه حتى يكون ههنا مشبه ومشبه به ، هذا والتشبيه ساذج مرسل فكيف إذا كان على معنى المبالغة وعلى أن تجعل الثانى كأنه انقلب مثلا إلى جنس الأول فصار الرجل أسداً وبحراً وبدراً ، والعلم نوراً ، والجهل ظلمة ، لأنه إذا كان على هـذا الوجه كانت حاجتك إلى أن تنظر به إلى الأصل أمسّ ، لأنه إذا لم يتصور أن يكون ههنا سبع من شأنه الجراءة العظيمة والبطش الشديد كان تقديرك شيئاً آخر يتحول إلى صفته ويصير فى حكمه من أبعد المحال .

وأما ما كان منقولا لأجل التشبيه كاليد فى نقلها إلى النعمة فلا يوجد ذلك فيه لأنك لا تثبت للنعمة بإجراء اسم اليد عليها شيئاً من صفات الجارحة المعلومة ولا تروم تشبيهاً بها ألبتة لا مبالغاً ولا غير مبالغ ، فلو فرضنا أن تكون اليد اسماً وضع للنعمة ابتداء ثم نقلت إلى الجارحة لم يكن ذلك مستحيلا . وكذلك لو ادعى مدع أن جرى اليد على النعمة أصل ولغة على حدتها وليست مجازاً لم يكن مدعيا شيئاً يحيله العقل . ولو حاول محاول أن يقول فى مسألتنا قولا شبيها بهذا رام تقدير شىء يجرى عليه اسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاستعارة مع فقد السبع المعلوم ومن غير أن يثبت استحقاقه لهذا الاسم فى وضع اللغة رام شيئاً فى غاية البعد .

وعبارة أخرى : العارية من شأنها أن تكون عند المستعير على صفة شبيهة بصفتها — وهى عند المالك — ولسنا نجد هذه الصورة إلا فيما نقل نقل التشبيه للمبالغة دون ما سواه ، ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعار له ليدل على مشاركته المستعار منه فى صفة هى أخص الصفات التى من أجلها وضع الاسم الأول ، أعنى أن الشجاعة أقوى المعانى التى من أجلها سمى الأسد أسداً وأنت تستعير الاسم للشىء على معنى إثباتها له على حدها فى الأسد ، فأما اليد ونقلها إلى النعمة فليست من هذا فى شىء لأنها لم تتناول النعمة لتدل على صفة من أوصاف اليد بحال ، ويحرر ذلك نكتة ، وهى أنك تريد بقولك رأيت أسداً أن تثبت للرجل الأسدية ، ولست تريد بقولك له عندى يد ، أن تثبت للنعمة اليدية وهذا واضح جداً .

واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة والجحفلة فى مكان المشفر ونظائره التى قدمت ذكرها فى الاستعارة ، وأضن باسمها أن يقع عليه ، ولكننى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها (١) فكرهت التشدد فى الخلاف واعتددت به فى الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة . وكان وزان ذلك أن يقال المفعول على ضربين : مفعول صحيح ومشبه بالمفعول فيتجوز باعتداد المشبه بالمفعول فى الجملة ثم يفصل بالوصف ، ووجه شبه هذا النحو الذى هو نقل الشفة إلى موضع الجحفلة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم إلى مجانس له ، ألا ترى أن المراد بالشفة والجحفلة عضو واحد وإنما الفرق أن هذا من الفرس وذاك من الإنسان ، والمجانسة والمشابهة من واد واحد ، فأنت تقول : أعير الشىء اسمه الموضوع له هنالك — أى فى الإنسان — ههنا — أى فى الفرس — لأن

---

(١) راجع ٣ : ٤٨٩ الجمهرة لابن دريد ، حيث ذكر مثلا لها تحت باب سماه ، باب ما يستعار فيتكلم به فى غير موضعه .

أحدهما مثل صاحبه وشريكه في جنسه كما أعرت للرجل اسم الأسد لأنه شاركه في صفته الخاصة به وهي الشجاعة البايغة ، وليس لليد مع النعمة هذا الشبه إذ لا مجانسة بين الجارحة وبين النعمة ، وكذا لا شبه ولا جنسية بين البعير ومتاع البيت وبين المزادة وبين البعير ، ولا بين العين وبين جملة الشخص ، فإطلاق اسم الاستعارة عليه بعيد ، ولو كان اللفظ يستحق الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن توصف الأسماء المنقولة من الأجناس إلى الأعلام بأنها مستعارة فيقال حجر مستعار في اسم الرجل ولزم كذلك في الفعل المنقول نحو يزيد ويشكر وفي الصوت نحو « ببه »(١) في قوله :

٤٩٧ — لأنكحن ببه جارية خدبه(٢)
مكرمة محبه تجب أهل الكعبه(٣)

وذلك ارتكاب قبيح وفرط تعصب على الصواب .

ويلوح ههنا شيء ، وهو أنا وإن جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا اسم مستعار وهذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك ، فإنا على ذلك نشير بها إلى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن نثبت أخص معانيه للمستعار له ، يدلك على ذلك قولنا : جعله أسداً وجعله بدراً وجعل للشمال يداً ، فلولا أن استعارة الاسم للشيء تتضمن استعارة معناه له لما كان لهذا الكلام معنى لأن جعل لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشيء كقولنا : جعلته أميراً وجعلته

---

(١) ببه : حكاية صوت الطفل ، وهو لقب عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ولقبته والدته هند بنت أبي سفيان بذلك وهو صغير وكانت ترقصه وتنشد هذا الشعر .

(٢) الخدبة : السمينة .

(٣) تجب : أي تغلب نساء قريش في حسنها .

لما تريد أنه أثبت له الإمارة واللصوصية ، وحكم جعل إذا تعدى إلى مفعولين حكم صير ، فكما لا تقول صيرته أميراً إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة كذلك لم تقل : جعله أسداً ، إلا على أنه أثبت له معنى من معاني الأسود ، ولا يقال : جعلته زيداً ، بمعنى سميته زيداً ، ولا يقال للرجل : اجعل ابنك زيداً ، بمعنى سمه زيداً ، ولا يقال ولد لفلان ابن فجعله زيداً أي سماه زيدا ، وإنما يدخل الغلط في ذلك على من لا يحصل هذا الشأن .

فأما قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) فإنما جاء على الحقيقة التي وصفتها وذلك أنهم أثبتوا للملائكة صفة الإناث واعتقدوا وجودها فيهم، عن وهذا الاعتقاد صدر عنهم ما صدر لتمثلها في أذهانهم بصورة الإناث وما صدر من الاسم أعني إطلاق اسم البنات ، وليس المعنى أنهم وضعوا لها لفظ الإناث أو لفظ البنات اسما من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة ، هذا محال لا يقوله عاقل ، أو ما يسمعون قول الله عز وجل (أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويسئلون) فإن كانوا لم يزيدوا على إجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات صفة ومعنى فأي معنى لأن يقال : (أشهدوا خلقهم) — هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات صفة ولم يفعلوا أكثر من أن وضعوا اسما ، لما استحقوا إلا اليسير من الذم ، ولما كان هذا القول كفرا منهم ، والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى ، ولكن قد يكون للشيء المستحيل وجوه في الاستحالة فتذكر كلها ، وإن كان في الواحد منها ما يزيل الشبهة ويتم الحجة(١) .

---

(١) ذكر ذلك في دلائل الإعجاز أيضاً ص ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٩٢ ، وذكره في « في أسرار البلاغة » في موضع سابق .

فصـــل

« في تقسيم المجاز إلى اللغوى والعقلى واللغوى إلى الاستعارة وغيرها »

اعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول ، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : اليد مجاز فى النعمة ، والأسد مجاز فى الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف ، كان حكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذى وقعت له ابتداء فى اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيهاً وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هى جمل لا يصح ردها إلى اللغة ولا وجه لنسبتها إلى واضعها لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شىء يحصل بقصد المتكلم فلا يصير ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له .

وهكذا « ليضرب زيد » لا يكون أمراً لزيد باللغة ولا (اضرب) أمراً للرجل الذى تخاطبه وتقبل عليه من كل من يصح خطابه باللغة بل بك أيها المتكلم ، فالذى يعود إلى واضع اللغة أن ضرب لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته فى زمان ماض ، وليس لإثباته فى زمان مستقبل ، فأما تعين من يثبت له فيتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين والمعبرين عن ودائع الصدور ، والكاشفين عن المقاصد والدعاوى . صادقة كانت تلك الدعاوى أو كاذبة ، ومجراة على صحتها ، أو مزالة عن مكانها من الحقيقة وجهتها ، ومطلقة بحسب ما تأذن فيه العقول وترسمه ، أو معدولا بها عن مراسمها نظما لها فى سلك التخييل ، وسلوكا بها فى مذهب التأويل .

فإذا قلنا مثلا : خط أحسن مما وشاه الربيع أو صنعه الربيع ، كنا قد ادعينا فى ظاهر اللفظ أن للربيع فعلا أو صنعاً وأنه شارك الحى القادر فى صحة الفعل منه وذلك تجوز به من حيث المعقول لا من حيث اللغة ، لأنه إن قلنا إنه مجاز من حيث اللغة صرنا كأنا نقول إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وأنها لو حكمت بأن الجماد يصح منه الفعل والصنع والوشى والتزيين ، والصبغ والتحسين ، لكان ما هو مجاز الآن حقيقة ، ولعاد ما هو الآن بتأول معدوداً فيما هو حق محصل ، وذلك محال ، وإنما يتصور مثل هذا القول فى الكلم المفردة نحو اليد للنعمة وذلك أنه يصح أن يقال لو كان واضع اللغة وضع اليد أولا للنعمة ثم عداها إلى الجارحة لكان حقيقة فيما هو الآن مجاز ومجاز فيما هو حقيقة ، فلم يكن بواجب من حيث المعقول أن يكون لفظ اليد اسماً للجارحة دون النعمة ولا فى العقل أن شيئاً بلفظ أن يكون دليلا عليه أولى منه بلفظ ، لاسيما فى الأسماء الأولى التى ليست بمشتقة . وإنما وزان ذلك وزان أشكال الخط التى جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعة فى أنه لا يتصور أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع وتواضع اتفق . ولو كان كذلك لم تختلف المواضعات فى الألفاظ والخطوط ، ولكانت اللغات واحدة ، كما وجب فى عقل كل عاقل يحصل ما يقول أن لا يثبت الفعل على الحقيقة إلا للحى القادر .

فإن قلت : فإن اللغة رسمت أن يكون « فعل » لإثبات الفعل للشيء كما زعمت ولكنا إذا قلنا : فعل الربيع الوشى أو اوشى الربيع فإننا نريد بذلك معنى معقولا وهو أن الربيع سبب فى كون الأنوار التى تشبه الوشى ، فقد نقلنا الفعل عن حكم معقول وضع له إلى حكم آخر معقول شبيه بذلك الحكم ، فصار ذلك كنقل الأسد عن السبع إلى الرجل الشبيه به فى الشجاعة ، أفتقول : الأسد على الرجل مجاز من حيث المعقول لا من حيث اللغة كما

نقلت فى صيغه فعل إذا أسندت إلى ما لا يصح أن يكون له فعل : إنها مجاز من جهة العقل لا من جهة اللغة ؟ .

فالجواب : أن بينهما فرقا وإن ظننتهما متساويين :

وذلك أن « فعل » موضوع لإثبات الفعل للشيء على الإطلاق والحكم فى بيان من يستحق هذا الإثبات وتعيينه إلى العقل ، وأما الأسد فموضوع للسبع قطعاً واللغة هى التى عينت المستحق بها ، وبرسمها وحكمها ثبت هذا هذا الاستحقاق والاختصاص ، ولولا نصها لم يتصور أن يكون هذا السبع بهذا الاسم أولى من غيره ، فأما استحقاق الحى القادر أن يثبت الفعل له واختصاصه بهذا الاثبات دون كل شيء سواه فبفرض العقل ونصه لا باللغة ، فقد نقلت الأسد عن شيء هو أصل فيه باللغة لا بالعقل ، وأما فعل فلم تنقله عن الموضع الذى وضعته اللغة فيه لأنه كما مضى موضوع لإثبات الفعل للشيء فى زمان ماض وهو فى قولك « فعل الربيع » باق على هذه الحقيقة غير زائل عنها ولن يستحق اللفظ الوصف بأنه مجاز حتى يجرى على شيء لم يوضع له فى الأصل . وإثبات الفعل لغير مستحقه ولما ليس بفاعل على الحقيقة لا يخرج فعل عن أصله ولا يجعله جارياً على شيء لم يوضع له ، لأن الذى وضع له فعل هو إثبات الفعل للشيء فقط ، فأما وصف ذلك الشيء الذى يقع هذا الإثبات له فخارج عن دلالته وغير داخل فى الموضع اللغوى ، بل لا يجوز دخوله فيه لما قدمت من استحالة أن يقال إن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وما فى ذلك من الفساد العظيم فاعرفه فرقا واضحا وبرهانا قاطعا .

وههنا نقطة جامعة وهى أن المجاز فى مقابلة الحقيقة فما كان طريقا فى أحدهما من لغة أو عقل فهو طريق فى الآخر . ولست تشك فى أن طريق كون الأسد حقيقة فى السبع اللغة دون العقل وإذا كانت اللغة طريقا للحقيقة فيه وجب أن تكون هى أيضاً الطريق فى كونه مجازاً فى المشبه بالسبع إذا أتت

أجريت اسم الأسد عليه فقلت : رأيت أسداً ، تريه رجلا لا تميزه عن الأسد في بسالته وإقدامه وبطشه . وكذلك إذا علمت أن طريق الحقيقة في إثبات الفعل للشيء هو العقل فينبغي أن تعلم أنه أيضاً الطريق إلى المجاز فيه. فكما أن العقل هو الذي دلك حين قلت « فعل الحي القادر » أنك لم تتجوز وأنك واضع قدمك على محض الحقيقة ، كذلك ينبغي أن يكون هو الدال والمقتضى إذا قلت «فعل الربيع» أنك قد تجوزت وزلت عن الحقيقة فاعرفه.

فإن قال قائل : كان سياق هذا الكلام وتقريره يقتضي أن طريق المجاز كله العقل وأن لا حظ للغة فيه ، وذلك أنا لا نجري اسم الأسد على المشبه بالأسد حتى ندعي له الأسدية وحتى نوهم أنه حين أعطاك من البسالة والبأس والبطش ما تجده عند الأسد صار كأنه واحد من الأسود وقد استبدل بصورته صورة الإنسان ، وقد قدمت أنت فيما مضى ما بين أنك لا تتجوز في إجراء اسم المشبه به على المشبه حتى تخيل إلى نفسك أنه هو بعينه فإذا كان الأمر كذلك فأنت في قولك : رأيت أسداً ، متجوز من طريق المعقول ، كما أنك كذلك في فعل الربيع ، وإذا كان كذلك عاد الحديث إلى أن المجاز فيهما جميعاً عقلي فكيف قسمته قسمين : لغوي وعقلي ؟

فالجواب : أن هذا الذي زعمت — من أنك لا تجرى اسم المشبه به على المشبه تدعى أنه قد صار من ذلك الجنس نحو أن تجعل الرجل كأنه في حقيقة الأسد — صحيح كما زعمت لا يدفعه أحد ، وكيف السبيل إلى دفعه وعليه المعول في كون التشبيه على حد المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل ، إلا أن هناك نكتة أخرى قد أغفلتها وهي أن تجوزك هذا الذي طريقه العقل يفضى بك إلى أن تجرى الاسم على شيء لم يوضع له في اللغة على كل حال ، فتجوز بالاسم على الجملة الشيء الذي وضع له فمن ههنا جعلنا اللغة طريقاً فيه .

فإن قلت : لا أسلم أنه جرى على شيء لم يوضع له في اللغة لأنك إذا قلت لا تجريه على الرجل حتى تدعى له أنه في معنى الأسد لم تكن قد أجريته على ما لم يوضع له . وإنما كان يكون جارياً على غير ما وضع له أن لو أجريته على شيء لتفيد به معنى غير الأسدية ، وذلك مالا يعقل ، لأنك لا تفيد بالأسد في التشبيه أنه رجل مثلا أو عاقل أو على وصف لم يوضع هذا الاسم للدلالة عليه ألبتة .

قيل لك : قصارى حديثك هذا أنا أجرينا اسم الأسد على الرجل المشبه بالأسد على طريق التأويل والتخيل ، أفليس على كل حال قد أجريناه على ما ليس بأسد على الحقيقة ؟ أو لسنا قد جعلنا له مذهباً لم يكن له في أصل الوضع ، وهنا قد ادعينا للرجل الأسدية حتى استحق بذلك أن تجرى عليه اسم الأسد . أترانا نتجاوز في هذه الدعوى حديث الشجاعة حتى ندعى للرجل صورة الأسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه الظاهرة البادية للعيون ؟ ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمكنها فإن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها ، بل لها في مثل تلك الجثة ، وهاتيك الصورة والهيئة ، وتلك الأنياب والمخالب ، إلى سائر ما يعلم من الصور الخاصة في جوارحه كلها ، ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التي تعرفها وحدها لكان صفة لا اسما ، ولكان كل شيء يفضى بشجاعته إلى ذلك الحد مستحقا للاسم استحقاقا حقيقيا لا على طريق التشبيه والتأويل .

وإذا كان كذلك فإنا وإن كنا لم ندل به على معنى لم يتضمنه اسم الأسد في أصل وضعه فقد سلبناه بعض ما وضع له وجعلناه للمعاني التي هي باطنة في الأسد وغريزة وطبع به وخلق فيه مجردة عن المعاني الظاهرة التي هي جثة وهيئة وخلق ، وفي ذلك كفاية في إزالته عن أصل وضع له في اللغة ونقله عن حد جريه فيه إلى حد آخر مخالف له وليس في فعل إذا تجوز فيه شيء من ذلك ، لأنا لم نسلبه لا بالتأويل ولا غير التأويل شيئا وضعته اللغة لأنه

كما ذكرت غير مرة لإثبات الفعل للشيء من غير أن يتعرض لذلك الشيء : ما هو ، وأهو مستحق لأن يثبت له الفعل أو غير مستحق ، وإذا كان كذلك كان الذى أرادت اللغة به موجوداً فيه ثابتاً له فى قولك « فعل الربيع » ثبوته إذا قلت « فعل الحى القادر » لم تتغير له صورة ولم ينقص منه شيء ولم يزل عن حد إلى حد فاعرفه .

فإن قلت : قد علمنا أن طريق المجاز ينقسم إلى ما ذكرت من اللغة والمعقول ، وأن « فعل » فى نحو فعل الربيع مما طريقه المعقول ، وأن نحو الأسد إذا قصد به التشبيه واستعير لغير السبع طريق مجازه اللغة ، وبقى أن نعلم : لم خصصت المجاز إذا كان طريقه العقل بأن توصف به الجملة من الكلام دون الكلمة الواحدة ؟ وهلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفاً به ؟ .

فإن(١) سبب ذلك أن المعنى الذى له وضع فعل لا يتصور الحكم عليه بمجاز أو حقيقة حتى يسند إلى الاسم ، وهكذا كل مثال من أمثلة الفعل لأنه موضوع لإثبات الفعل للشيء فما لم يبين ذلك الشيء الذى تثبته له وتذكره لم يعقل أن الإثبات واقع موقعه الذى تجده مرسوماً به فى صحف العقول أم قد زال عنه وجازه إلى غيره . هذا وقولك « هلا جوزت أن يكون فعل على الانفراد موصوفاً به » محال بعد أن تثبت أن لا مجاز فى دلالة اللفظ وإنما المجاز فى أمر خارج عنه .

فإن قلت : أردت : هلا جوزت أن ينسب المجاز إلى معناه وحده وهو إثبات الفعل فيقال هو إثبات فعل على سبيل المجاز .

فإن(١) ذلك لا يتأتى أيضاً إلا بعد ذكر الفاعل لأن المجاز أو الحقيقة إنما يظهر ويتصور من المثبت والمثبت له ، وإثبات الفعل من غير أن يقيد

---

(١) هذا هو جواب الشرط .

بما وقع الإثبات له لا يصح الحكم عليه بمجاز أو حقيقة فلا يمكنك أن تقول : إثبات الفعل مجاز أو حقيقة ، هكذا مرسلا ، وإنما تقول : إثبات الفعل للربيع مجاز وإثباته للحى القادر حقيقة .

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً وحقيقة من طريق العقل إلا فى جملة من الكلام . وكيف يتصور خلاف ذلك ، ووزان الحقيقة والمجاز العقليين وزان الصدق والكذب ، فكما يستحيل وصف الكلم المفردة بالصدق والكذب وأن يجرى ذلك فى معانيها مفرقة غير مؤلفة فيقال « رجل — على الانفراد — كذب أو صدق » كذلك يستحيل أن يكون ههنا حكم بالمجاز أو الحقيقة وأنت تنحو نحو العقل إلا فى الجملة المفيدة ، فاعرفه أصلا كبيراً ، والله الموفق للصواب ، والمسئول أن يعصم من الزلل ، بمنه وفضله .

فصـــــل

فى الحذف والزيادة ، وهل هما من المجاز ؟

اعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها . ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو (واسأل القرية)(١) والأصل واسأل أهل القرية . فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطؤهم الطريق » يريدون أهل الطريق ، الرفع فى الطريق مجاز لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذى هو الأهل والذى يستحقه فى أصله هو الجر .

ولا ينبغى أن يقال : إن وجه المجاز فى هذا الحذف ، فإن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام ما بقى بعد الحذف لم يسم مجازاً . ألا ترى أنك تقول : زيد منطلق وعمرو . فتحذف الخبر ثم لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز ، وذلك أنه لم يؤد إلى تغيير حكم فيما بقى من الكلام .

ويزيده تقريراً أن المجاز إذا كان معناه أن تجوز بالشىء موضعه وأصله فالحذف بمجرده لا يستحق الوصف به لأن ترك الذكر وإسقاط الكلمة من الكلام لا يكون نقلا لها عن أصلها إنما يتصور النقل فيما دخل تحت النطق.

وإذا امتنع أن يوصف المحذوف بالمجاز بقى القول فيما لم يحذف ، وما لم يحذف ودخل تحت الذكر لا يزول عن أصله ومكانه حتى يغير حكم من

---

(١) هو من باب الحذف على أن القرية لم يرد بها أهلها مجازا مرسلا لعلاقة الحالية أو المحلية ، وإلا فلا حذف . وكذا على ما قاله داود الظاهرى من أن اسم القرية مشترك بين المكان وأهله ٣ : ١٩١ شرح الدسوقى — شروح التلخيص .

أحكامه أو يغير عن معانيه ، فأما وهو على حاله والمحذوف مذكور فتوهم ذلك فيه من أبعد المحال فاعرفه .

وإذا صح امتناع أن يكون مجرد الحذف مجازاً أو تحق صفة باق الكلام بالمجاز من أجل حذف كان على الإطلاق دون أن يحدث هناك بسبب ذلك الحذف تغير حكم على وجه من الوجوه ، علمت منه أن الزيادة في هذه القضية كالحذف ، فلا يجوز أن يقال إن زيادة (ما) في نحو « فبما رحمة » مجاز أو أن جملة الكلام تصير مجازاً من أجل زيادته فيه . وذلك أن حقيقة الزيادة في الكلمة أن تعرى من معناها وتذكر ولا فائدة لها سوى الصلة ويكون سقوطها وثبوتها سواء . ومحال أن يكون ذلك مجازاً لأن المجاز أن يراد بالكلمة غير ما وضعت له في الأصل أو يزاد فيها أو يوهم شيء ليس من شأنها ، كإيهامك بظاهر النصب في القرية أن السؤال واقع عليها . والزائد الذي سقوطه كثبوته لا يتصور فيه ذلك .

فأما غير الزائد من أجزاء الكلام الذي زيد فيه فيجب أن ينظر فيه ، فإن حدث هناك بسبب ذلك الزائد حكم تزول به الكلمة عن أصلها ، جاز حينئذ أن يوصف ذلك الحكم أو ما وقع فيه بأنه مجاز . كقولك في نحو قوله تعالى (ليس كمثله شيء) : إن الجر في المثل مجاز لأن أصله النصب والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف . ولو كانوا إذ جعلوا الكاف مزيدة لم يعملوها لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام . ويزيده وضوحاً أن الزيادة على الإطلاق لو كانت تستحق الوصف بأنها مجاز ينبغي أن يكون كل ما ليس بمزيد من الكلم مستحقاً الوصف بأنه حقيقة حتى يكون الأسد في قولك رأيت أسداً — وأنت تريد رجلا — حقيقة .

فإن قلت : المجاز على أقسام والزيادة من أحدها .

قيل : هذا لك إذا حددت المجاز بحد تدخل الزيادة فيه ، ولا سبيل

ئالك إلى ذلك لأن قولنا « المجاز » يفيد أن تجوز بالكلمة موضعها فى أصل الوضع وتنقلها عن دلالة إلى دلالة أو ما قارب ذلك .

وعلى الجملة فإنه لا يعقل من المجاز أن تسلب الكلمة دلالتها ثم لا تعطيها دلالة أخرى وأن تخليها من أن يراد بها شىء على وجه من الوجوه ، ووصف اللفظ بالزيادة يفيد ألا يراد بها معنى وأن يجعل كأن لم يكن لها دلالة قط .

فإن قلت : أو ليس يقال إن الكلمة لا تعرى من فائدة ما ولا تصير لغواً على الإطلاق ، حتى قالوا إن نحو (ما) فى نحو « فبما رحمة من الله » تفيد التوكيد ؟ وأنا أقول : إن كون (ما) تأكيداً نقل لها عن أصلها ومجاز فيها . وكذلك أقول : إن كون الباء المزيدة فى « ليس زيد بخارج » لتأكيد النفى مجاز فى الكلمة لأن أصلها أن تكون للالصاق .

فإن(١) ذلك على حده لا يقدح فيما أردت تصحيحه لأنه لا يتصور أن تصف الكلمة من حيث جعلت زائدة بأنها مجاز ومتى ادعينا لها شيئاً من المعنى فإننا نجعلها من تلك الجهة غير مزيدة ، ولذلك يقول الشيخ أبو على فى الكلمة إذا كانت تزول من أصلها من وجه ولا تزول من آخر « معتد بها من وجه غير معتد بها من وجه » كما قال فى اللام من قولهم « لا أبا لزيد » جعلها من حيث منعت أن يتعرف الأب بزيد معتداً بها ومن حيث عارضها لام الفعل من الأب التى لا تعود إلا فى الإضافة نحو أبو زيد وأبا زيد غير معتد بها وفى حكم المقحمة الزائدة ، وكذلك توصف (لا) فى قولنا « مررت برجل لا طويل ولا قصير » بأنها مزيدة ولكن على هذا الحد فيقال : هى مزيدة غير معتد بها من حيث الإعراب ومعتد بها من حيث أوجبت نفى الطول والقصر عن الرجل ولولاها لكانا ثابتين له . وتطلق الزيادة على (لا) فى نحو قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون » ، لأنها لا تفيد النفى فيما دخلت عليه ولا يستقيم

(١) هذا هو جواب الشرط .

المعنى إلا على إسقاطها ، ثم إن قلنا إن (لا) هذه المزيدة تفيد تأكيد النفى الذى يجىء من بعد فى قوله « أن لا يقدرون » وتؤذن به ، فإنا نجعلها من حيث أفادت هذا التأكيد غير مزيدة وإنما نجعلها مزيدة من حيث لم تفد النفى الصريح فيما دخلت عليه كما أفادته فى المسألة .

وإذا ثبت أن وصف الكلمة بالزيادة نقيض وصفها بالإفادة ، علمت أن الزيادة من حيث هى زيادة لا توجب الوصف بالمجاز .

فإن قلت تكون سبباً لنقل الكلمه عن معنى هو أصل فيها إلى معنى ليس بأصل .

كنت تقول قولا لا يجوز الإصغاء إليه . وذلك ـ إن صح ـ نظير ما قدمت من أن الحذف او الزيادة قد يكون سبباً لحدوث حكم فى الكلمة تدخل من أجله فى المجاز كنصب القرية فى الآية وجر المثل فى الأخرى فاعرفه .

واعلم أن من أصول هذا الباب أن من حق المحذوف أو المزيد أن ينسب إلى جملة الكلام لا إلى الكلمة المجاورة له ، فأنت تقول إذا سئلت عن « القرية » فى الكلام حذف والأصل أهل القرية ثم حذف الأهل ، يعنى حذف من بين الكلام . وكذا تقول : الكاف زائدة فى الكلام والأصل ليس مثله شىء ، ولا تقل هى زائدة فى « مثل » إذا لو جاز ذلك لجاز أن يقال إن « ما » فى « فيما رحمة » مزيدة فى الرحمة أو فى الباء ، وإن (لا) مزيدة فى (يعلم) . وذلك بين الفساد ، لأن هذه العبارة إنما تصلح حيث يراد أن حرفا زيد فى صيغة اسم أو فعل ، على أن يكون لذلك الحرف على الانفراد معنى ولا تعده وحده كلمة ، كقولك : زيدت الياء للتصغير فى قولك رجيل والتاء للتأنيث فى ضاربة ، ولو جاز غير ذلك لجاز أن يكون خبر المبتدأ إذا حذف فى نحو « زيد منطلق وعمرو » محذوفاً من المبتدأ نفسه على حد حذف اللام من يد ودم ؛ وذلك ما لا يقوله عاقل ، فنحن إذا قلنا إن الكاف مزيدة فى (مثل) فإنما نعنى أنها ما زيدت فى الجملة وضعت فى هذا الموضع منها ، والأصح فى

العبارة أن يقال : الكاف في (مثل) مزيدة يعني الكاف الكائنة في مثل مزيدة كما تقول : الكاف التي تراها في مثل مزيدة ، ولذلك تقول : حذف المضاف من الكلام ولا تقول : حذف المضاف من المضاف إليه، وهذا أوضح من أن يخفى. ولكني استقصيته لأني رأيت في بعض العبارات المستعملة في المجاز والحقيقة ما يوهم ذلك فاعرفه .

ومما يجب ضبطه هنا أيضاً أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين :

أحدهما : أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، ومثاله الآيتان المتقدم تلاوتهما، ألا ترى أنك لو رأيت «سل القرية» في غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفا ؟ لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية خربت وباد أهلها فأراد أن يقول لصاحبه واعظا ومذكراً أو لنفسه متعظاً ومعتبراً : سل القرية عن أهلها وقل لها ما صنعوا . على حد قولهم : سل الأرض من شق أنهارك : وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً(١) ،وكذلك إن سمعت الرجل يقول :ليس كمثل زيد أحد ، لم تقطع بزيادة الكاف ، وجوزت أن يريد ليس كالرجل المعروف بمماثلة زيد أحد .

وثانيهما : أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بحذف أو بزيادة من أجل الكلام نفسه لا من حيث غرض المتكلم به ، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزئي الجملة كالمبتدأ في نحو قوله تعالى : «فصبر جميل» وقوله «متاع قليل» لابد من تقدير محذوف ولا سبيل إلى أن يكون لهمعنى دونه ، سواء كان في التنزيل أو في غيره ، فإذا نظرت إلى «صبر جميل» في قول الشاعر :

(١) هذا ينسب للفضل بن عيسى الرقاشي كما في البيان والتبيين للجاحظ .

٤٩٨ — يشكو إلى جملي طول السرى   صبر جميل فكلانا مبتلى

وجدته يقتضي تقدير محذوف كما اقتضاه في التنزيل ، وذلك أن الداعي إلى تقدير المحذوف هنا هو أن الإسم الواحد لا يفيد ، والصفة والموصوف حكمها حكم الإسم الواحد ، وجميل صفة للصبر ، وتقول للرجل : من هذا ؟ فيقول : زيد يريد هو زيد ، فتجد هذا الإضمار واجباً لأن الإسم الواحد لا يفيد ، وكيف يتصور أن يفيد الإسم الواحد ومدار الفائدة على إثبات أو نفي وكلاهما يقتضي شيئين : مثبت ومثبت له ومنفي ومنفي عنه .

وأما وجوب الحكم بالزيادة لهذه الجهة فكنحو قولهم : بحسبك أن تفعل ، وكفى بالله . إن لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وجهاً تصرفه إليه وتأويلا تتأوله عليه ألبتة ، فلابد لك من أن تقول : إن الأصل حسبك أن تفعل وكفى الله ، وذلك أن الباء إذا كانت غير مزيدة كانت لتعديه الفعل إلى الإسم وليس في « بحسبك أن تفعل » فعل تعديه بالباء إلى حسبك ، ومن أين يتصور أن يتعدى إلى المبتدأ فعل والمبتدأ هو المعرى من العوامل اللفظية ؟ وهكذا الأمر في « كفى » أو أقوى ، وذلك أن الاسم الداخل عليه الباء في نحو « كفى بزيد » فاعل كفى ، ومحال أن تعدى الفعل إلى الفاعل بالباء أو غير الباء ، ففي الفعل من الاقتضاء للفاعل ما لا حاجة معه إلى متوسط وموصل ومعد ، فاعرفه ، والله أعلم بالصواب ...

تم الكتاب ، والحمد لله على توفيقه

فهرس الجزء الثاني

(انتهى الكتاب)